مجمع البيان

في شرح
مقاصد الفتن في القرآن

(دراسة موضوعية تطبيقية للفتن بين الماضي والحاضر)

نصر عبد اللّه المقداد

راجعه وقدم له:
- الشيخ أحمد العقلة
- د. محمود الغوثاني
- الشيخ ابو الفضل محمد

مجمع البيان في شرح مقاصد الفتن في القرآن - نصر المقداد - 2022



مجمع البيان

في شرح مقاصد الفتن في القران

(دراسة موضوعية تطبيقية للفتن بين الماضي والحاضر)

مجمع البيان

في شرح مقاصد الفتن في القرآن

(دراسة موضوعية تطبيقية للفتن بين الماضي والحاضر)

نصر عبد الله المقداد

راجعه وقدّم له:

الشيخ أحمد العقلة – د. محمود الغوثاني

الشيخ أبو الفضل محمد



وقال تعالى:

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٥]

قال تعالى:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت:٢]

وقال تعالى:

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢]

تقريظ فضيلة الشيخ أحمد العقلة رحمه الله[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله للناس نوراً، م قال به صدق، ومن حكم به عدل، لا يأتيه الباطل من بين يديد ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

الحمد لله على نعمة البيان والقلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله، من حباه ربه سبحانه بروعة البلاغة، وسحر البيان، وعلى آله وصحبه في كل وقت وآن.

ثم أما بعد:

فقد رغب إليّ الأخ الحبيب الفاضل أبو عبد الله، من خطّت أنامله هذا الكتاب، بأن أقدم مقدمة يسيرة بين يدي هذا الكتاب، وأنا أشكر له هذه الثقة، وأقدّر له هذا التكريم، وقد عرفت فيه الإنسان الملتزم بدينه، الغيور على أمته، الطموح إلى معالي الأمور، وأقدر له هذه الجرأة المحمودة في الإقدام على الكتابة، وهو أهلها.

ولقد أثار اهتمامي الموضوع الذي اختاره لكتابه، (الفتنة)، وهو موضوع بلا شك حيوي وهام لأنه يشكل أداة لبناء المعرفة والوعي في موضوع يمس المسلم في دنياه وآخرته، وهو يقدم للعقل والفكر جرعات من الوعي والفهم، لخطر الفتن، خصوصاً تلك التي تموج موج البحر التي تضطرب فيها أحوال الناس، ويصبح دينهم في خطر.

---

[1] إمام وخطيب ومُدرّس في مدينة بصرى الشام، مصلح اجتماعي، كتب الله القبول بين الناس، عُرف بمنهجه الوسطي، تخرج من كلية الشريعة في دمشق عام: ١٩٩٥.

فهذا الكتاب يقدم للقارئ زاداً مهماً يميز م خلاله أخطار الفتن فيتجنبها، ويكون منها في عافية.

وهو كتاب متكامل في طرق معاني الفتنة في القرآن الكريم، مما يشكل مرجعاً جيداً للمسلم في هذا الموضوع.

إني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون الأخ أبو عبد الله قد وُفّق في هذا الكتاب، وأرجو له القبول م الله عزّ وجلّ، ثم من القراء الكرام، وأسأله سبحانه أن يوفقه إلى المزيد، وأ ينفع به المسلمين.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه

والحمد لله رب العالمين

تقريظ فضيلة الأستاذ الدكتور محمود الغوثاني:

تقريظ كتاب مجمع البيان في شرح مقاصد الفتن في القرآن:

بدأت ببسم الله والله واهب

أصولَ الهدى والحمد لله واجب

وثنيت صلى الله ربي على الذي

تجلت به الأخلاق ثم المواهب

لقد جمع (المقداد) ضمن كتابه

مواضع إفتان الورى حيث حاربوا

وقسّم أنواعا وأدلى بحجة

تبدت بها للناس دوما مراتب

وحذر أرباب الهوى من ضلالهم

لأن هواهم للهدى لا يقارب

فجاء بحمد الله كالماء في الظما

وكالبدر في ليل دهته النوائب

فيارب وفقه وبارك صنيعه

فمنك الهدى دوما ومنك المكاسب

وصل على المختار ما الفجر أقبلت

نسائمه أو جاء للبيت راغب

كتبت له هذي الحروف وإنني

لأرجو لهذا السفر خيرا يصاحب

الدكتور محمود عبد الرزاق غوثاني

جامعة موش ألب أرسلان – كلية العلوم الإسلامية

الخميس ٢٥ جمادى الأولى ١٤٤٠، يوافقه ٣١ كانون الثاني ٢٠١٩

تقريظ فضيلة الشيخ أبو الفضل نكه مي[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اوسط الأمم، وأشهدنا على الناس، وجعل الشاهد علينا خير خلقه، وخاتم رسله صلى الله عليه وآله وسلم، فخصّنا الله تعالى بهذه المنقبة، وأكرمنا بهذه المكرمة، وأنزل كتابه الكريم على نبينا الاعظم، والجناب الافخم، وانزل به هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، وجعل عاقبة من تمسك به الجنان، وعاقبة من زاغ عنه - والعياذ بالله - الهوي في النيران، وقد بيّن الله تعالى للمسلمين في كتابه الكريم، ما كان وما سيكون، وما يطمئن القلوب، ويقرّ العيون، ومن جملة ما ذكر وبيّن، وحذّر ونبّه.. الفتن.. عصمنا الله منها والمسلمين.

حيث أنه تعالى: ذكر أنواعها، وبيّن أسبابها، تحذيراً لعباده، وتبيانا لهم ليتّعظوا، فلا يضلّوا، او ينزلقوا فيها.

وقد شرّفني أخي المكرم الباحث البصير، والمحقق الخبير، الذي أكرمه الله تعالى بعلم من العلوم التي قلّ طالبها، وعزّ خابرها، علوم الفتن وأحداث آخر الزمان، الشيخ ابو عبد الله نصر المقداد.. حفظ الله مهجته..

بالاطّلاع على ما دبجت يراعه الكريمة، ووصل إليه بحثه ودرسه، مما يتعلق بالفتن - رجاء العصمة منها - وما ورد ذكره من شأنها في القرآن الكريم، فوجدته ما شاء الله، فارس الميدان، وسيد البيان، وصاحب الشان، فقد تقصّى وجمع، وبحث ورتّب، وقسم فعدل، فتراه حيث تدارك البحث من الآيات الكريمة، وشفعه

[1] محقق ومؤلف له عدداً من المؤلفات، ويحمل العديد من الإجازات في علوم الشريعة.

بالأحاديث النبوية الشريفة، ثم اعقبه بأقوال المفسرين، والأئمة من العلماء العاملين، فأخرج دررا بعد غوصه، ونشر علماً بعد طمسه، فالله أسأل له أجر المحسنين، ودرجة العلماء العاملين، وأن يؤجره عن المسلمين.

وكتبه المستفيد مما قرأ

محمد ابو الفضل نكه مي

Abualfadl muhamad

الخميس ٢٥ جمادى الاولى ١٤٤٠

الموافق لليوم ٣١ كانون الثاني ٢٠١٩

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن لله سنناً في خلقه لا تعرف تحويلاً ولا تبديلاً، سنناً مطردةً لا تحابي ولا تجامل أحداً، سبحان من جعلها محققةً للتوازن والتمحيص بين الخلق أجمعين! فهي قوانينُ ربانيةٌ تُغلفها حكمته جل في علاه، وترعاها قدرته الإلهية، تمضي وفق علم الله المطلق، الأزلي السرمدي، لا تحيد عن علمه ولا عن قدرته ولا عن حكمته، سبحانه وتعالى.

ومن هذه السنن والقوانين، سنن الابتلاء والامتحان والفتنة، وهي سنن وإن كانت تختلف في حكمة كل واحدة منها، وفي طبيعة كل واحدة منها، فله سبحانه طرائق، بعدد أنفاس الخلائق، تجتمع في أنها تعرض الإنسان لظروف وتحولات في حياته، فتؤثر فيه إما سلباً أو إيجاباً، ولعل هذا التأثير الذي من شأنه أن يبرز النتائج إما نجاحاً وإما سقوطاً، هو من أبرز الحِكم التي جعلت لأجله هذه السنن الربانية، لتميز الخبيث من الطيب، والجيد من الرديء، والخالص من الزائف.

ونحن في هذا الكتاب سندرس بإذن الله تعالى، قوانين الفتن، التي ذكرت في كتاب الله الحكيم، وسنذكر الفروق بين سنة الابتلاء وسنة الفتنة، ثم نبحر بين أمواج معاني وأسباب الفتن كما ذكرت، حتى نفهم ماهيتها، ونتعرف عليها لكي نحذرها، فإن عدم فهم السنن والفتن، مُوقع في البلابل والاضطرابات النفسية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والثقافية، حتى نصل إلى شواطئ الاعتصام والنجاة منها، كما علمنا الله تعالى وأرشدنا رسوله ﷺ.

والفتن -كما سيمر معنا- منها العام الذي يصيب الأمم والجماعات، ومنها الخاص الذي يصيب الفرد أو الأسرة، ومنها الفتن الكبيرة والصغيرة، وفي جوهرها؛ فمنها الظاهرة ومنها الباطنة، ومنها ما يكون في العطاء ومنها ما يكون في المنع، وفي الخير والشر، وبها تنكشف معادن البشر، بتقلب أحوالهم وأوقاتهم وأنظمة حياتهم، وتختبر نفوسهم وقلوبهم.

وهي تارة تكون عقوبة، وتارة تكون كفارة عن الذنوب، وتارة تكون ترقية في مقامات ومنازل الجنة، لمن شاء الله له الارتقاء، مع قلة العمل والتقصير من المؤمن، فضلاً من الله وكرماً وعطاءً.

وقد جاء ذكر الفتنة في كتاب الله ثلاثاً وستين مرة في ثمانٍ وخمسين آية؛ تدور حول أكثر من خمسة عشر محوراً أساسياً من محاور حياة الإنسان عموماً والمؤمن خاصة.

وهذا العدد من الآيات التي تدور حول الفتنة ومعانيها، لجديرٌ بالدراسة والبحث والتحري والتدقيق، لفهم أبعادها وماهياتها ومواضيعها، ومعرفة أشكالها وأنواعها.

إن دراسة أيّ جزئية أو سنة أو موضوع في القرآن الكريم، هو دراسة لكلام الله تعالى، الذي فيه مراداته وأوامره ونواهيه وسننه في الحياة والكون، والتقرب إليه تعالى، من خلال فهمها واكتشاف أسرار مراداته وخفايا حكمته، ونيل رضاه عز وجل في علاه.

لذا فإن في دراسة الفتن كما ذكرها سبحانه وتعالى، امتثالاً لأمره تعالى:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَاب﴾ [ص:٢٩]

مما يوسع أمام الدارس والقارئ، الناظر والمدقق والمعتبر، مدارك الوعي والفهم لإحدى سننه وقوانينه في الخلق والكون، فيتجهز للتلقي والتوقي، فلا ينصدم حين نزولها، ولا يعترض أو يضجر منها، بل يرضى بما كان من الله قضاء وقدراً، أو عقوبة وتكفيراً، ويسعد برحمته وكرمه لما يظن أنها رفعٌ للدرجات والمنازل.

كما أن دراسة الفتن كما وردت في كتاب الله تعالى لها فوائد كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تزيد في إيمان المؤمن وتدله على سبل الثبات.

- تُعرّف المؤمن على مواطن الشر ليصبح لديه ملكة استشعار حقائق الحوادث وبواطن الأمور.

- تُعين المؤمن على طلب طرق النجاة وسبل الاعتصام لتجنب الزلل حين الفتن.

- تُعرّف المسلم على تاريخ الأمم السالفة، وكيف افتتنت، وكيف نجا من نجا منها، ولماذا سقط من سقط.

- معرفة أنواع الفتن وأشكاها وأحجامها، ومآلاتها ونتائجها وأسرارها، والعمل على المبادرة والمعاجلة قبل المعالجة والبحث عن طرق الخلاص بعد نزولها.

عملي في الكتاب:

لقد كان العمل في هذا الكتاب، رحلة ممتعة بين شواطئ بحور العلم المتعددة، أقف على كل شاطئ منها مستنشقا عبق ما كنت أغوص في بحره، فتارة أرسو على شواطئ علوم اللغة وكتب المعاجم، فأنهل من روح المعاني وأسرار المباني، وتارة أرسو على شواطئ علوم الحديث؛ فأتعطر من طيب متونها وأعيش مع مجد رواتها، وتصطك ركبي تحت منابر الأكابر، حتى إذا أبحرت إلى شواطئ علوم القرآن والتفسير؛ فأجدني

وقد ارتقت روحي، ترفرف حول أنوار الجلال ورونق الجمال، بين جلال التنزيل وروائع التأويل، ساكنة مطمئنة، أمام هيبة العلماء، من الأعلام العظماء، منابر التفسير الأجلاء، ثم أكمل رحلتي حتى أرسو على شواطئ علوم التاريخ؛ فأغوص في عبق التراث، أفتش أسرار الوقائع والأحداث، مما تركه السلف من ميراث، فأستلهم العبر وأسطر الأبحاث، حتى أرجع إلى الحاضر المعاصر، فأتنقل في رحلتي بين كنوز المعاصرين، من أسفار العارفين، وروائع الفاهمين، من المشفقين على أحوال المسلمين، والصالحين المصلحين، فأقطف من كل بستان وردة، يفوح منها عطر الياسمين، لأعطر بها كتابي، حتى يصبح روضة للراتعين، ومرجعاً للناهمين، الباحثين عن النجاة من الفتن ومكائد الكائدين.

هذه كانت بفضل الله رحلتي مع هذا الكتاب، بين آيات القرآن الكريم، وبين ما سطره أولو النهى وذوو الألباب، لأخرج لكم سفرا؛ أسأل الله أن يكون قد ألهمني به الصواب، وأن يكتب له القبول إنه هو الوهاب، وأن يعمم نفعه ويجزيني الثواب، وكل من ساهم فيه وساعد في نشره وطبعه من الأصدقاء والأصحاب، ومن الأساتذة الأطياب، وطلبة العلم ذوي الألباب، وأن يرزقنا في الدنيا حسن المآب، وفي الآخرة خير الحساب، إنه أكرم مسؤول والجدير بالجواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وذريته والأصحاب.

خطوات العمل في الكتاب:

بعد أن فتشت عن كتاب يجمع ما ورد في القرآن الكريم من حديث عن الفتن، فلم أجد في حدود بحثي القاصر، توكلت على الله تعالى في هذا العمل، فكانت المراحل على الشكل التالي:

أولاً- جمعت الآيات التي ورد فيها لفظ "فتنة" ومشتقاتها.

ثانياً- رتبت الآيات بحسب الأبواب التي تجمع معانيها.

ثالثاً- لخصت أصح ما جاء في كتب التفاسير عن معانيها، وكنت أبدأ بتفسير الإمام الطبري شيخ المفسرين رحمه الله تعالى، ثم أنظر في التفاسير كافة، المتاحة لدي؛ كتفاسير الأئمة الأجلاء: الطبري، والقرطبي، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والقاسمي، والألوسي، والمراغي، وابن عاشور، والشنقيطي، والشعراوي، وطنطاوي، والدكتور أحمد نوفل، والشيخ بسام جرار، والدكتور محمد راتب النابلسي، رحم الله من ارتقى منهم للرفيق الأعلى، وحفظ الله وبارك فيمن يعيشون بيننا أعلاماً وهداة، ورزقنا وإياهم والقارئ الكريم العفو والعافية، اللهم آمين.

رابعاً- قدمت دراسة عن منهج القرآن الكريم في تناوله لمواضيع الفتن.

خامساً- قمت بدراسة مختصرة عن فلسفة الفتن والحكمة منها في القرآن الكريم.

سادساً- قمت بإفراد بعض الآيات وقدمتها كقواعد عامة في مسائل الفتن.

سابعاً- بعد تقديم معنى الفتنة لغة واصطلاحا؛ قدمت تحليلا لمعنى الفتن، وأنواعها، وفرقت بين الفتنة والابتلاء.

ثامناً- قمت باستعراض كل فتنة على حده، للنظر في ملابسات وقوعها قديما، وكيف أصبحت في الزمن المعاصر.

تاسعاً- تحدثت في الخاتمة عن تعامل النفس البشرية مع الفتن كعلم نفس.

عاشراً- تناولت أهم النصائح والارشادات للنجاة من الفتن، الخاصة منها والعامة.

أسأل الله تعالى أن أكون قد قدمت ما فيه منفعة للأمة، من خلال خدمة كتاب الله تعالى المليء بالكنوز والمنافع والأسرار التي لا تنتهي، والتي يجب على المسلم أن يديم النظر فيها متدبراً لما بين السطور، فإن كنوز هذا الكتاب العظيم لا تنتهي.

وأسأل الله تعالى أن يفتح لنا فيه ما ينفعنا وينفع الأمة، فيكون سبباً لهداية الناس أجمعين، فما أنزله الله إلا هادياً للعالمين.

شكر وتقدير:

ولا يسعني إلا أن أشكر كل من ساعدني في هذا الكتاب بالتدقيق والمراجعة والنصيحة: الكاتب والروائي محمد فتحي المقداد، والشيخ أحمد العقلة، والدكتور محمود الغوثاني، والشيخ أبا الفضل محمد، والأستاذ فؤاد قنايا، على مجهودهم الذي قدموه من مراجعة وتدقيق، فشَكَرَ الله لهم.

وأسأل الله تعالى أن يرفع عن الأمة الفتن والمحن والبلايا، وأن ينجينا وإياكم من مضلات الفتن، إنه أكرم مسؤول والقادر عليه، وصلى الله على سيدنا ومعلمنا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعنا معهم بكرمه وفضله..

اللهم آمين.

الفصل الأول

وفيه:

١- التعريفات.

٢- منهج القرآن الكريم في تناول مواضيع الفتن.

٣- فلسفة الفتنة في القرآن الكريم.

٤- قواعد أساسية في الفتن:

١- قاعدة ارتباط الايمان بالفتن.

٢- قاعدة الفتن سنة ربانية.

٣- قاعدة الفتنة تكون بالخير والشر.

٤- قاعدة الناس فتنة لبعضهم.

٥- قاعدة تعميم نزول الفتنة على الجماعة أو الأمة.

٦- قاعدة الإمهال حتى تقوم الساعة.

٧- قاعدة موالاة الكفار تسبب انتشار الفتن.

٨- قاعدة من يرد الله فتنته فلا راد لإرادته.

٩- قاعدة الفتنة أشد وأكبر من القتل.

١٠- قاعدة عقوبة من يفتن المؤمنين.

٥- فتنة زهرة الحياة الدنيا.

٦- التذبذب في الفتن والعبادة على حرف.

٧- فتنة مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم.

التعريفات لغةً واصطلاحًا

لقد درج في عرف أهل التصنيف في العلوم الشرعية أن يبدؤوا بالتعريفات اللغوية والاصطلاحية، بدء من تعريف مفردات اسم الكتاب، وصولا إلى المفردات الأكثر استعمالا في العلم المراد التصنيف فيه.

وحيث أن كتابنا هذا الذي بين أيدينا سميته: (الفتن الواردة في القرآن الكريم)، فنبدأ باسم الله بتعريف الفتنة:

- **الفتنة لغةً**:

قال ابن منظور في لسان العرب[1]:

(فتن: الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد، وفي الصحاح: إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون. والفتن: الإحراق، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿**يوم هم على النار يفتنون**﴾ أي يحرقون بالنار. ويسمى الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان.

ابن الأعرابي: الفتنة الاختبار، والفتنة المحنة، والفتنة المال، والفتنة الأولاد، والفتنة الكفر، والفتنة اختلاف الناس بالآراء، والفتنة الإحراق بالنار؛ وقيل: الفتنة في التأويل الظلم. يقال: فلان مفتون بطلب الدنيا قد غلا في طلبها. ويقال: فتن الرجل بالمرأة وافتتن، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة إذ ولهته وأحبها.

[1] لسان العرب لابن منظور، مادة فتن، (٣١٧/١٣).

وقال سيبويه: فتنه جعل فيه فتنة، وأفتنه أوصل الفتنة إليه. والفاتن: المضل عن الحق. والفاتن: الشيطان لأنه يضل العباد، صفة غالبة.

والفتنة: ما يقع بين الناس من القتال. والفتنة: القتل؛ وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم: إني أرى الفتن خلال بيوتكم، فإنه يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين إذا تحزبوا. وقوله عليه السلام: ما تركت فتنة أضر على الرجال من النساء؛ يقول: أخاف أن يعجبوا بهن فيشتغلوا عن الآخرة والعمل لها. وفتنة المحيا: أن يعدل عن الطريق. وفتنة الممات: أن يسأل في القبر.

قال ابن الأثير: وقد كثر استعمالها فيما أخرجه الاختبار للمكروه. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أنه سمع رجلا يتعوذ من الفتن، فقال: أتسأل ربك ألا يرزقك أهلا ولا مالا؟ تأول قوله عز وجل: ﴿**إنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾ ولم يرد فتن القتال والاختلاف).

- **الفتنة في الاصطلاح**:

قال الجرجاني: (الفتنة: هي ما يتبين بها حال الإنسان من الخير والشر)[1].

وقال الإمام الطاهر بن عاشور في تفسيره لسورة البقرة الآية ١٠٢: ﴿**إنما نحن فتنة فلا تكفر**﴾ قال: (الفتنة لفظ يجمع معنى مرج واضطراب أحوال أحد وتشتت باله بالخوف والخطر على الأنفس والأموال على غير عدل ولا نظام، وقد تُخَصَّصُ وَتُعَمَّمُ بحسب ما تضاف إليه أو بحسب المقام، يقال فِتْنَةُ الْمَالِ وَفِتْنَةُ الدِّينِ. ولما كانت هذه الحالة يختلف ثبات الناس فيها بحسب اختلاف رجاحة عقولهم وصبرهم ومقدرتهم على حسن المخارج منها، كان من لوازمها الابتلاء والاختبار فكان ذلك من المعاني

[1] التعريفات للجرجاني ص ٢١٢

التي يكنى بالفتنة عنها كثيرا، ولذلك تسامح بعض علماء اللغة ففسر الفتنة بالابتلاء وَجَرَّأَهُ على ذلك قول الناس فتنت الذهب أو الفضة إذا أذابهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، وهذا الإطلاق إن لم يكن مُوَلَّدًا فإن معنى الاختبار غير منظور إليه في لفظ الفتنة، وإنما المنظور إليه ما في الإذابة من الاضطراب والمرج، وقد سمى القرآن هاروت وماروت فتنة وقال: ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات**﴾ وقال: ﴿**لا يفتننكم الشيطان**﴾)[1].

- **تحليل معنى الفتنة**:

ذكرت آنفا قول سيبويه: "فتنه جعل فيه فتنة، وأفتنه أوصل الفتنة إليه". فكيف نفهم هذا؟

سأضرب أولاً مثالاً للتوضيح: عندما يقول أخصائي التخدير: خدرته فتخدر، وربما يقول: خدرته ولم يتخدر؛ أي لم تؤثر فيه كمية المخدر الذي وضعته، فقوله: خدرته؛ أي قمت بعمل التخدير، أي أن فعل التخدير قد حدث فعلا، ولكن هل استجاب المريض لهذا المخدر أم لا؛ أي هل وقع فعل التخدير أم لا؛ فهذه مسألة ثانية.

وكذلك قولنا فتنته؛ نقول: فتنته فافتتن، أي عرضت عليه ما يفتنه فوقع في الفتن، وفتنته ولم يفتتن؛ أي عرضت عليه ما يفتنه ولكنه لم يسقط في الفتنة.

إذاً: مجرد قولنا: فتنته؛ أي عرضته للفتنة بمعنى عرضته للاختبار، ولكن النتيجة شيء آخر، إذا؛ ليست الفتنة بحد ذاتها هي شر، ولكن نتيجة التعامل مع الفتنة هي ما يحكم عليه بالنجاح أو السقوط.

---

[1] التحرير والتنوير للإمام ابن عاشور رحمه الله، (ج١: ٦٤٣).

وقول العلماء بأن الفتنة أصلها مأخوذ من قولك فتنتُ الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد، نستطيع فهم هذا بعمل معادلة رياضية؛ فالإنسان مجرد خليط من الصفات والمشاعر، يحمل في فطرته جميع المتناقضات، كالحب والكره، والغضب والرضا، والحزن والفرح، وهكذا، والإنسان يميل إلى المشتهيات كالمال والشهرة والنساء والأولاد، كما ذكر القرآن الكريم ذلك، إذا فتعرضه للفتن سينتج عنه ردة فعل، والله تعالى برحمته يريد أن يربي خلقه ليصلوا إلى أقرب كمال، فيعرضهم للفتن ليسبر أطباعهم ويصقل هذه الصفات والمشاعر لاستخلاص أفضل ما لدى المرء منها، وبهذا ينسجم معنى فتنة الذهب مع فتنة الإنسان.

وتعريف للإمام الجرجاني السابق، يحتاج اليوم إلى تفصيل وشرح أكثر، ليتبين مقصده من هذا التعريف المختصر الجامع، لكي يتضح المعنى، ويكون لنا منطلقا في فهم الآيات والأحاديث التي تناولت الحديث عن الفتن.

فالمراد الآن هو التأكيد على أن أي شيء يظهر جانب الخير أو جانب الشر عند تعامل الإنسان معه، فهو بمثابة الفاتن الممحص له.

وكذلك فإن ما أشار إليه بعض العلماء إلى أن للفتنة أكثر من معنى، أي أن معنى الفتنة يختلف بحسب سياق النص وبحسب ورودها فيه، كقول علماء اللغة: إن جماع معنى الفتنة هو الابتلاء والامتحان والاختبار، وقول أهل التفسير: إن الفتنة قد تأتي بمعنى الشرك أو الكفر أو الحرق أو العذاب، إلى آخر ما قالوا، فهذا يحتاج أيضا إلى شرح وتفصيل، للتوفيق بين تلك الأقوال جميعها في إطار ما قاله الجرجاني.

فبعد النظر والتحقيق والتدقيق، في مواضع ورود لفظ الفتنة في القرآن الكريم، وفي صحيح السنة النبوية المطهرة، على اختلاف أسباب ودوافع ورودها، تبين

لي أن للفتنة معنىً واحداً فقط، لا ثاني له، وهذا ما سنبينه إن شاء الله بالدليل الواضح البين.

وقد أشكل ذلك على أكثر الناس، فظنوا أن للفتنة في اللغة والاصطلاح معانيَ مختلفة، بسبب ما جاء في المعاجم وكتب التفاسير من شروحات للفتن بأن معناها هو ما يأتي بحسب السياق، فتكون الفتنة هي الشرك أو العذاب أو غيرها كما ذكرت آنفا.

ولا أقول إن الأئمة الذين ذكروا المعاني المختلفة للفتنة في كتبهم، قد جانبهم الصواب فيما ذكروا، بل أقول إن الذي فهم منهم هو المجانب للصواب، وذلك من خلال ما وجدت في العديد من الكتب والرسائل الجامعية، والتي تناولت مواضيع الفتن وأشراط الساعة، فكانوا يبدؤون بتعريف الفتنة دون تحقيق معناها، مكررين القول إن لها معانيَ مختلفة من غير أن يبينوا حقيقة هذا الاختلاف في أنه ليس اختلافاً في معنى أصل كلمة الفتنة، بل هو اختلاف في أنواعها وأشكالها وأحجامها ومآلاتها.. إلخ.

بل وأن الفتنة تختلف أيضا عن الابتلاء والاختبار والامتحان من حيث الأصل والمراد منها، وإن كانت تدل على ذلك، وهذا أمر في غاية الأهمية لأنه يرتبط بالواقع بين الناس في حسن تناول معنى الفتنة أو سوء هذا التناول والفهم، وبالتالي ينعدم التمييز بين هذه الألفاظ، وحينها فمن يقع في الفتنة ولا يعرف نفسه أنه قد وقع في الفتن فلا يبادر إلى سرعة الخروج منها، فيظن نفسه مثلا أنه في ابتلاء رباني لا حيلة له فيه، وأن عليه الصبر والاستسلام فقط، أو أنه في اختبار، يستوي فيه الوقوع مع عدمه، بمعنى أنه ليس في الدين.

ومن جانب آخر فقد تم حصر معنى الفتنة في هذه المعاني المذكورة، وبالتالي أمن الناس مما لم يذكر ومما لم يعرفوه من حقيقة معنى الفتنة، وفي هذا خطر أكبر، لأن من لا يعرف الخطأ يقع فيه، ومن لم يعرف الفتن يقع فيها.

لذا، أولاً سأذكر حقيقة ما قصده العلماء من ذكرهم لتعدد معاني الفتنة، وعلى أي أساس لغوي ذكروا ذلك.

فمن المعلوم لدى أهل اللغة وأصول الفقه والتفسير أن للمجاز قواعد استخدمها العرب كما استخدمها القرآن الكريم، وأن المجاز له أقسام بحسب القواعد المعروفة لديهم.

ومن هذه القواعد في باب المجاز، المجاز اللغوي، وهو استعمال اللفظ في غير ما وضع له، ومنه المركب والمفرد، ومن المفرد الاستعارة والمرسل، ومن المرسل أقسام عشرة، وهنا مبتغانا وهدفنا من ذكر هذا التعديد، فمن هذه الأقسام، قسم تسمية الشيء باسم لازمه أو باسم مسببه أو باسم جزء منه أو باسم سببه.. إلخ، ومثال ذلك قول من ذهب لخطبة فتاة فإنه يقول: جئت لأخطب يد ابنتكم، فهو قال يد وهو يريد الفتاة وليس اليدَ فقط، وهذا من باب تسمية الشيء باسم جزئه، وكذلك كقولنا: دخلت الشمس إلى الغرفة من النافذة، وهو يريد ضوءها، والضوء لازم الشمس، فأطلق على الشيء اسم لازمه، وكذلك قولنا: أمطرت السماء نباتا، فالسماء لا تمطر نباتا، ولكن الغيث، والغيث هو سبب خروج النبات، فأطلقنا على النبات اسم مسببه، وهكذا نقول: المال فتنة، أو مالك فتنتك، والقصد أنه سبق للفتنة، فأطلقنا اسم الشيء على مسببه، ومنه قول النبي ﷺ لإحدى النساء: (**أذات زوج أنت؟ قالت: نعم، قال:**

كيف أنت له؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك).[1]

قال المناوي: أي الزوج (جنتك ونارك) أي: هو سبب لدخولك الجنة برضاه عنك، وسبب لدخولك النار بسخطه عليك، فأحسني عشرته ولا تخالفي أمره فيما ليس بمعصية. قلت: فنسب اسم الجنة والنار للزوج لأنه سبب دخول أحدهما، والأمثلة كثيرة.

وبناء على ما سبق، دعونا نستعرض ما ذكره أحد أئمة اللغة والتفسير من أهل القرن الثالث للهجرة، في شرحه لمعنى الفتنة، مع التعليق على كل معنى مما ذكره:

قال الإمام يحيى بن سلام في كتابه (التصاريف لتفسير القرآن)، حيث ذكر أن للفتنة أحد عشر وجها:

الوجه الأول: الفتنة يعني الشرك. وذلك قوله في سورة البقرة: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾ يعني حَتَّى لا يكون شركٌ، ﴿**وَيَكُونَ الدين للَّهِ**﴾ . ومثلها في سورة الأَنفال. وقال في سورة البقرة: {والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل} يعني الشِّرك أعظم جرما عند الله من القتل في الشَّهر الحرام.

قلت: وهو هنا يقصد القاعدة التي ذكرناها قبل قليل وهي: تسمية الشيء باسم مسببه، فيكون تطبيق القاعدة على ما ذكره الإمام ابن سلام على النحو التالي:

﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾: أي إياكم وترك الجهاد فتصبحوا ضعفاء مستعبدين، بل قاتلوهم ودافعوا عن دينكم وعن حرية اعتناقكم لدينكم والتمسك به، حتى لا

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده.

يتسلط عليكم أعداؤكم فيصدوكم عن دينكم ويجبروكم على تركه والعودة إلى الشرك والكفر من خلال تعذيبكم بسبب ضعفكم.

أي: فأنتم الآن تتعرضون لمعاملة قاسية فيها تعذيب يدخل الاضطراب والخلخلة في قلوبكم، فإما أن تنصاعوا لهذه المعاملة وإما أن تثبتوا على اختياركم الذي فضلتموه باتباع هذا الدين فتصبروا على هذا المعاملة القاسية.

فهذه المعاملة بكل ما تحتوي من ظروف وملابسات هي فتنة لكم. أي هي أقسى أنواع الاختبار والامتحان لأجل الثبات أو الانهزام، ومن ثبت نجح، ومن هزم سقط، أي سقط في الفتنة.

الوجه الثاني: الفتنة يعني الكفر، وذلك قوله في سورة آل عمران: {ابتغاء الفتنة} يعني الكفر. وقال في سورة براءة: {لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ} يعني الكفر. وقال {أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ} يعني في الكفر وقعوا. وقال في سورة النَّور: {فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ} يعني الكفر. وقال في سورة الحديد {ولكنكم فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ} يعني كفرتم أنفسكم. وكذلك كل فتنة في المنافقين واليهود.

قلت: أي في الفتن التي توقع في الكفر.

الوجه الثالث: الفتنة يعني البلاء: وذلك قوله في سورة العنكبوت: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون} يعني وهم لا يبتلون في إيمانهم. ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ يعني ولقد ابتلينا، ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

وقال لموسى في طه: {وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً} يعني ابتليناك ابتلاء على ابتلاء. وقال في سورة الدُّخان: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ﴾ يعين ابتلينا، ﴿ قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ﴾ .

قلت: وسنتحدث بعد قليل عن الفرق بين الفتنة والابتلاء، إلا أن كليهما يحملان معاني الاختبار والامتحان.

الوجه الرابع: الفتنة يعني العذاب في الدنيا: وذلك قوله في سورة العنكبوت ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ الناس﴾ يعني جعل عذاب الناس في الدنيا {كَعَذَابِ الله} في الآخرة. نزلت في عياش بن أبي ربيعة أَخي أبي جهل. ونظيرها في النّحل حيث يقول: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ يعني من بعد ما عذبوا في الدنيا.

قلت: أي فتنة المشركين للمسلمين لصرفهم عن دينهم، بالتعذيب والتهجير.

الوجه الخامس: الفتنة يعني الحرق بالنار، وذلك قوله في السَّماء ذات البروج: ﴿إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات﴾ يعني أحرقوا المؤمنين والمؤمنات في الدُّنيا. وقال في الذَّاريات: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ﴾ يعني بالنَّار، يحرقون بها، يعذبون في الآخرة، ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ يعني ذوقوا حريقكم.

قلت: أي عذاب وعقوبة الذين قاموا بفتنة المسلمين.

الوجه السادس: الفتنة يعني القتل، وذلك قوله في سورة النِّساء: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا﴾ يقول: أن يقتلكم الَّذين كفروا. وكقوله في يونس: ﴿على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أَي أن يقتلهم.

قلت: أي يعذبهم أو يؤذيهم بما يؤدي إلى الموت.

الوجه السابع: الفتنة يعني الصدود، وذلك قوله في المائدة: ﴿**واحذرهم أَن يَفْتِنُوكَ**﴾ يعني أن يَصدُّوك ﴿**عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾ وقال في بني إِسرائيل ﴿**وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ**﴾ يعني يصدُّونك ﴿**عَنِ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**﴾. قلت: وهذه واضحة.

الوجه الثامن: الفتنة يعني الضلالة، وذلك قوله في سورة الصَّافات: ﴿**فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ**﴾ يعني ما أنتم عليه بمضلِّين، ﴿**إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم**﴾ من قدر له أن يصلى الجحيم. وقال في المائدة: ﴿**وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ**﴾ يعني من يرد الله ضلالته ﴿**فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً**﴾. قلت: أي يفتنهم بما يكون فيه إضلال لمن ختم على قلبه وبصيرته فاختار الضلال.

الوجه التاسع: الفتنة يعني المعذرة، وذلك قوله في سورة الأَنعام: ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ**﴾ أي معذرتهم. وهو تفسير مجاهد وقتادة، ﴿**إِلاَّ أَن قَالُواْ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾. قلت: وهو الجزاء الذي من جنس العمل، وسيأتي تفسيرها إن شاء الله تعالى.

الوجه العاشر: الفتنة يعني التسليط، وذلك قوله لبني إسرائيل في سورة يونس ﴿**رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين**﴾، يقول: لا تسلَّط علينا فرعون وقومه، فيقولون: لولا أَنَّا أَمثَل منهم ما سُلِّطْنا عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم. وقول إبراهيم في الممتحنة ﴿**رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾ يقول: لا تقتِّر علينا الرّزق وتبسطه لهم. قلت: أي تسليط ما يفتنهم.

الوجه الحادي عشر: المفتون يعني المجنون، وذلك قوله في: ن: ﴿**بِأَييِّكُمُ المفتون**﴾ يعني المجنون. وقال مجاهد: أيّكم المفتون، أيّكم الشَّيْطان. قلت: الفتنة بالأذى في تشويه السمعة.

الخلاصة:

هل نستطيع القول إن الفتنة هي: كل شيء في الدنيا يشغل قلبك عن ذكر الله؟

فقولي: (كل شيء) تشمل الخير والشر، وقولي: (في الدنيا) لأنها دار الاختبار والعمل، وقولي: (يشغل) لأن المقصد من الأعمال الصالحة والعبادات هو الإخلاص، وقولي: (في قلبك) لأن القلب هو محل التكليف ومركز الإخلاص، والمعول عليه في انكار الفتن.

والفتنة أصعب وأشد أنواع الاختبار، والفتنة ليست شرا في حد ذاتها، ولكن نتيجة التعامل مع مسببات الفتن هو ما يحكم عليه بالخير أو الشر، أي بالنجاح أو السقوط، لأنها هنا تدل على معنى الاختبار أو ما نزل من الابتلاء، مع ما لها من خصوصية الشمولية في الحجم والشدة، فمثلا، نجد أن القرآن سمى الأموال فتنة، والمال في حد ذاته ليس شرا، بل فيه منافع في الدنيا، فإن أحسن المسلم جلبه وصرفه كما أمره الله، كان المال نعم المعروض على القلب، **(نِعمّا بالمال الصالح للرجل الصالح)**[1].

إذاً، فكل إنسان مفتتن، بالخير أو بالشر، فمن وقع في شرور الفتن ومضلاتها فهو الخاسر الآثم، بل وقد تؤدي إلى الكفر المخرج من الملة والعياذ بالله، أما من أعانه الله على تجنبها، فاختار الثبات وتحكيم الشرع، فهو الناجي من شرور الفتن ومضلاتها، لقوله ﷺ:

(تُعرَضُ الفتنُ علَى القلوبِ كالحصيرِ عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرَها نُكِتَ فيهِ نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تصيرَ علَى قلبَينِ: علَى

[1] رواه الإمام أحمد في مسنده.

أبيضَ مِثلِ الصَّفا فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامتِ السَّماواتُ والأرضُ، والآخرُ أسوَدُ مُرباداًّ كالكوزِ مُجَخِّيًا لا يعرِفُ معروفًا ولا ينكرُ مُنكرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هواهُ)[1].

فالمال فتنة كما جاء في القرآن والحديث، وليس نتيجة، لأن النتيجة تكون بعد العرض على القلب، فإن أنكر القلب دخول شرور المال، واستقبل خيره فقط، كانت النتيجة المطلوبة، وهي أن أنه لم يقع في مضلات الفتن، أي في الشر والمحظور.

فعنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: (أَنَّ أَبا طلحةَ الأنصاريَّ كان يصلّي في حائِطهِ، فَطَارَ دُبْسِيٌّ فطَفقَ يتردَّدُ يلتَمسُ مَخْرجاً، فأعجبَهُ ذلك فجعلَ يُتبِعهُ بَصرهُ ساعةً، ثم رجَع إلى صلاتهِ فإذا هو لا يَدري كم صلَّى، فقالَ: لقد أَصَابتْني في مالِي هذا فتنَةٌ. فجاء إلى رسول اللهِ ﷺ فذكرَ له الذي أَصابهُ في حائطهِ مِنْ الفِتنَةِ، وقال: يا رسولَ اللهِ، هو صدَقَةٌ للهِ فَضَعْهُ حيث شئتَ)[2].

إذا: فالفتنة هي كل شيء يعرض على القلب، يكون من نتيجته إما الفلاح أو الخسران، وبهذا نكون قد فهمنا عبارة الإمام الجرجاني:

(الفتنة هي: ما يتبين بها حال الإنسان من الخير والشر).

[1] رواه مسلم، وبنحوه الإمام أحمد.
[2] رواه الإمام مالك في الموطأ.

- الفرق بين الفتنة والابتلاء:

وبعد أن عرفنا معنى الفتنة، لابد من معرفة معنى الابتلاء، حتى نميز بينهما ونتعرف على أهم الفوارق بينهما، وإن كانا يحملان في مضمونهما معنى الاختبار.

الابتلاء في اللغة:

بلا: بلوت الرجل بلوا وبلاء وابتليته اختبرته وبلاه يبلوه بلوا إذا جربه واختبره. وقد ابتليته فأبلاني أي استخبرته فأخبرني. وابتلاه الله: امتحنه، والبلاء يكون في الخير والشر. والله تعالى يُبلي العبد بلاءً حسناً ويبليه بلاءً سيئاً.

قال ابن بري: والبلاء: الإنعام، قال الله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ** ﴾ [الدخان:٣٣]: أي إنعام بين. وفي الحديث: من أبلي فذكر فقد شكر).

وقال الراغب في "غريب المفردات": (يقال: بَلِيَ الثوب بِلًى وبَلَاءً، أي: خلق، وبَلَوْتُهُ: اختبرته كأني أخلقته من كثرة اختباري له، وقرئ: ﴿ **هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ** ﴾ يونس: ٣٠، أي: تعرف حقيقة ما عملت، ولذلك قيل: بلوت فلانا: إذا اختبرته، وسمي التكليف بلاء من أوجه:

– أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.

– والثاني: أنّها اختبارات، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ** ﴾ محمد: ٣١.

– والثالث: أنّ اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسار ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر.

وإذا قيل: ابْتَلَى فلان كذا وأَبْلَاهُ فذلك يتضمن أمرين: أحدهما تعرّف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره، والثاني ظهور جودته ورداءته، وربما قصد به الأمران، وربما يقصد به أحدهما، فإذا قيل في الله تعالى: بلا كذا وأبلاه فليس المراد منه إلا ظهور جودته ورداءته، دون التعرف لحاله، والوقوف على ما يجهل من أمره إذ كان الله علّام الغيوب، وعلى هذا قوله عزّ وجل: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} البقرة: ١٢٤).

- الفرق بين الابتلاء والفتنة:

١- الفتنة تتعلق بأصل الإيمان وجودا وعدما: {**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون**﴾ [العنكبوت:٢]. بينما الابتلاء يتعلق بأصل الأعمال وتفاضلها: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك:٢].

٢- الفتنة أشمل من الابتلاء، فالابتلاء أول مراحل الفتنة، وكل ابتلاء يحمل فتنة، وليس كل فتنة هي ابتلاء: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ [الأنبياء:٣٥]، فالابتلاء بالشر فتنة، والابتلاء بالخير فتنة، فمن صبر على الشر وشكر عند الخير ورضي بقضاء الله فلم يفتتن، ومن جزع وسخط واعترض على الشر، وفرح وانشغل في الخير عن الشكر؛ سقط في الفتنة.

٣- الفتنة أخص من الابتلاء من حيث التمحيص والغربلة، فالابتلاء محله الصدور: ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ**﴾ [آل عمران:١٥٤]، والفتنة تعرض على القلوب: لحديث: (**تعرض الفتن على القلوب**).

٤- الابتلاء لا يكون إلا بتسليط من الله تعالى: (ليبلوكم، بلاء من ربكم، ليبتليكم، وليبتلي الله، ولنبلونكم، نبلوهم، إنما يبلوكم الله، وبلوناهم، لنبلوهم، ونبلوكم، إنا كنا

مبتلين، ليبلوكم، ليبلو)، بينما الفتنة فتكون تارة من الله تعالى على جهة التمحيص: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٧] و[طه:١٣١]، وتارة تكون من الشيطان وهي من حيث الإغواء: ﴿لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف:٢٧]، وتارة تكون من أعداء الإسلام لصد المسلمين: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة:٤٩]، وتارة تكون باختيار من المرء نفسه: ﴿ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران:٧]، ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد:١٤].

٥- الابتلاء من قضاء الله وقدره، وقد يرفعه الله بالدعاء، وهذا أيضا من قدر الله تعالى، وواجب التعامل معه فيما ليس للمرء اختيار فيه كالمرض الطارئ أو ما كان منذ الولادة كالعمى، فهذا واجب التعامل معه بالصبر والرضا بقضاء الله وتقديره، قال ﷺ: (**إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه -أي بعينيه- فصبر؛ عوضته منهما الجنة**)[١]. وقال ﷺ: (**لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة**).[٢]

أما الفتنة فهي قانون وسنة كونية، ولا شك أنها أيضا من قدر الله من حيث أنه علم الله الأزلي بجميع الأشياء خيرها وشرها، خاصها وعامها، فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة المحيط بكل شيء علما، وما من شيء علمه إلا وهو واقع فعلا وفق علمه وارادته: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت: ٣

---

[١] رواه البخاري في صحيحه.
[٢] رواه الحاكم في المستدرك وصححه.

٦- الابتلاء فيه تقليب لأحوال البشر: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٥]، ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [الإنسان:٢].

أما الفتنة ففيها اضطراب النفوس وامتحان القلوب: ﴿**وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ**﴾ [المائدة:٧١]، ﴿**وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ**﴾ [الحج:١١] وهكذا، نجد أن النبي ﷺ قد فرق بين الفتنة والابتلاء فقال: **(لم يبقَ من الدنيا إلا بلاء وفتنة)**[١]. وقال: **(إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن – ثلاث مرات – ولمن ابتلي فصبر فواهاً)**[٢].

فالواجب هو التجنب والاتقاء والحذر من الفتن، والصبر والرضا عند الابتلاء، قال ﷺ: **(إن عِظَم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخِط فله السَّخَط)**[٣]. وهذا فيما لا اختيار أو قدرة للمبتلى عليه.

- كيف يعرف المسلم أنه في فتنة أم في ابتلاء؟

سأضرب مثلا للتوضيح: هب أن رجلا جاءه مولودٌ ممن يسمى بذوي الاحتياجات الخاصة، وهذا مما لا اختيار فيه للزوجين، فإن صبروا ورضوا بقضاء الله تعالى، فقد صبروا ورضوا على الابتلاء، وإن سخطوا واعترضوا؛ كان لهم فتنة، فسقطوا فيها. قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**﴾ الأنبياء: ٣٥.

إذاً؛ على المسلم الحريص على دينه، أن ينظر فيما نزل به، فإن كان مما ليس له يد فيه؛ أي مما هو فوق قدرته واختياره، فهو الابتلاء من الله تعالى، ولله فيه حكمة بالغة،

---

[١] رواه ابن ماجة وأحمد، بنحوه، والحاكم والطبراني.
[٢] رواه أبو داود.
[٣] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

قد يعرفها المرء وقد يجهلها، فقد يكون الابتلاء تصحيحا لطريق معوج سلكه العبد، فيريد الله تصحيحه، فيكون الابتلاء تنبيهاً له، وقد يكون في علم الله الأزلي أنه سينجح به، فيكون رفعاً للدرجات، وقد يكون تكفيراً للذنوب، وهكذا حتى يقابل المسلم ربه عز وجل وليس عليه ذنوب.

وأما إن كان ما نزل به، نتيجة لما كسبت يداه، من سوء تصرف أو اختيار، أدى إلى ما نزل به، عندها فليسارع المسلم إلى التوبة فإنها إشارة ورسالة تذكيرية، حتى يتنبه المسلم وينيب إلى الله تعالى فيندم على ما كسبت يداه ويصحح مساره ويحذر من الفتن في قابل أيامه.

- **هل تكون الفتنة عقوبة**:

نعم، فإذا ظهرت المعاصي وانتشرت في المجتمع، وفشا فيه الظلم والبغي، واستعلى المستكبرون، وطغى الطغاة، وبغى البغاة، فأكل حق المسكين والفقير، ومنعوا الزكاة وضيعوا الصلاة، فلم يُغِر الغيارى، ولم ينكر المنكرون، ويصلح المصلحون، ويسعَ الأكابر والعلماء والعارفون، فعند ذلك سيعمهم العقاب، لا تأخذ أصحاب المعاصي والبغي والاستكبار فحسب، بل أول ما تبدأ بأولئك الصامتين، الذين لم يغيروا على الحق، ولم تتمعر وجوههم في دين الله، فيرسل الله عليهم فتنا تدع حليمهم حيرانَ.

قال ابن عاشور رحمه الله: عند قوله تعالى ﴿**واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**﴾: (وبهذا تعلم أن الفتنة قد تكون عقابا من الله تعالى في الدنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيوية التي تصيب الأمم، فإن من سنتها أن لا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد، لأنها عقوبات تحصل بحوادث كونية يستتب فيها

نظام العالم الذي سنه الله تعالى في خلق هذا العالم أن يوزع على الأشخاص كما ورد في حديث النهي عن المنكر في الصحيح: أن النبي ﷺ قال: **(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)**. وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال: **(نعم إذا كثر الخبث ثم يحشرون على نياتهم)**[1][2].

- الفرق بين أسباب الفتن وأسباب الوقوع فيها:

لا أقول إن أسباب الفتن كثيرة فحسب، بل أقول إن كل شيء في الدنيا يتعامل معه الإنسان فهو من أسباب الفتن من إحدى جوانبه، فالطعام مثلا؛ في حد ذاته ليس فتنة، ولكنه إذا تسبب بمعصية كالإسراف أو التبذير أو المنهي عنه ونحو ذلك؛ عندها يكون فتنة، وقس على ذلك، وعندها يكون كيفية التعامل مع الطعام بالإسراف والتبذير وما شابه هي من أسباب الوقوع في الفتن. وعليه:

إذا كان الطعام من أسباب الوقوع في الفتن، فإن طريقة هذا التعامل هي ما تسبب في الوقع في الفتن.

[1] رواه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد في مسنده، والبخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، وغيرهم.
[2] تفسير التحرير والتنوير، ج٩/ص:٣١٧

- أسباب السقوط في الفتن:

يمكننا تقسيم أسباب الوقوع في الفتن إلى:

١- الأسباب القلبية: إن عدم إنكار الفتن بالقلب، عند عدم القدرة على انكارها باللسان أو باليد، حتى يعتاد القلب على تقبل المنكرات والفتن، يجعل القلب كالكوز مجخياً، لن يستطيع بعدها أن يميز الفتنة عن الحق، والبدعة عن السنة، ويحدث هذا عند:

عدم انكار المنكر أول بأول – التهاون في تكرار الصغائر – حب ونصرة أعداء الإسلام – الغفلة عن وساوس الشيطان.

٢- الأسباب العقلية: وتنتج عن إعمال العقل والنظر فيما هو خارج حدود إدراك العقل، كإنكار الغيبيات والخوف في الآيات المتشابهات، فهذه مما يجب الإيمان بها والتسليم بلا نظر، وليس الإنسان مكلفاً بذلك أصلا.

٣- الأسباب العملية: كترك الجهاد مثلا، فهو يوقع الأمة في الفتن، {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}، فالإسلام يحرض المسلمين على أن يقاتلوا من يقف في طريق إقامة عقائدهم وشعائرهم، ولا أقصد بالجهاد القتال فقط، بل الأمر بالمعروف وانكار المنكر بالكلمة من أهم أنواع الجهاد.

منهج القرآن الكريم في تناول الفتن

كعادته، عندما يناقش القرآن الكريم قضية ما، فإنه يحيط بأطرافها كافة، كيف لا وهو كتاب الخالق الخبير العليم بما خلق وبما يفتنهم، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الكامل التام الذي لا ريب فيه، وهو الكتاب الذي ارتضاه الله تعالى للأمة الخاتمة وللعالمين مهيمنا على ما قبله من الكتب.

وقضية الفتن؛ هي من إحدى هذه القضايا التي تناولها القرآن الكريم، كما تناول قضايا الإيمان والأخلاق والآخرة وغيرها مما يهم البشر.

وقد اتسمت منهجية القرآن في تناوله لقضية الفتن بالكلية والشمولية التامة، التشريعية منها والتأريخية والتحذيرية والتحليلية وغيرها مما سنناقشه هنا إن شاء الله.

ولم يكتف القرآن بتناول الفتن في أبعادها وأشكالها فحسب، بل غاص في أعماق النفس البشرية وذكر احتمالات تعاملها مع الفتن والتأثر بها سلباً وإيجاباً، وقدم مقياس درجات النفس البشرية، ونجد ذلك في بيانه أن النفس مطواعة؛ فمن دساها فقد وقع في شباك فجورها، ومن زكاها فقد ارتقى بتقواها.

وكذلك؛ نجد أن القرآن الكريم قد تناول الفتن الخاصة، والتي لا ينفك أي إنسان من التعامل معها، والتي أسماها بالشهوات المحببة للناس، كالمال والأبناء والنساء وسائر متاع الدنيا، فكان التناول لهذه الأسباب المؤدية إلى الفتن، يحمل التحذير والأمر بضبط العواطف والتفاعل معها، وعدم التسليم والانجرار في شباكها، وهذا الضبط يكتسبه الإنسان من خلال التدرب على تزكية النفس، بما أسميه ب(المعاجلة قبل المعالجة)، أي الإسراع في المبادرة قبل الدخول في مقدمات السقوط

في الفتن، وهذا ما يسميه الناس (درهم وقاية خير من قنطار علاج)، وهذا يتواءم ويتآلف مع الفطرة البشرية السوية، في كبح الغرائز الكامنة فيها من خلال الاعتدال وضبط العواطف بلا إفراط أو تفريط، وفق المنهج الرباني الوسطي، مع الاستعانة والاستعاذة بالله تعالى من مضلات الفتن، دون الاستغناء عنها لأنها هي ذاتها من الأسباب أيضا لاستمرارية الحياة البشرية والاستخلاف في الأرض، فالمال مثلا هو سلاح ذو حدين؛ فإما أن يكون سببا للافتتان به والسقوط في المعاصي والهلاك، وإما أن يكون سبباً معيناً على عبادة الخالق تعالى والتقرب إليه بما أمر ونهى عنه.

كذلك، نجد أن القرآن الحكيم قد تناول الفتن الكبرى والعامة التي تصيب الأمم، كجماعات وحضارات، وفق منهجية التعامل معها كسنن إلهية في الخلق، تصيب كل أمة بحسب تفاعلها من استقبال أو اعتراض على قضاء الله واختياره للرسل والتشريعات الخاصة بهم، فالأمة ما هي سوى مجموعة من البشر يحتاجون إلى القوانين والشرائع الربانية لتدلهم وتأخذ بهم إلى ما يصلح أحوالهم ويقيم حياتهم ونهضتهم، فالأمة التي ترضى بقضاء الله واختياره لمن يشاء من الرسل والمناهج المكلفين بها، هي أمة عرفت طريق نجاتها من مضلات الفتن، وأمّا الأمة التي تعترض على نصيبها من الرسل والمنهج، هي الأمة التي سقطت في مضلات الفتن والهاوية والهلاك. فمثلاً: شتّان بين أمة يونس ﷺ التي رجعت عن غيّها وظُلمها لنفسها فاستحقت الرحمة والعافية، وبين أمة ثمود التي طلبت من نبيها صالح ﷺ آية لتصديقه، فلما جاءتهم الآية بحسب طلبهم، وهي الناقة، كانت لهم فتنة، لم يُحسنوا التعامل معها، فعقروها وكانوا لأنفسهم ظالمين، فاستحقوا بذلك الهلاك والاستئصال.

وكذلك نجد أن القرآن الكريم قد تناول فتن الشياطين، بمنهجية تحذيرية دقيقة، توضح مدى القدرات التي أودعها الله فيهم لتكون كافية في إفتان الناس وجرهم إلى مزالق المعاصي والهلاك، مع الاخبار بتخليهم عن اتباعهم يوم الحساب، والاستهانة بهم في الآخرة كما استهانوا بهم في الدنيا، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم:٢٢]

وكعادته أيضا، نجد المنهج القرآني يسابق في تناوله للفتن والتحذير منها، فإنه يقوم بتقديم طرق الوقاية منها قبل الولوج فيها، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج، ولكنه مع ذلك يقوم أيضا بطرح الحلول في حال الوقوع فيها، بل وبعد الوقوع فيها، من خلال فتح أبواب التوبة والإنابة واصلاح ما تم افساده، مالم تغرغر الروح أو تخرج الشمس من مغربها، وهذا فضل من الله ورحمة، حيث أنه لم يجعل التوبة في أن: ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤]

وإذا أردنا وضع المنهجية القرآنية في تناول الفتن في تعداد شبه تفصيلي مع ضرب الأمثلة فإننا نقول بعونه تعالى إن المنهج القرآني في التعامل مع الفتن هو:

١- المنهجية العقدية الإيمانية: فالفتن وظيفتها تمييز المؤمن الحقيقي من المدعي، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون﴾ .

٢- المنهجية التشريعية: فمخالفة الكتاب والسنّة مُوقعة في الفتنة في الدين، قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ [النور:٦٣]

٣- المنهجية التأريخية الوعظية: من خلال أوامره بأخذ العبرة مما حدث مع الأمم السالفة التي افتُتِنت، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ** ﴾ [النمل:٤٥-٤٦-٤٧]

٤- المنهجية التحذيرية الوقائية: بالتحذير من الفتن قبل وقوعها، والوعد بالعذاب لمن يتهاون بها ويسقط فيها، ﴿ **وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال:٢٥]

٥- المنهجية التحليلية للنفس البشرية: من خلال إرشاده لضبط الإنفعالات والعواطف في الفطرة السويّة، في التعامل مع فتن الشهوات المحبَّبة إليها، والميل لها، قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[التغابن:١٤-١٥-١٦]

٦- المنهجية الاستقرائية للمستقبل وفق السنن الثابتة: من خلال عرضه للأسباب التي تؤدي لحدوث الفتنة، والفساد الكبير في الأرض، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال:٧٣].

وهكذا، نجد أن القرآن الكريم قد ناقش مسألة الفتنة بموضوعية وشمولية، وهذه من إحدى خصائص القرآن الكريم، في تقديم النصح والإرشاد والتوجيه، فبدأ

بربط الفتنة بالعقيدة والإيمان، وأن كل مؤمن هو مفتتن، حتى يُقدّم الحجة على حقيقة إيمانه، فإما تكفير للذنوب، وإما رفع درجات، وإما سقوط في الهاوية لمن وقع في شباك الفتن.

ثم وجدنا المنهجية القرآنية في التحذير والوعيد من الوقوع في الفتن، فقدم الوقاية والطرق التي تعين على النجاة منها، كما قدّم لنا النماذج، وضرب الأمثلة في الأمم السابقة، ولم يترك الناس إلا ودلهم على الخير وحذرهم من الشر.

وقد قام القرآن الكريم بالرد على تساؤلات جميع الفئات والمكونات البشرية في المجتمع، والتي بات يطرحها البعض معبراً عن حيرته أو اعتراضه، ويمكننا جمع هذه الفئات على الشكل التالي:

١- فئة الشباب: وهؤلاء يغلب عليهم طابع التساؤلات والحيرة، فيسألون مثلاً: لماذا نحن مُعرّضون للفتنة؟ وكيف نكون فتنة لآبائنا؟

وللإجابة على هذه الحيرة نقول: لأنكم مكلفون مخيرون ولستم ملائكة مسيرين، ولأن النجاح في اجتناب الفتن وإنكارها في القلوب يثبت الإيمان ويزيد المؤمن صلابة وخبرة ويصقل عزيمته، فما من طالب في أي مدرسة أو جامعة إلا وسيتعرض للامتحان حتى يثبت جدارته وأنه أهل للنجاح وحمل الشهادة بالتخصص الذي درسه، فأنتم أمام الإعداد الرباني لكي تكونوا قادرين على حمل أثقال المستقبل في العبادة، والعمل، والاستخلاف في الأرض.

وهذا الإعداد هو الصناعة الربانية التي أخبر عنها القرآن في قصة سيدنا موسى ﷺ، ألم تروا كيف اصطنع الله موسى ﷺ؟ فقد قال سبحانه وتعالى عن فترة الإعداد لموسى عليه السلام: ﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي**

أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴾ [طه:٣٩-٤٠].

والاصطناع يكون في البدايات دائما، فجاءت كلمة لتصنع في صيغة المضارع الذي يفيد الاستمرارية، ولكنه حين قال بعدها **(واصطنعتك لنفسي)** فقد جاءت بصيغة الماضي لأنها جاءت بعد قوله تعالى: ﴿**فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى**﴾ [طه:٤٠]

فكان في سن الرشد والتكليف، وكأنه قد أتمّ الصناعة، بدليل انه قال بعدها مباشرة: ﴿**اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي**﴾ [طه:٤٢].

والشاهد أنه قد بلغ تمام الاصطناع بعد أن مر بتجربة الفتنة، فقد جاء بين (لتصنع) و (اصطنعتك) زمنيا وقرآنيا قوله تعالى: ﴿**فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا**﴾ [طه:٤٠].

فالفتنة هي من ضمن الإعداد والاصطناع، لأن هدف الإعداد والاصطناع هو الوصول إلى غاية الإتقان والكمال، وهذا لا يكون إلا بعد المحبة والاستخلاص، كما أيضا في قصة سيدنا يوسف عليه السلام: (وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي)، فكان استخلاص يوسف عليه السلام بعد نجاحه في كل ما مر به في شبابه من فتن النساء والسجن، ألم يقل ﷺ: **(إن الله إذا أحبّ قوماً ابتلاهم)**[1].

وهكذا كانت فلسفة الفتنة للشباب، تكمن في الإعداد والاصطناع والتربية، لاكتساب الخبرة وإكمال مهمة الاستخلاف في عمارة الأرض على إيمان وثبات.

---

[1] رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

٢- فئة العقلانيين: وهم من يدعون بأن كل شيء لا يقبله العقل والمنطق فهو مرفوض عندهم، فلا يؤمنون إلا بالماديات المحسوسة، فيرفضون الآيات والأحاديث المتعلقة بالمعجزات بذريعة العقل والمنطق، فمنهم من ينكر فكرة الإسراء برسول الله ﷺ، ومنهم من ينكر فكرة المعراج، ومنهم من ينكر أحاديث الفتن بحجة أنها تدعو إلى اليأس والإحباط والقنوط، ومنهم من يتهكم متسائلا عن الحكمة مثلا من أن لجهنم تسعة عشر من الملائكة، فيقولون ألا يكفي ملكٌ واحدٌ!؟ وأين الحكمة من أنهم تسعة عشر وليس أكثر أو أقل؟!

وهؤلاء كمن سأل معترضاً عن الحكمة من إمداد الله تعالى للمؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة، فقالوا: ألا يكفي ملكٌ واحدٌ ليهزم المشركين ويُبيدهم عن بكرة أبيهم؟! ولماذا ألفٌ بالعدد؟! وهكذا كل ما لم يناسب حجم عقولهم، إما أنكروه أو اعترضوا عليه أو أولوه بحسب أفهامهم القاصرة وأهوائهم الملبدة، وإما تساءلوا بتهكم فرحين بأنهم قد وجدوا ما يظنونه نقصاً في الكتاب أو السنة، ولكل هؤلاء أقول لهم لقد وقعتم في الفتنة.

وسبحان الله! فما كان ذِكر العدد إلا فتنة لمن في قلبه مرض من نفاق أو شك أو ضعف في إيمانه، فلا يُصدِّق إلا ما وافق عقله، فأسقطه عقله في الفتنة، قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر:٣١]

فقد قالها أبو جهل من قبل، حين تهكّم على شجرة الزقوم، وها هم اليوم أتباعه يجترّون قوله.

٣- فئة المتأثرين بشبهات المستشرقين: وهؤلاء هم الذين يرفضون بعض النصوص بداعي الإنسانية كما يعتقدون، وسوف نناقش اعتراضاتهم في أواخر هذا الكتاب إن شاء الله.

٤- فئة المنبهرين بأساطير الملل الأخرى: وهؤلاء هم اللاهثون خلف العناوين المزخرفة الخداعة، فلا يقبلون إلا ما جاءهم من الغرب "الهوليودي" ونبوءات الكهنة والعرافين، كنبوءات "نستراداموس" مثلاً، ويعرضون عما صح من الأحاديث.

٥- فئة القائلين بنظرية المؤامرة: وهؤلاء هم الذين غفلوا عن أن للكون إلهاً واحداً لا شريك له، فكل شيء يجري في كونه فهو إنما يجري بقدرته وإرادته الكونية وفق السنن والقوانين التي وضعها سبحانه وتعالى، وهي سنن وقوانين علمية تفاعلية، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار.

٦- فئة الرافضين لنظرية المؤامرة: وهم الذين يرفضون فكرة المخططات والدسائس الساعية لمحاربة الإسلام والسيطرة على المسلمين وما أفاء الله عليهم، بحجة أنه لا وجود لصراع الأديان، ولا يمكن لأحد كائنا من كان أن يحقق هذه المؤامرات التي تتحكم في مراكز القوى والإعلام والمال.

الوسطية والاعتدال من خلال المنهج القرآني:

فالمنهج القرآني في مخاطبته لجميع مستويات العقول، إنما يقدم لنا الميزان الذي يحتكم إليه الناس في نزاعاتهم واختلافاتهم، فهو يتحدث عن المساحة الممنوحة للإنسان من حرية الاختيار، والتي لا تخرج عن قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، حتى

نفرّق بين الإرادة التشريعية والإرادة الكونية. وهذا مما قد لا يخطر ببال البعض، لذا فالواجب سؤال أهل العلم:

﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

وهذه الآية الكريمة هي مفتاح العصمة من السقوط في الفتن، فالمسلم لا يأمن على نفسه أن تجرّه العاطفة أو الحميّة والغيرة، إلى ما لا تُحمد عاقبته في الكثير من المواقف التي ينبغي فيها الرجوع إلى الربانيين من العلماء، فقد يظن وجوب الجهاد - مثلاً- في مواطن تحتاج إلى الحكمة وليس إلى الجهاد، والعكس صحيح، فمن الذي يحدد طبيعة التصرف الصحيح والمدروس؟ إنهم بلا شك العلماء.

فالوسطية والاعتدال هي الحق وقت الفتن، والحق كل واحد يدّعيه، وقد يدعيه أكذب الكاذبين، كما ادعاه الخوارج في صدر الإسلام الأول، ولا يزال أتباعهم في زماننا من أهل فكر الخوارج يتنطعون في أنهم على الوسطية والاعتدال، وها هو أشقى الناس، ورأس من رؤوس الخوارج، المجرم عبد الرحمن بن ملجم، حين قتل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يصيح: (لا حكم إلا لله، ليس لك يا علي ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَاد}[البقرة:٢٠٧]. فأي حُكم لله هذا الذي افتراه هذا المجرم؟! هل قتل ابن عم النبي ﷺ والذي شهد له النبي بالجنة، يُعتبر بمثابة بيع النفس في سبيل الله؟! أي حمق وكذب وافتراء هذا؟! ولأجل هذا كم حذّر النبي ﷺ من الغلو والتطرف، وحذر من الانجرار خلف كل منافق عليم اللسان.

فلسفة الفتنة في القرآن الكريم

وحيث أن الفلسفة هي: طلب الحكمة، وعليه فالعنوان هو: طلب الحكمة من وجود قانون الفتنة كما يبينها ويشرحها القرآن الكريم.

وأما أهمية هذا العنوان، فتكمن في الحاجة الملحة لفهم حقيقة الفتنة والحكمة منها، والرد على العديد من التساؤلات والاستفسارات، بل والعديد من الشكوك والوساوس، التي باتت تشكل حيرة على المستوى الشخصي والنفسي، ومشاكل على مستوى الأسرة والمجتمع والأمة عموما، فكان لابد من شرح فلسفة الفتنة والمراد منها.

فأهمية دراسة فلسفة الفتنة، هي بنفس أهمية درجة دراسة النفس البشرية ذاتها، لكون الفتنة واقعاً ملازماً، وتحدياً دائماً مع هذه النفس، فلا يمكن تصور الحياة من غير هذا التحدي الملازم للنفس البشرية، فمعنى أن الحياة بلا فتن، أي أن تكون بلا مصادر الفتن، وهذا بدوره يعني عدم وجود المال والأولاد والمرأة، وعدم وجود العقائد التي يجب تحقيق حرية اعتناقها والذود عنها، وعدم وجود الفطرة البشرية والغرائز القابلة للتفاعل مع الآخر ومع الأشياء؛ بعجرها وبجرها، وعدم وجود الشيطان الذي هو من أول مصادر الفتنة.

وكأن خلاصة كل ذلك، أن نقول بعدم وجود الاختبار والامتحان أصلا وأساسا، فعندها سنتساءل: إذن بأي شيء نميز الإنسان الصالح عن الإنسان الفاسد؟! بل وأي قيمة بقيت للنجاح والفشل؟ بل قل إن شئت: وهل بقي أصلاً شيءٌ يدعى نجاحاً أو فشلاً؟!

فأي معنى حينئذ للحياة؟ وأي هدف يتحمله الإنسان؟ وبأي شيء كان الإنسان مختلفا عن باقي المخلوقات من غير حرية الاختيار؟؟!

لذا؛ يجب علينا أن نعلم أن الفتن هي نتاج طبيعي لمكتسبات البشر وأفعالهم، بمعنى أنها نتيجة حتمية لسوء التصرف في حرية الاختيار الممنوحة من الله تعالى للإنسان.

والإنسان عاقلٌ حرٌ مختارٌ، يتمتع بصفاتٍ هي خليط من المتقابلات والمتناقضات، وقد صّور لنا القرآن هذا الخليط وربطه بالابتلاء ربطاً مباشراً في إعجاز بياني من أبلغ ما يكون، فلم يُفرّق بين هذا الخليط المتجانس وبين كونه مبتلى، قال تعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ [الإنسان:٢].

فلم يقل مثلاً: أمشاج لنبتليه، بل وأكثر من ذلك أقول: أنّنا نلاحظ الإدغام بين اللفظتين، والإدغام في اللغة فيه تداخل وإرغام، فكأنها إشارة ربانية أن هذا الإنسان الخليط خُلق لكي يبتلى، ولكن من رحمة الله تعالى أنه جعله سميعاً بصيراً، وهما الصفتان الأكثر حاجة للإنسان، لحسن التعامل مع الابتلاءات ومقاومة الفتن، فالابتلاء بالخير فتنة، والابتلاء بالشر فتنة.

فالإنسان جسد وروح، وقلب وعقل، ومادة ومعنى، فالجسد يحتاج للشهوات، والروح تطمح للسموّ، وبين الشهوات والسمو ينشأ الصراع، وعندها يظهر من البشر ذلك الأحسن عملاً.

والإنسان خليط جينات، نتج عنه خليط في الصفات والانفعالات والعواطف، فهو يغضب ويهدأ، ويحزن ويفرح، ويحب ويكره، إلى آخر هذه

الانفعالات التي تختلف بين إنسان وآخر، لذا كانت ردود الأفعال والاستجابات تجاه الفتن، مختلفة من شخص لآخر.

ولذا فإن وجود الفتن في حياة الإنسان وجود طبيعي حتمي، أما عن فلسفة ورود ذكرها في القرآن الكريم، فهي رحمة من الله تعالى، أن أخبر الخلق أنهم مخلوقون في نظام نفسي وفطري وكوني، قابل للتفاعل مع فتن الحياة، مع اختلاف هذا التفاعل من شخص لآخر بحسب اختياره درجة تحكيم العقل أو القلب مع مصدر الفتنة أو سببها. فجاء إخبار الله تعالى لنا عن هذه الفتن، حتى يُربِّي فينا الوعي والقدرة على التعامل مع مشتهيات النفس وشبهات العقل، فيعالج أصلها من داخل النفس البشرية.

من جانب آخر، لو تأملنا في كتاب الله تعالى، ثم أمعنا النظر في تاريخ الأمة، وفي الواقع الذي تعيشه البشرية الآن بكل تفاصيله، ثم ربطنا بين ما تأملناه وما نظرنا فيه، لخلصنا إلى مفاهيم متطابقة بين المسطور والمنظور، وهي مفاهيم كفيلة بأن تزيل أدنى شك أو ريب عند العاقل المنصف، بأنه ليس للكون خالق ومنظم ومدبر إلا الله تعالى، وسنبرهن على هذا – وهو ما لا يحتاج إلى برهان أصلاً – بالأدلة العقلية الواقعية التي لا ينكرها إنسان، لتكون حجة على كل من يُلحد في أن للكون بجميع أنظمته ومكوناته، إلهاً واحداً لا شريك له، وأن الفتن والفساد هي نتيجةُ تفاعلِ سلبي بين بعض البشر وبين ما سمح المولى عز وجل بأن تصل إليه أيدي البشر من مكونات هذا الكون بالتأثير سلباً وإفساداً انعكس وانقلب عليهم.

ولأجل هذا، لابد أولاً أن نتعرف على أنواع الفتن، وعلى مصادر الفتن، على ضوء الكتاب والسنة، حتى يكون كلامنا دقيقاً واضحاً بالأدلة والبراهين.

أنواع الفتن

قسّم العلماء الفتن من حيثيات مختلفة، كقولهم: فتن كبيرة وفتن صغيرة، أو فتن شبهات وفتن شهوات، أو فتن وقعت وفتن لم تقع، وهكذا.

ولكني ارتأيت تقسيم الفتن بما يشمل كل ما سبق، مع إضافة مصادر الفتن إليها، حتى يخرج التقسيم شاملاً بإذن الله تعالى، وعليه فإن الفتن تنقسم إلى:

١ - فتن خاصة: وهي بدورها تنقسم إلى:

أ- فتن لا تخرج المسلم من دائرة الإسلام: وهي كفتنة المال والأولاد والأهل والجار وما شابه، وهذه تكفرها الصلاة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما جاء في حديث حذيفة وعمر رضي الله عنهما.

ب- فتن تُخرج المسلم من دائرة الإسلام: كالتكذيب بالغيب، والردة عن الإسلام، وانكار نِعم الله تعالى والاعتراض على حكم النبي ﷺ، وما شابه.

٢ - فتن عامة: وهي أيضا تنقسم إلى قسمين:

أ- فتن منتشرة في المجتمعات: كظهور الجهل، وتفشي المعاصي والمنكرات، وانتشار الفواحش، وظهور الكاسيات العاريات، ونشء يُغنّون القرآن، وأمثال ذلك.

ب- فتن على مستوى الأمة: كعلو الرويبضات واستئثار الحكم وتخوين الأمين وتأمين الخائن وانتشار الربا، وظهور الخوارج، وتسلط الجبابرة الظلمة والطواغيت، وما شابه ذلك.

٣- فتن القتال أو (قتال الفتنة): وهو القتال الداخلي بين أطراف من الأمة، إما قتالاً على الملك، أو لأسباب عصبية؛ كالتعصب المذهبي أو الطائفي أو الحزبي أو العشائري

وما شاكل، ومنها الفتن المذكورة في الأحاديث: كفتنة الأحلاس وفتنة السراء وفتنة الدهيماء. (سيأتي الحديث عنها)

٤- فتن العقوبات: وأقصد بها ما يكون من الله تعالى من ابتلاءات أو اختبارات، أو ما يُدعى بالفتن الكونية، كالزلزال والخسف والمسخ والقذف.

٥- فتن خارجة عن يد البشر: كفتنة الدجال.

هذه أقسام الفتن، ولا تخرج فتنة عن هذه الأقسام الخمسة، بحسب تقديري، ولكن لابد لنا من معرفة مصادر هذه الفتن، حتى نعلم فلسفة كل قسم منها والحكمة من حدوثها، ونزيل اللبس والحيرة والخلط المنتشر بين أكثر الناس.

- **مصادر الفتن**:

وقد سبق أن قلت إن الفتنة تختلف عن الابتلاء في أمور عديدة، ومنها مصدر كل واحدة منهما، وأن الابتلاء هو من الله تعالى، ولكن في الفتن سنجد أن مصادرها تختلف باختلاف نوعها على الأقسام السابقة، وعليه فنقول:

١- فتن من الله تعالى: وهي ما نصّ عليه القرآن الكريم، وهي من سنن الله تعالى في الكون والبشر، لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ [العنكبوت:٣]، وهذه الفتن التي تشير الآيات إلى أنها تكون من الله تعالى هي:

الابتلاءات لقوله تعالى: (**ونبلوكم بالشر والخير فتنة**) - الغيبيات كالإسراء والمعراج لقوله تعالى: (**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**) - وكعدد الملائكة المكلفة على جهنم (**وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا**) - وكشجرة الزقوم (**إنا جعلناها فتنة للظالمين**) -

وكالفتن الحاصلة للأنبياء عليهم السلام **(وظن داود أنما فتناه)** و**(ولقد فتنا سليمان)** وعن موسى ﷺ **(وفتناك فتونا)** .

٢- فتن مصدرها من الشيطان: كقوله تعالى: **(لا يفتننكم الشيطان)**.

٣- فتن مصدرها المشركون: كقوله تعالى: **(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)** و**(وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل)**.

٤- فتن مصدرها يهود: **(واحذرهم أن يفتنوك)**.

٥- فتن مصدرها المال والأولاد: **(إنما أموالكم وأولادكم فتنة)**.

٦- فتن مصدرها نفس الإنسان وعقله: **(فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة)**.

وهكذا نجد أن مصادر الفتنة تتعدد بحسب نوع الفتنة، وبذلك نعلم أن للفتنة عموما فلسفات تختلف بحسب نوعها ومصدرها، وبالتأمل والاستقراء نستطيع أن نصل إلى فلسفات الفتن - بكون الإنسان مخلوقا عاقلا مخيرا - على الشكل التالي:

١- فلسفة الفتنة الخاصة:

أ- التي لا تُخرج من الملة: فالحكمة منها إعادة تأهيل المسلم وصقله، قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُون ﴾** [الأنعام:٤٢]، وقال: **﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾** [طه:١٣١]، وقال: **﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴾** [الحشر:٩]

ب- المخرجة من الملة: التمحيص والغربلة والفرز، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت:٣]، وقال تعالى: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤١-١٤٢]

٢- فلسفة الفتن العامة:

أ- في المجتمع: فمن رحمته تعالى أنه يؤخر الحساب للناس لكي يعطي فرصاً لمن أراد التوبة والإنابة، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾ [فاطر:٤٥]

ب- في الأمة: ولله في الأمم من قبل سننٌ ثابتة لا تحيد، تقوم على الإمهال وإعطاء الفرص، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون**﴾ [الأعراف:١٣٠]

وقال تعالى: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون**﴾ [السجدة:٢١]

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون**﴾ [الأحقاف:٢٧]

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون**﴾ [القصص:٤٣]

٣- **فتن القتال:** وهي من الفتن التي ابتليت بها الأمة من بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهي لا تزال قائمة إلى اليوم وإلى أن يشاء الله تعالى، وكلما رفع الله فتنة منها كانت فرصة للناس لكي يفقهوا حقيقة ما جرى فيعتبروا ممن قبلهم وينتهوا، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنعام:٦٥].

وقال ﷺ: (**سألت ربي ثلاثا: سألته ألا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها وسألته ألا يهلك أمتي بالسَّنَةِ، فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمَنَعَنِيها**)[1].

٤- **فتن العقوبات:** ومن سنن الله تعالى أن الفتن تكون عقابا ينزل بأمة ما بعد أن أمهلها مادام فيها مصلحون ينكرون المنكر ويأمرون بالمعروف، وما دام فيها العدل قائماً وإن كانت الأمة كافرة، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود:١١٧]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الأنفال:٢٥].

ثم إذا غلب الظلم وجلس المصلحون وعم الفساد، فقد تغير الحال، قال الفخر الرازي في تفسيره: (أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله تعالى مبناها على المسامحة والمساهلة، وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال في الأثر: الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم)[2].

---

[1] رواه الإمام أحمد، والإمام مسلم.

[2] تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، ج١٨/ ص:٧٨.

ويقول الدكتور زغلول النجار في قوله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون﴾ [الروم:٤١].

يقول: (الإفساد في الأرض بالتلوث الحراري: لا تقتصر أخطار حرق ملايين الأطنان من الفحم والنفط والأخشاب والغازات الطبيعية يوميا في مختلف دول العالم علي ما تطلقه من غازات وأبخرة سامة وملوثات صلبة وسائلة بل يمتد ذلك إلي رفع درجة حرارة الهواء الملاصق لسطح الأرض لعدم تشتت هذه الحرارة بالكامل إلى طبقات الجو العليا بسبب ما تحدثه هذه الغازات السامة من ظاهرة (الاحتباس الحراري) وأثرها على اختلال الميزان المناخي الدقيق للأرض وما يمكن أن يصاحب هذا الاختلال من كوارث مثل العواصف والأعاصير المدمرة وموجات الجفاف والتصحر المهلكة وانصهار الجليد من كل من المناطق القطبية وقمم الجبال وما يمكن أن يؤديه ذلك إلي ارتفاع لمنسوب الماء في البحار والمحيطات وإغراق لكل من الجزر البحرية والمناطق الساحلية والمنبسطة.

وتكفي هنا الإشارة إلى تصحر أكثر من ستة ملايين هكتار من الأراضي الزراعية وأراضي الرعي سنويا منذ بدء الثورة الصناعية في أوروبا الغربية وإلى تدمير أكثر من عشرة ملايين هكتار من أراضي الغابات وتحويلها إلى أراض زراعية فقيرة.

- الإفساد في الأرض بالتلوث الإشعاعي:

وهو من أشد منتجات التقنيات الحديثة إفسادا لبيئة الأرض وفتكا بالإنسان والحيوان والنبات وينتج عن تحلل العناصر المشعة التي أخذت دوائر استخدامها في الاتساع بانتشار كل من المفاعلات والأجهزة والأسلحة النووية بمختلف صورها وأشكالها

ومحطات توليد الطاقة الكهربائية بواسطة المواد النووية والاجهزة الطبية والبحثية المستخدمة لتلك المواد وتوظيف اليورانيوم المنضب (المستنفد) في العديد من الصناعات الحربية والمدنية وصعوبة التخلص من النفايات النووية والتي لا تجد الدول المنتجة لها مثوي سوي قيعان البحار والمحيطات أو أراضي دول العالم الثالث واستحالة ضمان عدم وصول هذه النفايات إلي مختلف بيئات الأرض بعد دفنها أو عدم تسرب الإشعاع من محطات توليد الطاقة النووية وتكفي في ذلك الإشارة إلي تسربات الإشعاع من مفاعل تشرنوبل بالاتحاد السوفيتي السابق ومن مفاعل جزيرة الأميال الثلاثة بالولايات المتحدة الأمريكية ومفاعل أسكوتلندا بالمملكة المتحدة وما أحدثته هذه التسربات الإشعاعية من كوارث بيئية وبشرية كبيرة. وقد أخذت نسب الإشعاعات النووية بالتزايد في مختلف بيئات الأرض بصورة تنذر بالخطر وذلك مع التوسع في العقود القليلة الماضية في استخدام النظائر المشعة في العديد من الأنشطة الصناعية والطبية.

والأشعة النووية لها قدرات تدميرية مهلكة للخلايا والأنسجة الحية إذا تعرضت لها بجرعات تتجاوز احتمالها ويعتقد بأن لذلك علاقة بزيادة الإصابة بالأورام السرطانية في السنوات الأخيرة خاصة وأن أهل الأرض لم يكادوا أن يخرجوا من آثار الثورة الصناعية حتى دخلوا في حربين عالميتين كان ضحاياهما أكثر من٦٥ مليون قتيل غير ملايين المقعدين والمشردين والأيتام والأرامل وعشرات البلايين من الدولارات علي هيئة خسائر مادية متنوعة. وانتهت الحرب العالمية الثانية بكارثتي كل من فلسطين واليابان حين سلمت المؤامرة البريطانية أرض فلسطين لغلاة الحركة الصهيونية العالمية دون أدني حق فأغرقوها في بحر من الدماء والأشلاء والخراب والدمار وضربت الطائرات الأمريكية مدينتي هيروشيما وناجازاكي اليابانيتين بالقنابل الذرية فأبادتهما

إبادة كاملة وأهلكت سكانها وتركت الناجين من بينهم في حالات من التشوه والإعاقة المرعبين ولوثت مختلف البيئات بآثار الإشعاع إلي يومنا الراهن. وتخزين كل من الدول الصناعية الكبري والكيان الصهيوني الغاصب لأرض فلسطين لآلاف الرؤوس النووية ولغيرها من أسلحة الدمار الشامل بكميات كبيرة لهو من أكبر مصادر تلوث البيئة.

ولا تزال الأرض تعصف بها أعاصير الحروب الباردة والساخنة ويزداد بها مخزون أسلحة الدمار الشامل عند الدول الصناعية وأذنابها، ولا يقتصر خطر تلك الأسلحة علي استعمالها ولكن يكمن الخطر في إمكانية وقوع ثورة بركانية أو هزة أرضية أو سلسلة من العواصف والأعاصير المدمرة التي يمكن أن تصل إلي ذلك المخزون وتفجره...!! ومن دوافع تكديس أسلحة الدمار الشامل الصراع علي استنزاف ثروات الأرض وأغلبها ثروات غير قابلة للتجدد بنفس سرعات الاستنزاف. والإسراف المخل في التعامل مع العديد من هذه الثروات وهدرها في غير أوجهها الصحيحة أو تعطيلها بالكامل وكل ذلك يعرض الأرض اليوم لسلاسل من الكوارث البيئية والبشرية بالإضافة إلي الكوارث المعنوية ولذلك قال تعالي: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) الروم:٤١.

٥- الفتن الخارجة عن قدرات البشر:

كفتنة الدجال: وهي قدر الله تعالى، حتى تجتمع كل الفتن في هذه الشخصية التي تأتي في آخر الزمان، وإن كان الدجال شخصية واحدة يأتي دورها في آخر الزمان حين يريد الله تعالى ظهورها.

إلا أن للدجال رمزية أخرى امتدت منذ بدايات البشرية، وتتمثل في عدد من الشخصيات، مع اختلاف الحجم والزمان والمكان، كالسامري في بني إسرائيل، وعبد الله بن سبأ في زمن الخلافة، وقبله مسيلمة الكذاب، وغيرهم من الدجاجلة الذين يخدعون أتباعهم ويغوونهم.

ولا أقصد أن في اتباع هؤلاء الدجاجلة ما هو خارج قدرة البشر، بل الإنسان حر عاقل مختار، في تعامله مع هؤلاء وأمثالهم.

ولكني قصدت بالمسيح الدجال نفسه فقط، في أن خروجه مما هو ليس للبشر دخل فيه، مع تأكيدنا على أن من يدرك زمانه هو مكلف بالحذر منه والابتعاد عن فتنته.

قواعد في الفتن

من خلال دراستي للآيات الكريمة التي تحدثَت عن الفتن، وجدتّ أن بعض الآيات تندرج تحت عناوين مختلفة، فرتبتها بحسب المواضيع التي تدور حولها.

ووجدت أن بعض الآيات، وإن نزل بعضها في حوادث معينة، أو جاءت على أنها من سنن الله تعالى في الخلق، أو جاءت بصيغة تحذير، أو غير ذلك، إلا أنها تعتبر كالقواعد العامة.

فأحببت أن ألفت النظر إليها، كونها مما يتعرض له الإنسان كثيراً، أو كونها مما قد لا يتنبه إلى درجة أهميتها وخطورتها الكثير من الناس، فآثرت أن تكون هذه القواعد مستقلة تحت عناوين مختلفة بحسب مضمونها.

القاعدة الأولى: (ارتباط الايمان بالفتن)

قال تعالى:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون﴾ [العنكبوت:٢]

ومن هنا تأتي أهمية دراسة معاني الفتنة كما وردت في القرآن الكريم، فالإيمان مطلب أساسي لكل ناطق بالشهادتين، والفتن سنة حتمية لكل من يدعي الإيمان، إذن فالإيمان والفتنة متلازمان تلازم دلالة، فالثانية تدل على الأولى، ولكل مسلم نصيبه من التعرض للفتن، فلن تُثبِت حقيقة إيمانك إلا إذا عُرِضَت عليك الفتن فلم تسقط فيها، وأما من سقط فيها فهو متأرجح بين درجات الإيمان وعدمه، فمن الفتن ما يخرج عن ملة الإسلام إن وقع فيها صاحبها، كمن فُتن مثلا بخبر غيبي قطعي الدلالة والثبوت ثم أنكره، كمنكر حادثة الإسراء، وقد وردت في كتاب الله، ومن أنكرها فقد أنكر كلام الله، ومن أنكر كلام الله كفر.[١]

إن ارتباط الفتن بإيمان المسلم، كارتباط النار بالذهب، يُفتن بها ليُصفّى ويُنقّى، فلا يتم تخليص الذهب وتصفيته من الشوائب والمعادن الرديئة إلا بعد عرضه على النار.

وكذلك المسلم، فالإيمان عبارة عن دعوى يدعيها كل واحد، ولكن لكل دعوى حقيقة، ولكل إثبات حقيقة ثمن، وثمن إثبات حقيقة الإيمان؛ هو النجاح في الفتنة والثبات عند عرضها على القلب، والثبات هو الوعي الذي يجنب المؤمن

[١] وفي التكفير تفصيل في كتب الفقه، فلا يؤخذ من هذا الموضع.

الخوض في الفتن والسقوط فيها، فالنجاة من فتن الابتلاء مثلا، يكون بالشكر عند الابتلاء بفتن السراء، وبالصبر عند الابتلاء بفتن الضراء، فالشكر والصبر كالجناحين للنجاح، والرأس هو الثبات، والذيل هو حسن الأداء والتصرف والتفاعل. فالإيمان ليس قولاً بلا تبعات، بل له تبعات قلبية وعملية، ولابد من أدلة وبراهين تظهر صدق رسوخ الإيمان في القلب، وأعمال تدلل على صدق الادعاء بالإيمان، فيتبين الصادق من الكاذب المدعي، وتكون حجة لك أو عليك، وهذه الأدلة تظهر من خلال نتائج التعرض للفتن.

- **أسباب النزول**:

قال ابن عباس وغيره: يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وياسر أبيه، وسمية أمه، وعدة من بني مخزوم وغيرهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك وربما استنكر أن يمكن الله الكفار من المؤمنين.

وقال مقاتل: نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله فقال النبي ﷺ يومئذ: سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة فجزع عليه أبواه وامرأته فنزلت: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾.

وقال الشعبي: نزل مفتتح هذه السورة في أناس كانوا بمكة من المسلمين فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من الحديبية أنه لا يقبل منكم إقرار الإسلام حتى تهاجروا فخرجوا فأتبعهم المشركون فآذوهم. فنزلت فيهم هذه الآية: الم أحسب الناس أن يتركوا فكتبوا إليهم نزلت فيكم آية كذا فقالوا: نخرج وإن اتبعنا أحد

قاتلناه، فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فنزل فيهم: ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا** ﴾ . وهم لا يفتنون يمتحنون، أي أظن الذين جزعوا من أذى المشركين أن يقنع منهم أن يقولوا إنا مؤمنون ولا يمتحنون في إيمانهم وأنفسهم وأموالهم بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

وقال مجاهد وغيره: فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هي سيرة الله في عباده اختبارا للمؤمنين وفتنة.

وقال ابن عطية: وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ، موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك. وإذا اعتبر أيضا كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر. قلت: ما أحسن ما قاله، ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه) [١].

- التفسير:

(أَحَسِبَ): استفهام إنكار أريد به التقرير والتوبيخ ومعناه: الظن[٢].

(النَّاسُ): قال الحسن: الناس هنا المنافقون، وقال ابن عباس: يريد بالناس قوما من المؤمنين كانوا بمكة وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، وقال الإمام ابن عاشور: والمراد بالناس كل الذين آمنوا، وقيل: الناس كافة.

(أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا): الترك: عدم تعهد الشيء بعد الاتصال به.[٣]

---

[١] تفسير الإمام القرطبي.
[٢] تفسير الطبري وابن كثير وغيرهم.
[٣] التحرير والتنوير لابن عاشور.

(وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ): أي وهم لا يتعرضون لضروب الفتن وأنواعها، من فتن الشهوات والشبهات، وفتن القتال، وفتن الصد عن حرية الاعتقاد واقامة شرائع الإسلام

وقال السدي وقتادة ومجاهد: أي لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم بالقتل والتعذيب[1].

قال صاحب نظم الدرر: (يَقَعُ فِتْنَتُهم مِمَّنْ لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ ولَهُ الكِبْرِياءُ في السَّماواتِ والأرْضِ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرى بِأنْ يَخْتَبِرَ صِحَّةَ قَوْلِهِمْ أوَّلًا بِإرْسالِ الرُّسُلِ وإنْزالِ الكُتُبِ ونَصْبِ الأحْكامِ، وثانِيًا بِالصَّبْرِ عَلى البَأْساءِ والضَّرّاءِ عِنْدَ الِابْتِلاءِ بِالمَدْعُوِّينَ إلى اللَّهِ في التَّحَمُّلِ لِأذاهم والتَّجَرُّعِ لِبَلاياهم وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأفْعالِ، الَّتِي يَعْرِفُ بِها مَرْتَبَةَ الأقْوالِ، في الصِّحَّةِ والِاخْتِلالِ)[2].

وقال الفخر: (أن المقصود الأقصى من الخلق العبادة، والمقصد الأعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر "لا يزال العبد يتقرب إلي بالعبادة حتى أحبه" وكل من كان قلبه أشد امتلاءً من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله، لكن للقلب ترجمان وهو اللسان، وللسان مصدقات هي الأعضاء، ولهذه المصدقات مزكيات، فإذا قال الإنسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان، فلا بد له من شهود، فإذا استعمل الأركان في الإتيان بما عليه بنيان الإيمان حصل له على دعواه شهود مصدقات، فإذا بذل في سبيل الله نفسه وماله، وزكى بترك ما سواه أعماله، زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله، فيحرر في جرائد المحبين اسمه ، ويقرر في أقسام المقربين قسمه، وإليه الإشارة بقوله: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا) يعني: أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود، وشهودهم بلا مزكين، بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين).

---

[1] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني: محمد بن علي بن محمد.
[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين البقاعي.

- **المعنى الإجمالي**:

المسلمون في فتن، فتن ابتلاء من الله تعالى لاستخلاص الصفوة ونبذ المنافقين، وفتن من أعداء الإسلام لثنيهم وردهم عن الإسلام، وفتن من الشيطان لإغوائهم، وفتن دنيوية يجب الالتزام بضوابطها الشرعية والعاطفية.

فهل يظن الذين نطقوا بالشهادة وقالوا آمنا، أنهم سيتركون لأجل قولهم آمنا، من غير أن يتعرضوا لأصناف وأشكال وأحجام الفتن من مصادرها المختلفة؟ اختباراً وامتحاناً وابتلاءً، ليُميز الله ويُظهر الذين صدقوا وثبتوا من الناس عن الذين كذبوا ونافقوا، حتى تكون النتيجة حجة لكل فريق منهم، لهم أو عليهم، فينال كل واحد حسابه بحسب نتيجة الفتنة. فأصل الدنيا هي الابتلاء والفتن، قال ﷺ: (**لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتن، فأعدوا للبلاء صبرا**)[1].

وهذا الأسلوب في الحديث؛ هو أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، ثم إن تنكير لفظي فتنة وابتلاء، ليدل على التحذير من عظم ما تحمله الدنيا من ضروب الفتن والابتلاءات المختلفة، فما من مسلم إلا وهو مبتلى ومفتتن، قال ﷺ: (**إِنَّ المؤمن خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ**)[2].

ومن الملاحظ في الآية الكريمة أن كلمة (آمنا) جاءت من غير إضافة، وهذا يفيد الإطلاق وعدم الحصر، فمعلوم أن للإيمان أركانه الستة، فالداخلون في الإسلام من الناس، هم معرضون للفتن عموما، ومن مصادر مختلفة، فمنها ما يبثه أعداء الإسلام من شبهات، ومنها أحاديث النفس، ووسوسة الشيطان وغير ذلك، لذا ستكون هذه الفتن في كل ركن من أركان الإيمان، لأن المطلوب من المسلم تحقيق

[1] سبق تخريجه، رواه الإمام أحمد وابن ماجة وابن عساكر وابن المبارك في الزهد، وغيرهم.
[2] رواه الطبراني في المعجم الكبير.

الإيمان الكامل، فالإيمان وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة، ولا يقبل بعضها دون بعض، قال تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا** ﴾ [النساء:١٣٦].

فالتحذير في هذه الآية الكريمة **(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)** باق ومستمر لكل مسلم إلى قيام الساعة، والواجب على المؤمن ألا يعتمد على أنه ولد مسلما لأبوين مسلمين في مجتمع إسلامي، فهذا لا يكفي لمواجهة الفتن والشبهات، ولابد من تكريس طلب العلم الشرعي وفق المنهج الصحيح المبني على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

والقصد أن المؤمن قد يتعرض للفتنة في إيمانه في أي ركن من أركان الإيمان، وليس بالضرورة أن تكون الفتنة في أصل الإيمان ككل، وهذا مشاهد منذ فجر الإسلام إلى اليوم، فمن الناس من افتتن مثلا بالغيبيات فقط، فأنكر ما أنكر تبعا لمحدودية عقله في التصور والقبول، ومن الناس من افتتن بالكتب السماوية، وأخص بالذكر القرآن الكريم، فيأخذ ببعضه وينكر بعضه، مما لم ينسجم مع هواه الفاسد، مع ايمانه بالله ورسله واليوم الآخر، وقد يكون سبب وقوعه في هذه الفتنة جهله بعلوم اللغة العربية، أو غير ذلك، ومن الناس من تكون فتنته بالقضاء والقدر، وهكذا.

وعلى صعيد أعداء الإسلام: فقد بدأت الفتن في الصدر الأول للإسلام، وكان المشركون يتبعون من الطرق ما يعينهم من خلالها على صد المسلمين عن دينهم، وزرع بذور الشبهات والتشكيك بينهم، فحاولوا النيل من رسول الله ﷺ، فافتروا عليه الأكاذيب وقالوا: ساحر وشاعر وغير ذلك، وعندما لم يفلحوا أخذوا

يستخدمون طرق التعذيب البدني لضعفاء المسلمين، ولكنهم لم يفلحوا أيضا، فاتبعوا طرق التشكيك وبث الأكاذيب، فتارة يشككون في قصة الإسراء والمعراج، وتارة يستهزؤون بما لا يوافق أهواءهم مما ينزل من آيات القرآن؛ فيعترضون -مثلا- كيف للشجرة أن تنبت في النار ولا تحترق، ويعترضون على عدد الملائكة الموكلين بجهنم، وتارة يزعمون أن الملائكة إناثٌ، وتارة يزعمون أنه لا بعث بعد الموت، وهكذا يحاولون النيل من أي شيء يخبر به النبي ﷺ، ولكنه ﷺ كان يرد عليهم افتراءاتهم ومزاعمهم، ويجاهدهم بالقرآن وبما يؤيده به الله عز وجل.

وعلى صعيد حديث النفس؛ كان الصحابة رضوان الله عليهم يلجؤون إلى النبي ﷺ، فيقولون: إن أحدنا ليجد في نفسه لأن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض من أن يتكلم بها، فيقول لهم النبي ﷺ: (ذاك محض الإيمان)[1].

ثم ظهرت الفتن في أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه، وظهرت الفرق المبتدعة، وبدأ الخوض بما نُهوا عنه، فقال البعض أنه لا قدر والأمر أَنِف، فسقطوا في الفتن ولم يتنبهوا لأمر النبي ﷺ: (**إذا ذُكر القدر فأمسكوا**)[2]، ثم ظهر من قدم عقله على النصوص وجعله مطية لفهمها على هواه، فخاضوا في المتشابه من آي القرآن، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وعلى صعيد وسوسة الشيطان: فهو الفتان الذي أقسم ليقعدن للمسلمين الصراط المستقيم، وليغوينهم ويأمرهم بكل ما فيه إفساد، قال تعالى: ﴿**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**﴾ [الحج:٥٣]

[1] رواه الإمام أحمد، والإمام مسلم.
[2] رواه الطبراني.

وقال ﷺ: (**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**)[1].

والقصد أني أردت مما سبق تقديم لمحة تاريخية مختصرة لبعض أشكال الفتن مع بداية ظهور الدعوة الإسلامية، وهي مما لا يخفى على مبتدئ في طلب العلم، فقصدت من هذه اللمحة المختصرة التقديم للعنوان القادم، الذي سندرس فيه الآية الكريمة التي نحن في صددها وننزلها على واقعنا المعاصر.

الفتن بين الماضي والحاضر:

إذاً؛ فالقاعدة الأولى هي: ارتباط الفتن بالإيمان ارتباطا تكامليا، أي أن المسلم معرضا لما قد يفتنه بركن من أركان الإيمان، فيظن بنفسه أنه ناج من الفتن. فهل يظن الناس لأجل قولهم آمنا أنهم لن يفتتوا؟ ولماذا قال: (الناس) ولم يقل المؤمنون؟

لأنه بعد التعرض للفتن تظهر نتائجها، التي تبين الصادق من الناس بقوله آمنت، والثابت على مقتضياتها، من الكاذب المدعي والمنافق، الذي قالها بلسانه من غير تصديق في قلبه وظهور أثر ذلك في حياته وعمله، تمحيصا لمعادن الناس، فالمسألة إذا مسألة مصيرية، لأنها تحدد الناجح الثابت من الساقط الذي هوى في شباك الفتن.

وقد ذكرنا صور إفتان المسلمين في بداية الدعوة وأنها تدور حول تعذيب الضعفاء منهم، ومحاولة مساومة واغواء الأثرياء والوجهاء منهم، مع محاولة النيل من الإسلام بالسخرية تارة، وببث الشبهات التي تتناول بعض الفروع تارة أخرى.

أما اليوم، فقد وصل الهجوم على الإسلام وأهله إلى أعلى مستوياته، بهدف تشويه صورته النقية الصافية، وزعزعة الإيمان في صدور أهله أولا، وفي صدور من

---

[1] صحيح البخاري وصحيح مسلم.

سمع عنه ورغب فيه ثانيا، ساعين إلى نشر الفتن بكافة وسائلهم وامكانياته، عبر وسائل الإعلام المختلفة، المرئية منها والمقروءة والمسموعة، خاصة الحديثة منها، وفي وسائل التواصل الاجتماعي التي باتت أكثر انتشارا وتأثيرا في عقول الناس.

قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون**﴾ [البقرة:٢١٧]، وقال: ﴿**وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء**﴾ [النساء:٨٩]، وقال: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**﴾ [البقرة:١٠٩]

إذاً هي شبكة عنكبوتية، وبما أننا في صدد هذه الآية الكريمة، من سورة اخذت اسم العنكبوت، والتي تحذر من شبكات الفتن، وتتحدث في الوقت نفسه عن الجهاد والمجاهدة، فنحن اليوم أمام شبكات عنكبوتية، ممولة وموجهة، وتعمل بمنهجية مدروسة من أعداء الإسلام، مهندسة كهندسة شبكة العنكبوت، فإن كانت هذه الشبكة لا تقل عن صورة بيت العنكبوت في كونها تنشر خيوطها اللاصقة لاصطياد ضحاياها، إلا أنها لن تزيد عن كونها أوهن من بيت العنكبوت، إذا وقف المسلمون أمامها وقفة وعي ومجاهدة، لتقطيع أوصال هذه الشبكة وتخييب أهدافها، نصرة لدين الله العظيم، عندها يستحق الفرد وتستحق الأمة نصر الله لها، وهو القائل سبحانه: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم**﴾.

فقد ازدادت جرأة أعداء الإسلام ومحاولاتهم لنشر الفتن بكافة صورها في الأمة، فباتوا يتناولون الثوابت والرموز والمُسَلَّمات والأصول، ويُزينون الشبهات في

صلب العقيدة، عبر فتح أبواب التساؤلات والنقاشات التي تنثير الشكوك والريب، في قلوب حائرة وعقول مراهقة، من بعض شباب الأمة الغض، لأنها للأسف لم تؤسس على القواعد المتينة والأساسات القوية، فباتت عرضة لتقبل الشبهات التي تم صناعتها في مصانع متخصصة، غلفتها بعناوين براقة خداعة، توهم الأغرار بأنها محكمة، كشعارات من يسمى بالعقلانيين والعلمانيين، وأهل الحداثة والتنوير، وكلها شعارات فتانة، تجاوزت فتن الشياطين بمراحل، لتواكب العصر وتستغل الجهل المتراكم في ظل ظروف من التخلف والتنازع والتفكك الحاصل في الأمة، سمحت لهذه الفتن بالانتشار، في أجواء الظلم والاستبداد والقهر، وأساليب التجهيل المتعمدة، وتغير المفاهيم، وتحييد القدوات والمصلحين، وإبراز الرويبضات والتافهين، وصرف الأنظار إلى ميادين الإثارة المفتعلة في المجالات كافة. وليس حديثي عن أعداء الإسلام من خارجه، بل ممن تأثر بالشبهات وتبناها، من أبناء جلدتنا وديننا، وبات يبثها بين المسلمين على أنها فتوحات ربانية اكتشفها هو بذكائه المسخ، متهما علماء الأمة وأئمتها بالضلال والخطأ، ليظهر نفسه على أنه المجدد الملهم، الذي فهم حقيقة مراد القرآن، ومتخيرا من السنة ما يوافق هواه، رافضا ما يكشف زيغه وكذبه. فهل عرفت -أخي القارئ- عمن أتحدث؟ وعمَّ أشير؟

أتحدث عن فتن الدجاجلة الجدد، الذين لم يعد يخفى حقيقة من خلفهم إلا على غافل أو متغافل، هم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: (**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين**)[1]، هو ذلك الشبعان الذي وضع ساقا على ساق يفرق بين القرآن والسنة، قال ﷺ: (**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول**

[1] رواه الترمذي، والدارمي في سننه.

عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[1].

فكل من له أتباع يعتقدون ما يعتقد ويقتنعون بما يقول فهو إمامهم، ومنهم الضال المضل، أو الصالح المصلح، وإنما الخوف من المنافق عليم اللسان، قال ﷺ: **(أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان يجادل بالقرآن)**[2]. وهذه الأحاديث من دلائل نبوته ﷺ، فبتنا نراهم اليوم بكثرة، يلقي أحدهم أكذوبته ثم يقول: ما بالكم ألا تقرؤون كتاب الله! ويرتفع صوته منفعلا وكأنه شديد الغيرة على الإسلام، ثم يجتزئ من الآيات ما يوافق هواه ويستشهد به، على طريقة الشيطان حين قرأ: **(ولا تقربوا الصلاة)** دون أن يكملها: **(وأنتم سكارى)**.

لقد أخبر النبي ﷺ عن صفاتهم، وأن منهم من يأتي بجديد لم يقله أحد من قبل، ومنهم الشبعان الذي ينكر السنة، ومنهم من يبدل السنة إلى بدعة والبدعة إلى سنة، حتى يهرم فيها الكبير ويربو عليها الصغير، وكل هذا من الفتن الحاصلة اليوم بفضل دعاة الضلال والإفساد من الدجاجلة الجدد، وهو تمهيد وتحضير وتهيئة لاستقبال الدجال المسيخ في آخر الزمان. قال ﷺ: **(سيكون في أمتي دجالون كذابون، يُحدّثونكم ببدع من الحديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يفتنونكم)**[3]. وعن أبي الجلاس، قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول لعبد الله بن سبأ: ويلك، والله ما أفضى إليّ بشيء كتمته أحدا من الناس، ولقد سمعته يقول: (إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا، وإنك لأحدهم)[4]. وما ابن سبأ إلا أحد النماذج للدجاجلة المتبوعين، الذي يمشي وراءهم كل الرعاع الهمج.

---

[1] رواه أبو داود، وبنحوه الإمام أحمد.
[2] جامع بيان العلم وفضله للإمام ابن عبد البر.
[3] رواه الإمام أحمد.
[4] رواه أبو يعلى.

القاعدة الثانية: (الفتن سنة ربانية)

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت:٣]

إن الفتن قدر حتمي وسنة ثابتة في الخلق، فكما نزلت في الأمم السابقة، فهي كائنة في هذه الأمة، وإلى أن تقوم الساعة، فما دامت الحياة مستمرة، وفيها البشر المكلفون، فسيبقى الصراع قائما بين أهل الحق وأهل الباطل، وستبقى الفتن تتنزل كنزول المطر على الأرض، حتى تبقى سنة التمييز والتمحيص إلى آخر إنسان في الدنيا.

- التفسير:

(الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ): المؤمنون أتباع الأنبياء، أصابهم من المحن ما فرق به المؤمن بالمنشار فرقتين، وتمشط بأمشاط الحديد، ولا يرجع عن دينه[1]. (فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].)[2]

(فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا): في قولهم آمنا، بعد أن تعرضوا لضروب الفتن والمحن.

(وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) : منهم في قيلهم ذلك، والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله صدق الصادق منهم

---

[1] تفسير البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي، ج٧/ ص١٣٦

[2] تفسير روح المعاني لأبي الثناء الألوسي.

في قيله: (آمنا بالله) من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه، ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه[1]. (وفيه من علم المتعدية إلى واحد فيهما، ويستحيل حدوث العلم لله تعالى. فالمعنى: وليتعلقن علمه به موجوداً به كما كان متعلقاً به حين كان معدوماً)[2].

- **المعنى الاجمالي**:

هذه سنة من سنن الله في الخلق، فقد تعرضت الأمم السابقة لفتن مختلفة من الله تعالى، وأرسل إليهم الرسل معلمين وهادين، حتى لقوا هم وأتباعهم من أعدائهم من أصناف التكذيب والصد والأذى والعذاب، كما لقي موسى عليه السلام من فرعون وملئه، وكعيسى عليه السلام، حين حاول بنو اسرائيل قتله بعد أن قتلوا من قبله من الأنبياء والرسل.

فما كانت هذه الفتن إلا ليميز الله الصادق منهم من الكاذب، عبر بالعلم عن الجزاء، أي: وليتبين الصادق وليعذبن الكاذب، فتكون لكل واحد حجته يوم القيامة في كتاب معه. فمن صدق في أيمانه وطابق قوله واعتقاده أفعاله، فهو من الناجين.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ البقرة ٢١٤.

لقد تعرضوا إلى الكثير من الفتن ما جعل قلوبهم تتزلزل، فيستنزلون نصر الله لهم من شدة ما لقوا وعانوا.

[1] تفسير الطبري.
[2] تفسير البحر المحيط لابي حيان.

- **من قصص الفتن**:

عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: **قد كان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه فما يصرفه ذلك عن دينه، والله لَيَتِمّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**).[1]

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك، قال: (**إنا كذلك يُضعّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر. قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء. وقلت: ثم من، قال: ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يحوبها وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء**).[2]

<u>حكمة</u>:

(من يظن انه لا يعيش بين الفتن فهو كالميت، فكل شر أو خير حولك فيه فتنة، والميت فقط لا يشعر بذلك).

[1] رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود.
[2] رواه ابن ماجة.

القاعدة الثالثة: (**الفتنة تكون بالخير والشر**)

قال تعالى:

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥]

الخير ابتلاء، والشر ابتلاء، وفي كلا الابتلاءين فتن، تطرق أبواب القلوب، تحمل معها جلبةً واضطراباً، تحاول خلخلة الايمان وزعزعة السكينة، فمن أنكرها كان قلبه مطمئناً لا غبار عليه، ومن فتح لها الأبواب؛ فتح على نفسه رياح الهرج والمرج، وعواصف الاضطراب والشرور، فاجعل لقلبك جناحين فيرتقي بهما؛ جناحاً من الشكر للخير، وجناحاً من الصبر على لشر، قبل أن يتحول الابتلاء إلى فتنة فتقع فيها.

- **التفسير**:

(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً): ونختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير، وهو الرخاء والسعة والعافية، فنفتنكم به.[١]

قلت: وهذا الاختبار ليس كأي اختبار، فهو مغلف إما بالشهوات أو الشبهات. وقدم الشر لأن الابتلاء به أكثر، ولأن العرب تقدم الأقل والأردأ، ومنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات.[٢]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الخير والشر هنا عام في الغنى والفقر، والصحة والمرض، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال).

[١] تفسير الطبري.
[٢] البحر المحيط لأبي حيان.

وقال ابن عطية: (هذان الأخيران ليسا داخلين في هذا لأن من هدي فليس هداه اختياراً ولا من أطاع. بل قد تبين خيره، والظاهر أن المراد من الخير والشر هنا كل ما صح أن يكون فتنة وابتلاء)[1].

وعن ابن عباس أيضا: (بالشدة والرخاء أتصبرون على الشدة وتشكرون على الرخاء أم لا. وقال ابن زيد: المحبوب والمكروه).

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ): اثبات للبعث، وإلينا يردون فيجازون بأعمالهم، حسنها وسيئها.[2]

- **المعنى العام**:

الحياة دار ابتلاء وفتن، فإما ارتقاء في الدرجات، أو انحدار في الدركات، فكل ما فيها يحمل بين طياته فتناً واختباراً، فكأن الحياة قطار، والمرء فيه في سفر وتنقل دائم، وكل عربة من عربات القطار تحمل بضاعة من الشر والخير، والشدة والرخاء، والشغل والفراغ، والصحة والمرض، وجميع المتقابلات والمتناقضات، فطوبى لمن وصل في سفره هذا إلى بر الأمان والاطمئنان، والنجاة والارتقاء، في دار الخلود والبقاء.

طوبى لمن عرف الخير فالتزمه، وعرف الشر فاجتنبه. والغافل الذي يظن الخير شرا والشر خيرا، فيظن أن أي قتال هو جهاد، وأن كل انفاق هو صدقة، وأن كل عون هو من البر والتقوى.

كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني. رواه البخاري.

[1] البحر المحيط.
[2] تفسير الطبري.

فأي حرص من أصحاب رسول الله ﷺ هذا الذي كان يجعلهم يسألون عن الشر لتوخيه، مع ما هم عليه من التقوى؟ ونحن أولى اليوم بهذا السؤال.

فللفتنة لمعانها، وليس كل ما يلمع ذهبا، وللفتنة زخارفها؛ والزخرف خداع إلا لذوي الألباب.

حكمة:

(ما من شر أو خير إلا وفيه فتنة، فأعد للشر الصبر، وللخير الشكر، يتساوى عندك الشر والخير).

القاعدة الرابعة: (الناس بعضهم لبعض فتنة)

وفيها موضعان:

١ – قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣]

قال الأقرع بن حابس للنبي ﷺ: إنما بايعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة – وأحسبه وجهينة ابن أبي يعقوب شك – قال النبي ﷺ: (**أرأيت إن كان أسلمُ وغِفارُ ومزينةُ – وأحسبه – وجهينةُ خيراً من بني تميمٍ وبني عامرٍ وأسدٍ وغطفانَ خابوا وخسروا؟ قال: نعم، قال: والذي نفسي بيده إنهم لخيرٌ منهم**).[١]

- التفسير:

(وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ): وإنما فتنة الله – تعالى ذكره – بعض خلقه ببعض، مخالفته بينهم فيما قسم لهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضا غنيا وبعضا فقيرا، وبعضا قويا، وبعضا ضعيفا، فأحوج بعضهم إلى بعض، اختباراً منه لهم بذلك.[٢]

عن ابن عباس: (يعني أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء: "أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " يعني: هداهم الله. وإنما قالوا ذلك استهزاء وسخرياً).

---

[١] رواه البخاري ومسلم.
[٢] تفسير الطبري.

(لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا): أي اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعز والذل ، والقوة والضعف ، والهدى والضلال، كي يقول من أضله الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله ووفقهم: "أهؤلاء من الله عليهم " بالهدى والرشد ، وهم فقراء ضعفاء أذلاء " من بيننا " ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاء بهم، ومعاداة للإسلام وأهله.

(أليس الله بأعلم بالشاكرين): وهذا منه – تعالى ذكره – إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقرير لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرا نعمتي، ممن هو لها كافر. فمني على من مننت عليه منهم بالهداية؛ جزاء شكره إياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد؛ عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير؛ لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحد إلا جزاء على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره؛ لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليست من أفعال خلقي.

٢- قال تعالى:

﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠]

- **التفسير**:

(وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون): فكل واحد فتنة للآخر، وكل واحد فاتن من طرفه ومفتون من غيره، وذلك في جميع المتقابلات: كالغنى والفقر، والصحة والمرض، والراعي والرعية، والمهذب الدمث والفض الجلف، وهكذا.

ولنا في أخلاق رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة في تعامله الأكمل والأرقى مع من كان في طبعه وخلقه من جفاء أو غلظة، وكيف كان يعاملهم بما يأسر قلوبهم ويروض طباعهم ويحببه إلى قلوبهم، كتعامله مع الأعرابي الذي بال في المسجد، وذلك الذي جذبه من ثوبه الشريف جذبة قوية، وكنعيمان الذي كان كثير المزاح وغيرهم، فكان ﷺ يصبر على طباعهم ويعلمهم باللطف والرحمة معلما لهم ولأمته طرق التعامل مع الآخرين.

قال القرطبي: (أي إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معنى أتصبرون: أي على الحق. وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لمْ نعاف؟ والأعمى يقول: لمَ لمْ أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره. وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم {**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**} . فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضجر).

(أتصبرون): محذوف الجواب، يعني: أم لا تصبرون.[1]

[1] تفسير القرطبي.

(وجعلنا بعضكم): قال ابن عطية: (هو عام للمؤمن والكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغني، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل).

وقال: والتوقيف ب(أتصبرون) خاص للمؤمنين المحقين فهو لأمة محمد، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين، أي: اختبارا ثم وقفهم. هل تصبرون أم لا؟ ثم أعرب قوله:

(وكان ربك بصيرا): عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين.[1]

وقال الإمام الفخر الرازي: (...أن هذا عام في جميع الناس، روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ويل للعالم من الجاهل، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وويل للمالك من المملوك، وويل للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، بعضهم لبعض فتنة، وقرأ هذه الآية. وثالثها: أن هذا في أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لم لم أجعل مثله في الخلق والخلق، وفي العقل وفي العلم، وفي الرزق وفي الأجل؟ وهذا قول ابن عباس والحسن.

فائدة: قال الشنقيطي في تفسيره: فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون: لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء، لأنا أحق منهم بكل خير، كما قال هنا: ﴿**وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا**﴾، إنكاراً منهم أن يمنّ الله على هؤلاء الضعفاء دونهم، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم، وقد رد الله قولهم هنا بقوله: ﴿**أليس الله بأعلم بالشاكرين**﴾.

[1] البحر المحيط لأبي حيان.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه**﴾ الأحقاف:١١، وقوله: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ ندياً**﴾ مريم:٧٣.

المعنى الإجمالي:

يقول الشيخ محمد راتب النابلسي: (هذه آية دقيقة جداً، الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الفقير فتنةً للغني، أيحتقره؟ أيحرِمُهُ؟ فُتِنَ الغني، وجعل الغني فتنةً للفقير، أيعظِّمَهُ من دون الله؟ أيتضعضع أمامه؟ أيأخذ منه ما ليس له؟ أيحسده؟ فالغني فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وجعل القوي فتنةً للضعيف، أيستكين هذا الضعيف؟ أتنهار معنويَّاته؟ أيحسده؟ وجعل الضعيف فتنةً للقوي أيستطيل عليه؟ أيبغي عليه؟ أيحتقِرُهُ؟ وجعل الصحيح فتنةً للمريض، وجعل المريض فتنةً للصحيح، وجعل العاجز فتنةً للسليم، وجعل السليم فتنةً للعاجز، هذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ**﴾ الفرقان: ٢٠، الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء وفي الآخرة توزيع جزاء.

حكمة:

(كل انسان هو فاتن ومفتون، فإذا نظرت إلى من فضل عليك، فانظر إلى من فضلت عليهم، فكل انسان هو فاضل ومفضول).

القاعدة الخامسة: (**الفتن قد تعم الأمة**)

قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَاب ﴾ [الأنفال:٢٥]

وهذه آية عظيمة، يغفل عنها الكثير من الناس، وعما تحوي من تحذير بالغ الأهمية للأمة، أفرادا وجماعات، فهي تحمل أسراراً ومعانيَ لو أفردت لها الكتب لما وفتها حقها، بل لا أبالغ إن قلت إن جميع الآيات والأحاديث عن الفتن تندرج تحتها، من حيث الحث على تقوى الله بما أمر ونهى، والامتثال لما فيها من معاني التواصي بالحق والصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوحيد الكلمة، والأخذ على يد الظالم، وإنكار البدع، وعدم التهاون بالجهاد، وإلا فالنتيجة – بحسب الآية نفسها- سيصيب الأمة فتن لا تعد ولا تحصى، لا تصيب الظالم خاصة، بل تعم الجميع، وجاءت كلمة فتنة فيها نكرة للدلالة على عموم الفتن التي قد تحل بالأمة جراء تهاونها فيما سبق ذكره، كاضطراب أحوال الأمة بالفوضى وتسلط الظلمة، وتداعي الأمم، والأمراض والجهل والتخلف الحضاري والزلازل والبراكين والقحط والفقر.... الخ.

وقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾** .

فكان الأمر للمؤمنين بالاستجابة لله ولرسوله بما يحيي هذه الأمة ويصلحها، بالقرآن الكريم وسنة النبي الهادي ﷺ، ففيهما النجاة والعصمة والصلاح والحياة

الكريمة، وكذلك كان الإعلام بأن الله يحول بين المرء وقلبه، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان.[1]

قالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله، ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتني.[2]

وقال ﷺ: **(إن قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن، كقلبٍ واحدٍ يُصرّفُهُ حيث يشاء، ثم قال: اللهم مُصرّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك).**[3]

- **التفسير**:

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) الفتنة: تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يجعلوا بينهم وبين الفتنة وقاية، هذه الفتنة لا تصيب الظالم وأهل المعاصي خاصة، بل تعم الناس عموما، كما قال ﷺ: **(إذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة)**[4].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب). ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين وقال: وهذا تفسير حسن جدا.

---

[1] قال ابن كثير في تفسيره: رواه الحاكم موقوفا وقال صحيح ولم يخرجاه.

[2] رواه أحمد.

[3] رواه أحمد ومسلم.

[4] رواه ابن ماجة، وأبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح.

وقال القاسمي: إما بمعنى الذنب كإقرار المنكر، وافتراق الكلمة والتكاسل في الجهاد وإما بمعنى العذاب. فإن أريد الذنب فإصابته بإصابة أثره، وإن أريد العذاب، فإصابته بنفسه.[1]

و(لا تصيبن) جواب للأمر، أي: إن إصابتكم لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم، بل تشملهم وغيرهم بشؤم صحبتهم، وتعدي رذيلتهم إلى من يخالطهم، كقوله تعالى: ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس**﴾ قاله القاشاني.[2]

المعنى العام:

ومن أجمل ما قرأت في كتب التفاسير معبراً عن هذه الآية الكريمة، ما قال الإمام ابن عاشور: (عقب تحريض جميعهم على الاستجابة، المستلزم تحذيرهم من ضدها بتحذير المستجيبين من إعراض المعرضين، ليعلموا أنهم قد يلحقهم أذى من جراء فعل غيرهم إذا هم لم يقوموا عوج قومهم، كيلا يحسبوا أن امتثالهم كاف إذا عصى دهماؤهم، فحذرهم فتنة تلحقهم فتعم الظالم وغيره. فإن المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول ﷺ دب بينهم الاختلاف واضطربت أحوالهم واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة.

وحاصل معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس، قال تعالى: "وفتناك فتونا".

فعلى عقلاء الأقوام وأصحاب الأحلام منهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم أن يبادروا للسعي إلى بيان ما حل بالناس من الضلال في نفوسهم، وأن يكشفوا لهم ماهيته وشبهته وعواقبه، وأن يمنعوهم منه بما أوتوه من الموعظة

[1] تفسير القاسمي.
[2] المصدر السابق.

والسلطان، ويزجروا المفسدين عن ذلك الفساد حتى يرتدعوا، فإن هم تركوا ذلك، وتوانوا فيه لم يلبث الفساد أن يسري في النفوس وينتقل بالعدوى من واحد إلى غيره، حتى يعم أو يكاد، فيعسر اقتلاعه من النفوس، وذلك الاختلال يفسد على الصالحين صلاحهم وينكد عيشهم على الرغم من صلاحهم واستقامتهم ، فظهر أن الفتنة إذا حلت بقوم لا تصيب الظالم خاصة بل تعمه والصالح، فمن أجل ذلك وجب اتقاؤها على الكل لأن أضرار حلولها تصيب جميعهم.

وبهذا تعلم أن الفتنة قد تكون عقابا من الله تعالى في الدنيا، فهي تأخذ حكم العقوبات الدنيوية التي تصيب الأمم، فإن من سنتها ألا تخص المجرمين إذا كان الغالب على الناس هو الفساد، لأنها عقوبات تحصل بحوادث كونية يستتب في نظام العالم الذي سنه الله تعالى في خلق هذا العالم أن يوزع على الأشخاص كما ورد في حديث النهي عن المنكر أن النبي ﷺ قال: (**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**)[1].

وعن زينب بنت جحش أنها قالت: (**يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث**)[2].

وقال رسول الله ﷺ: (**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله، لم يغيروه، إلا عمهم الله بعقاب**)[3].

---

[1] رواه البخاري، وغيره.
[2] رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.
[3] رواه الإمام أحمد واللفظ له، وابن ماجة، وأبو داود.

وقال الكرخي: ولا يستشكل هذا بقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ لأن الناس إذا تظاهروا بالمنكر، فالواجب على كل من رآه أن يغيره، إذا كان قادرا على ذلك فإذا سكت فكلهم عصاة. هذا يفعله، وهذا برضاه. وقد جعل تعالى، بحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة.

وذكر القسطلاني: أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له، إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده، فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راض بالمنكر، فتعمه العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار.[1]). انتهى النقل عن ابن عاشور.

ومن الأحاديث التي ذكرها ابن كثير في تفسيره، وذكرها أيضا غيره: عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب منه)**.[2]

وقال رسول الله ﷺ: (**لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نَهَتْهُم علماؤُهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، قال: فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً، فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً**).[3]

وعن مطرف قال: (قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور.
[2] رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي.
[3] رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾** لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت)[1].

وروى ابن جرير بسنده عن الحسن قال: قال الزبير: لقد خوفنا بها، يعني قوله تعالى: **﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾** ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة. ونقل ابن كثير عن الضحاك ومجاهد ويزيد بن أبي حبيب قولهم: هي أيضا لكم.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله تعالى يقول: **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾** التغابن: ١٥٥، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن. رواه ابن جرير.

قال ابن كثير: والقول: بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم. وإن كان الخطاب معهم، هو الصحيح، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، ومن أخص ما يذكر هاهنا:

قال رسول الله ﷺ: (**إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة**)[2].

وقال ﷺ: (**والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لَتَدْعُنَّهُ فلا يَستجيب لكم**). [3] **وفي رواية: (أو ليَبعثنّ الله عليكم قوماً ثم تدعونه فلا يُستجاب لكم**)[1].

---

[1] رواه الإمام أحمد.
[2] رواه الإمام أحمد.
[3] رواه أحمد، والترمذي وقال: هذا حديث حسن.

وقال رسول الله ﷺ: **(إذا ظهرت المعاصي في أمتي، عمهم الله عزّ وجلّ بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أناس صالحون؟ قال: بلى، قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان)**.[2]

وقال رسول الله ﷺ: **(ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزُّ منهم وأمنعُ لا يُغيّرون، إلاّ عمّهم الله عزّ وجلّ بعقاب.** أو قال: **أصابهم العقاب)**.[3]

قال ﷺ: **(إذا ظهر السوء في الأرض، أنزل الله بأهل الأرض بأسه. قالت: وفيهم أهل طاعة الله عزّ وجل؟ قال: نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله تعالى)**.[4]

حكمة:

(الحياة كالسفينة، من ثقب بأرضها ثقبا أغرقها، فالثقب هو الفتنة، فإن تركوه غرقوا جميعا).

---

[1] رواه أحمد برقم.
[2] رواه أحمد.
[3] رواه أحمد.
[4] رواه أحمد.

القاعدة السادسة: (**الإمهال حتى تقوم الساعة**)

قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأنبياء:١٠٧- ١١١]

- **التفسير**:

(وما) و(إلا): هي أقوى أدوات الحصر، وتنكير (رحمة): للتعظيم، فالمراد جنس الرحمة، فهو صلى الله عليه وسلم رحمة في ذاته وفي خلقه وصفاته وسيرته كما قال: (**إنما أنا رحمة مهداة**)[1]، وهو مجبول عليها مفطور بها، فكان لينا للأمة، **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾**.

وكذلك فرسالته التي أرسل بها هي رسالة الرحمة في تشريعاتها كافة، بما يضمن سعادة الدارين لمن آمن بها واتبعها، وفي هذا انسجام لطيف وكامل مفعم بالرحمة؛ بين المرسِل سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين، وبين المرسَل ﷺ، وبين الرسالة نفسها؛ رسالة الرحمة والتراحم.

[1] رواه الدارمي، والبيهقي في دلائل النبوة، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

و(العالمين): هو كل شيء ما سوى الله تعالى، فهو ﷺ رحمة لعالَم الحيوان، والأمثلة في ذلك كثيرة، فحين اشتكى إليه جمل فسأل ﷺ عن صاحبه وقال له: (**أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إليّ أنك تُجيعه وتُدئِبُه**)[١].

ورأى ﷺ مرة طيراً تفرش بجناحيها، فلا هي التي طارت وارتفعت ولا هي التي سكنت إلى عشها بعد أن فقدت فراخها، فقال ﷺ: (**أيّكم فجع هذه؟ أردده**)[٢].

وكذلك حين رأى حمارا قد وسمه صاحبه في وجهه ليميزه، فقال ﷺ: (**لعن اللهُ الذي وَسَمَهُ**)[٣].

وكذلك مع عالم الأطفال: فقد كان ﷺ رحمة لهم، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: (ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة وأتم من النبي ﷺ وإن كان ليسمع بكاء الصبي فيخفف مخافة أن تُفْتَن أُمُّه)[٤].

وكان ﷺ في صلاته فإذا سجد وثب الحسن والحسين رضي الله عنهما على ظهره، فإذا رفع رأسه أخذهما بيده من خلفه أخذًا رفيقًا ويضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه[٥]، وكان يلاطف شقيق أنس وكان عنده طير صغير فيقول له: (**يا أبا عمير ما فعل النغير**)[٦].

---

[١] رواه أبو داود.
[٢] رواه أحمد، وأبو داود وصححه النووي في رياض الصالحين.
[٣] رواه مسلم.
[٤] رواه البخاري.
[٥] رواه النسائي وأبو يعلى وابن حبان.
[٦] متفق عليه.

وحكي[1] أن النبي ﷺ قال لجبريل عليه السلام: هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة فأمنت لثناء الله عز وجل عليّ بقوله: ﴿ **ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾ التكوير: ٢٠ - ٢١.

(وإن أدري لعله فتنة لكم) أي: وما أدري لعل تأخير جزائكم استدراج لكم، وزيادة في افتتانكم، أو ابتلاء لينظر كيف تعملون. فـ(الفتنة) إما مجاز عن الاستدراج بذكر السبب وإرادة المسبب، أو هو بمعناه الأصلي. فهو استعارة مصرحة. وقوله تعالى: {ومتاع إلى حين} أي: تمتيع لكم إلى أجل مقدور. والتمتيع بمعنى الإبقاء والتأخير.[2]

وقال الفخر: أما قوله تعالى: **(وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين)** ففيه وجوه:

أحدها: لعل تأخير العذاب عنكم.

وثانيها: لعل إبهام الوقت الذي ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أي بلية واختبار لكم ليرى صنعكم، وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا.

وثالثها: قال الحسن: لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم، والفتنة البلوى والاختبار.

ورابعها: لعل تأخير الجهاد فتنة لكم؛ إذا أنتم دمتم على كفركم؛ لأن ما يؤدي إلى الضرر العظيم يكون فتنة، وإنما قال: لا أدري لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة، بل ينكشف عن نعمة ورحمة.

---

[1] ذكره القاضي عياض في الشفا.
[2] تفسير القاسمي.

وخامسها: أن يكون المراد وإن أدري لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم؛ لأنه زيادة في عذابكم إن لم تؤمنوا؛ لأن المعرض عن الإيمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد، وإذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه.[1]

حكمة:

(إياك أن تظن أنك ناج من الفتن حتى تلقى الله تعالى، ففي القبر أيضا ينتظرك فاتنان سيسألانك).

[1] التفسير الكبير (مفاتيح الغيب).

القاعدة السابعة

(من أسباب انتشار الفتن: موالاة الكفار وترك موالاة المؤمنين)

قال تعالى:

﴿ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِير ﴾ [الأنفال:٧٣]

هذه الآية العظيمة الحكيمة من سورة الأنفال؛ تلخص حال الأمة وتتحدث عن واقعها ومصيرها ومستقبلها، بل وتلخص حال أهل الأرض عموما، بمن عليها وما يجري فيها من أحداث وفتن وابتلاءات، وتحذر المسلمين من أسباب الضعف والهوان وتسلط الأعداء عليها، وتحذر العالم من أسباب الفساد والفتن الكبرى في الأرض.

وفيها أربع مسائل: (الولاء – التحذير ب(إلا تفعلوه) – الفتنة في الأرض – الفساد الكبير).

التفسير:

١ – الولاء: والولي هو: المعين والنصير، والولاء هو: الحب والنصرة والانتماء، والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعز بعزك وامتنع بمنعتك.

فما هي هذه الفتن وما هو هذا الفساد الذي يعمّ الأرض؟

فالذين كفروا بالله تعالى وبرسوله ﷺ بعضهم أولياء وحلفاء ونصراء بعض، بالقول والعمل والأفعال، وبالانتماء وطلب العزة والمنعة، يتحالفون ضد قيام وانتشار الإسلام في الأرض. وقد قسم الله المسلمين في هذه السورة إلى أربعة أقسام:

الأول: المهاجرون الأولون: **(إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله)**.

الثاني: الأنصار الذي استقبلوهم: **(والذين آووا ونصروا)**. ثم قال تعالى عن هذين القسمين: **(أولئك بعضهم أولياء بعض)**.

الثالث: المؤمنون الذين لم يهاجروا: **(والذين آمنوا ولم يهاجروا)**.

والرابع: الذين هاجروا بعد صلح الحديبية والهجرة النبوية: **(والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم)**.

ذكر الله تعالى هذه الأقسام من المؤمنين، وأمر سبحانه وتعالى بأن هؤلاء الأقسام الأربعة: بعضهم أولياء بعض، وينتمي بعضهم لبعض، وينصر بعضهم بعضاً، ويؤوي بعضهم بعضاً.

ثم ذكر تعالى قسماً خامساً، وهم من غير المؤمنين: **(والذين كفروا)**، فأخبر أن هؤلاء: **(بعضهم أولياء بعض)**.

وبعد أن أمر سبحانه أن يوالي المؤمنون بعضهم، وأن يمتنعوا عن موالاة المشركين، حذر من عدم تطبيق ذلك والتهاون فيه فقال:

(إِلا تَفْعَلُوه): ولأن الموالاة أفعال لا أقوال فحسب، قال إلا تفعلوه، أي فإن لم تمتثلوا لحكم الله تعالى في قطع موالاتكم للكفار، والتمسك بموالاة بعضكم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، بالأعمال والأفعال والأقوال والتعاون والتناصر، فإنه:

(تَكُنْ): نتيجة مخالفة الامتثال لحكم الله:

<u>أولا- (فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ):</u> فعندما يستغني المسلمون عن موالاة بعضهم، ويتجهون لموالاة المشركين، عندها ستختلط المواقف، فتختلف المصالح الدنيوية والشخصية، فيناصر المؤمنُ الكافرَ على المؤمن، فتلتبس الأمور، فيحدث نتيجة ذلك:

١- ازدياد قوة أهل الكفر وضعف قوة أهل الاسلام، فيتسلط الأعداء ويُذلّ المسلمون.

٢- اختلاط مفاهيم وثوابت الحق بالفلسفات والأفكار المستوردة، كالإلحاد والزندقة والردة والاستهانة بدين الإسلام، مما يفسد المجتمعات الإسلامية، ويزداد التخبط والحيرة في المجتمعات الغربية، والواجب هو أن يروا الإسلام قويا على حقيقته ليؤمنوا به، فكيف سيصدقون من يشاهدون ضعفهم وتمزقهم وتقاتلهم.!؟

٣- يتقاتل المسلمون مع بعضهم، فيستنصرون بالأعداء ويستعينون بهم ضد إخوتهم من أهل الاسلام والايمان، لأجل مصالح دنيوية.

٤- يطمع أعداء الإسلام بثروات المسلمين فيستحوذون عليها، فيزدادون ثراء، ويزداد المسلمون فقراً وضعفاً.

٥- تقليد المسلمون لأهل الكفر في طريقة حكمهم ومعيشتهم، فينهلون منهم النظريات والمبادئ، ويستغنون بها عمّا جاء به الإسلام.

٦- هجرة العقول من المبدعين، من أصحاب التخصصات العلمية المهمة في الصناعات الغذائية والدوائية والعسكرية.. الخ.

وللأسف، فإن كل ذلك قد تحقق، فتفرق المسلمون، وغزا بعضهم بعضاً، ووالوا أعداء الإسلام، واستنصروا بهم على بعضهم، وتسلط الأعداء، واحتلوا البلاد بأشكال مختلفة من صور الاحتلال، فهنا احتلال ثقافي، وهناك احتلال عسكري، وهذا محتل اقتصادياً، وهكذا.

ثانيا- (وَفَسَادٌ كَبِيرٌ): عندما يضعف المسلمون، وتُزال هيبتهم من عيون العالم؛ ولا يستطيعون توصيل الاسلام ولا تطبيقه، عندها يُحرم العالم من عدل الإسلام وإنسانيته ونوره، ومن تطبيق أحكامه التي تضمن لكل ذي حق حقه، وتمنع الاعتداء على الاخر، وتنصر الضعيف، عندها فإن مصير الأرض سيكون:

١- انتشار الظلم والاستبداد والطواغيت.

٢- ظهور الانحلال وما ينتج عنه من الأمراض والأوبئة.

٣- تفشي الربا وما ينتج عنه من تسلط الاغنياء وكثرة المحرومين والفقراء.

٤- بروز الدجاجلة وأفكارهم المعادية للإسلام تحت شعارات الانسانية والتحضر.

٥- وقوع الكوارث والزلازل والبراكين.

فكيف إذا ما اتفق (المال المسلم) مع المصالح الشخصية والمطامع الوهمية، لأصحاب هذا المال، فحُرم من الانتفاع به المسلمون، عندها سيظهر الفساد بأنواع لم تكن تخطر على حسابات أصحاب هذا المال، فينعكس على المناخ والطقس، وعلى البيئة، وعلى الاقتصاد والصناعة، والتجارة، وعلى دخل الفرد عموماً.

وها نحن نرى اليوم تحقيق ما حذر الخالق سبحانه وتعالى منه، من ظهور نتائج موالاة غير المسلمين، فظهر:

١- ذل المسلمين: **﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾** النساء:١٣٩.

٢- الوهن والخذلان: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** العنكبوت:٤١.

٣- النار والخسران: **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾** هود:١١٣.

٤- الوصول الى الكفر: **﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾** النساء:٨٩. **﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾**.

أما لو حدث عكس ما سبق، وكانت الأمة تطبق قوله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوبة:٧١. عندها سيكون المسلمون هم مجلس الأمن، والمحكمة الدولية والدولة العظمى، سيما وأن المنطقة العربية تحوي نصف ثروات الأرض، وأهم الأنهار والمضائق والطرق العالمية.

وأعظم من ذلك كله: أعظم وأصح كتاب إلهي فيه القوانين والأنظمة الإنسانية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية، التي من شأنها أن تنشر السلام والعدل في الأرض.

وفي فجر الإسلام، عندما كان المسلمون يدا واحدة، وقلبا واحدا، يوالي بعضهم البعض، فرضوا هيبتهم على العالم، واستطاعوا النصر على أعظم قوتين في زمنهم، الفرس والروم، فنشروا العدل والرحمة والنور بين الأمم، حتى كان الجميع يعمل ألف حساب للمسلمين.

ولا نشك أن للإسلام عودة بإذن الله تعالى، فالأمة إن أصابها غفوة، فإنها لن تموت مهما طالت هذه الغفوة أو قصرت.

حكمة:

(كل تنازل في الدين؛ يجرّ خلفه ذيلا من الفساد والفتن).

القاعدة الثامنة

(من يرد الله فتنته فلا راد له)

قال تعالى:

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]

التفسير:

قال الإمام المراغي في تفسيره:

(وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا): أي ومن يرد الله أن يختبر في دينه فيظهر الاختبار كفره وضلاله فلن تملك له أيها الرسول من الله شيئا من الهداية والرشد فهؤلاء المنافقون والجاحدون من اليهود قد أظهرت لك فتنة الله واختباره إياهم مقدار فسادهم، فهم يقبلون الكذب دون الحق وهم محرفون كاتمون لأحكام كتابهم، اتباعا لأهوائهم ومرضاة لرؤسائهم، وذوي الجاه فيهم: فلا تحزن بعد هذا على مسارعتهم في الكفر، ولا تطمع في جذبهم إلى الإيمان، فإنك لا تملك لأحد نفعا، وإنما عليك البلاغ والبيان، ولا تخف عاقبة نفاقهم فإنما العاقبة للمتقين من أهل الإيمان، ولهم الخزي والهوان.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ): أي إن أولئك الذين بلغت منهم الفتنة ذلك المبلغ هم الذين لم يُرِد الله تطهير قلوبهم من الكفر والنفاق، لأن إرادته إنما تتعلق بما اقتضته سننه العادلة في نفوس البشر، من أنها إذا دأبت على الباطل ومرنت على الكيد والشر، وألفت الخلاف والضر، تحيط بها خطيئتها، وتطبق عليها ظلمتها، فلا يبقى لديها لنور الحق منفذ، وتصبح غير قابلة للاستبصار والاعتبار الذي جعله الله وسيلة

للاتعاظ والهداية فهؤلاء الرؤساء من اليهود وأعوانهم لا تقبل طباعهم سواها، فلا تتعلق إرادته سبحانه بتطهيرهم، وإلا كان ذلك خلافا لما اقتضته سننه وتبديلا لنظمه في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

(لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ): فخزي المنافقين في الدنيا هتك أستارهم باطلاع الرسول على كذبهم وخوفهم من القتل، وخزي اليهود فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصوص كتابهم في إيجاب الرجم، وعلوّ الحق على باطلهم، وقد صدق الوعيد على كل يهود الحجاز، كما يصدق على كل من يفسدون كفسادهم ولا يغني عنهم الانتساب إلى نبي لم يتبعوه ولا تنفعهم دعوى الإيمان بكل نبي لم يتبعوه وعذابهم في الآخرة نجزم بحصوله ولا نعلم مقدار كنهه، وحقيقة أمره.

حكمة:

(الفتن هي القانون الوحيد الذي يجب أن تخالفه).

القاعدة التاسعة

(الفتنة أشد وأكبر من القتل)

قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١] - ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧]

التفسير:

اشتد: قوي وزاد وعظم وازداد قسوة، وتماسك واكتمل، (بلغ أشده): اكتمل وبلغ قوته.

فالفتنة من ناحية الحجم والكم هي أكبر من القتل، ومن ناحية القوة والكيف هي أشد من القتل، ومعلوم أن القتل هو من أكبر الكبائر.

والسبب في ذلك؛ فمن ناحية المُعرّض للفتنة والقتل: أن من قُتل بسبب تمسكه بدينه، فقد انتهت الفتن عنه وتوقفت، ولم يعد يتعرض لها، أما من لا يزال على قيد الحياة فهو مازال معرّضا لجميع أنواع الفتن والابتلاءات.

ومن ناحية الفاتن أو القاتل: فإن كان من غير أهل الإسلام فهو عدو لله ولرسوله وللمسلمين، يبتغي الإفساد والإضلال، وإن كان من المنتمين للإسلام؛ فهو أشد عداءً وخطراً على المسلمين، فهو دجال فتّان مخادع؛ يخادع المسلمين ليفتنهم باسم الإسلام، وما أكثر هؤلاء في كل زمان ومكان.

ومن هنا جاء تشريع الجهاد، والإعداد الدائم للقوة، وذلك لحفظ هيبة الإسلام وضمان حرية الاعتقاد والدخول في الإسلام عن صدق واقتناع، فلا يتجرأ

أعداء الإسلام من محاولات تعريض المستضعفين من المسلمين وغير المستضعفين للفتن التي تصدهم أو تعارض تمسكهم بالإسلام.

ولما كانت الفتنة هي اعتداء على عقل المسلم وحريته وإرادته واختياره، كانت الفتنة أكبر وأشد من الاعتداء عليه جسديا بالقتل، لأنه اعتداء على الروح والنفس، وهذان الأخيران أسمى من الجسد، فالاعتداء على حرية اختيار الدين والقيام بالشعائر والعبادات التي أمر بها الخالق سبحانه؛ ثم تعريضه للتعذيب والتهجير، والأذى المعنوي والنفسي، والتضييق عليه في حياته على دينه وفكره ومعاشه وأهله؛ لهو أكبر من جريمة قتله وأشد تأثيرا وأثرا على قلبه.

لذا أمرهم الله تعالى بقتال المشركين حتى ولو كانوا في المسجد الحرام، دفاعاً عن أنفسهم وعن حرية اختيارهم، وحفظاً لدينهم ودنياهم.

وإذا ما قرأنا الواقع، ثم قارنا بين أثر القتل وأثر الإفساد والفتن، سنجد الفرق كبيراً، ففي حربين فقط في العصر الحديث، تسببتا في مقتل حوالي تسعين مليونا من الناس، وهذا الرقم ليس بالشيء القليل، ولكن الفساد والفتن حصدت في هذا العصر ذاته المليارات من الضحايا في مجالات شتى، لقد أدخلت الفتن والفساد على أمم بأكملها.

فالحرب العالمية الأولى استمرت ٤ سنوات وانتهت، والحرب العالمية الثانية استمرت ٦ سنوات وانتهت، أما الحرب على الإسلام فلاتزال مستمرة منذ مئات السنين:

{والفتنة أكبر من القتل} وهذا (حجماً).

والحرب العالمية الأولى حصدت حوالي ١٧ مليون قتيلا، والثانية حصدت حوالي ٧٠ مليون قتيلا، ولكن الحرب على الاسلام حصدت ولا تزال تحصد الملايين من ضحايا المشاكل الأخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ...الخ ولم تنته بعد، وهذا ليس في المسلمين فحسب، بل في كل العالم.: {والفتنة أشد من القتل} وهذا (كيفاً).

حكمة:

(إذا أردت إهلاك أمة، فلا تقاتلهم بالسلاح، فقط انشر الفتن بينهم، فالفتن أشد وأكبر من القتل).

القاعدة العاشرة

(عقوبة من يفتن المؤمنين)

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾
[البروج:١٠]

قال الشيخ محمد سيد طنطاوي:

هدد سبحانه كفار قريش بسوء المصير، إذا ما استمروا في إيذائهم للمؤمنين، فقال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ، ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ)**.

وقوله: فَتَنُوا من الفتن، بمعنى الاختبار والامتحان. تقول: فتنت الذهب بالنار، أي: أدخلته في النار لتعلم جودته من رداءته، والمراد به هنا: التعذيب والتحريق بالنار.

أي: إن الظالمين الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله- تعالى- من ذنوبهم، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات، فلهم في الآخرة عذاب جهنم، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها في الإحراق.

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات: كفار قريش، كأبي جهل وأمية بن خلف وغيرهما، فقد عذبوا بلالا، وعمار بن ياسر، وأباه وأمه سمية.

ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش، قوله تعالى: (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) لأن هذه الجملة تحريض على التوبة، وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبي ﷺ.

ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات، ويدخل فيه أصحاب الأخدود، وكفار قريش دخولا أوليا.

وجمع سبحانه بين عذاب جهنم لهم، وبين عذاب الحريق، لبيان أن العذاب لهم مضاعف، بسبب طغيانهم وشركهم.

فتن الأمة بين الماضي والحاضر

(في ظل القواعد العشر السابقة)

لماذا ندرس آيات كتاب الله في الفتن ونتدبرها؟ وما فائدة هذه الدراسة إن أبقيناها مفصولة عن واقعنا الخاص وواقع الأمة عموما؟ أليس المقصد الرئيس والأساسي من هذه الدراسة والتدبر هو فهم ما ترمي إليه من معان جليلة، ثم الاستفادة من هذا الفهم في أمور حياتنا المُعاشة وواقعنا الحاضر، على المستويين: الخاص والعام؟

خاصة إذا كانت هذه الآيات تحمل من الله تحذيراً بالغاً وأمراً واضحاً بيّناً بالاتقاء من فتن أردف التحذير منها بتحذير آخر أشد، وهو العقاب الشديد.

ولأجل فهم هذه التحذير والوعد الشديد، يلزمنا بعد تدبر الآيات، أمران:

الأول: النظر فيما ورد عن المصطفى ﷺ في هذا الباب، وهي ما يسميها العلماء بدلائل النبوة.

والثاني: النظر في تاريخ الأمة وواقعها لمعرفة ما وقع من الفتن العامة فيها وما لم يقع، من غير تكلّف ولا تجرّؤ في تحميل الأحاديث ما لا تحتمله، ولمعرفة كيف تدرجت الفتن وظهرت في الفرد والمجتمع، ولهذا لابد من معرفة البداية.

في البداية، لقد أخبر النبي ﷺ عن علامة البداية لنزول الفتن على الأمة، ثم أخبر عن تتابعها وراء بعضها حتى آخر هذه الفتن.

فالبداية كما أخبر النبي ﷺ هي بكسر الباب الذي كان يشكل حائلاً وسداً منيعاً في وجه الفتن، ألا وهو مقتل سيدنا عمر رضي الله عنه، وهذه أدلة ذلك:

١- عن حذيفة رضي الله عنه قال: (بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي ﷺ في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا، قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟ قال: لا، بل يكسر؟ قال عمر: إذا لا يغلق أبدا. قلت: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد ليلة، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله من الباب؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال من الباب؟ قال عمر)[1].

٢- قال رجل لخالد بن الوليد رضي الله عنه: (يا أبا سليمان اتق الله؛ فإن الفتن ظهرت فقال: أما وابن الخطاب حي فلا، إنما تكون بعده فينظر الرجل هل يجد مكانا لم ينزل به مثل ما نزل بمكانه الذي هو به من الفتنة والشر فلا يجد فتلك الأيام التي ذكر رسول الله بين يدي الساعة أيام الهرج)[2].

٣- لقي أبو ذر عمر رضي الله عنهما، فأخذ بيده فغمزها فقال له أبو ذر: (أرسل يدي يا قفل الفتنة، ثم قال أبو ذر: لا يصيبكم فتنة ما دام فيكم وأشار إلى عمر)[3].

٤- قال حذيفة رضي الله عنه: (ما كان الإسلام في زمان عمر إلا كالرجل المقبل ما يزداد إلا قربا؛ فلما قُتل عمر كان كالرجل المدبر ما يزداد إلا بعدا)[4].

---

[1] رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، وغيرهم.
[2] رواه الطبراني بإسناد حسن.
[3] رواه الطبراني وقال ابن حجر في الفتح رجاله ثقات.
[4] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.

٥- عن عثمان بن مظعون أنه قال لعمر رضي الله عنهما: يا غلق الفتنة، فسأله عن ذلك فقال: مررت ونحن جلوس عند النبي ﷺ فقال: هذا غلق الفتنة لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما عاش.[١]

٦- عن حذيفة رضي الله عنه قال: ما بينكم وبين أن يرسل عليكم الشر فراسخ إلا موتة في عنق رجل يموتها وهو عمر.[٢]

فإذا نظرنا إلى تطبيق هذه الأحاديث واقعياً، لوجدنا أن أول فتنة نزلت على الأمة، كانت بعد مقتل عمر رضي الله عنه، وهي فتنة مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه في سنة ٣٥ للهجرة، ثم توالت الفتن، فكانت فتنة الجمل في سنة ٣٦ للهجرة، ثم فتنة صفين في سنة ٣٧ للهجرة، ثم مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة ٤٠ للهجرة، ثم الفتنة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه في كربلاء سنة ٦١ للهجرة، وهكذا هي الفتن إلى اليوم، وهي مستمرة لا تتوقف حتى نزول المسيح ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

ثم هدأت أمواج الفتن التي من هذا النوع، وهي فتن القتال، التي يقتل فيها المسلمون بعضهم بعضاً، سوى ما كان من حالات خاصة، كالذي كان من أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٢ للهجرة، وما يشابهها كمتفرقات في تاريخ الأمة، كالذي حدث بين دولتي الموحدين والمرابطين في أفريقيا، وغيرها مما سجله التاريخ، حتى تناقصت تدريجياً خلال فترة السلطنة العثمانية، إلى أن تم إلغاؤها، وظهرت القوميات والحدود والتقسيم في الأمة، ثم عادت الفتن لتظهر من جديد، وهي إلى اليوم مستمرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وفي هذا مصداق ما أخبر عنه الذي لا ينطق عن

---

[١] رواه البزار.
[٢] رواه ابن أبي شيبة.

الهوى ﷺ، حيث قال: (**سألت ربي ثلاثا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**).[1]

وقال ﷺ: (**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألّا يهلكها بسنة عامة وألّا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألّا أهلكهم بسنة عامة وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا**).[2]

وقال صاحب تحفة الأحوذي في شرح هذا الحديث: (قال المظهر: اعلم أن الله تعالى في خلقه قضاءين مبرماً ومعلقاً بفعل، كما قال إن الشيء الفلاني كان كذا وكذا، وإن لم يفعله فلا يكون كذا وكذا من قبيل ما يتطرق إليه المحو والإثبات كما قال تعالى في محكم كتابه ﴿**يمحو الله ما يشاء ويثبت**﴾ .

وأما القضاء المبرم فهو عبارة عما قدره سبحانه في الأزل من غير أن يعلقه بفعل، فهو في الوقوع نافذ غاية النفاذ، بحيث لا يتغير بحالة ولا يتوقف على المقضي عليه، ولا المقضي له، لأنه من علّمه بما كان وما يكون، وخلاف معلومه مستحيل قطعاً، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات قال تعالى: ﴿**لا معقب لحكمه**﴾ وقال النبي ﷺ: (**لا مرد لقضائه ولا مرد لحكمه**)، فقوله صلى الله عليه وسلم: (**إذا**

---

[1] رواه أحمد، ومسلم.
[2] رواه أحمد، ومسلم، وغيرهما.

قضيت قضاء فلا يُردّ) من القبيل الثاني ولذلك لم يجب إليه، وفيه أن الأنبياء مستجابو الدعوة إلا في مثل هذا).

فإذا أعدنا الآن بعد قراءة هذه الأحاديث الصحيحة، النظر في قوله تعالى: **(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** . الأنفال:٢٥ .

وفق القواعد العشر التي مرت بنا قبل قليل، وملخصها:

(ارتباط الايمان بالفتن، الفتن سنة ربانية، الفتنة تكون بالخير والشر، فتنة الناس لبعضهم، تعميم نزول الفتنة على الجماعة أو الأمة، الإمهال حتى تقوم الساعة، موالاة الكفار تسبب انتشار الفتن والفساد في الأرض، من يرد الله فتنته فلا رادّ له، الفتنة أشد وأكبر من القتل، من يفتن المؤمنين له عقاب في الدنيا والآخرة).

سنجد أن الفتن من قضاء الله المبرم لهذه الأمة، والتي لابد لكل مسلم أن يعيها ويتعرف عليها لكي يحذرها ويدفعها عنه وعمن بقدرته دفعها عنهم، بالإيمان بوقوعها أولا، ثم بالدعاء والصبر عليها حين تقع، فإن قيل: لا يفيد حذر من قدر، قلنا: بل الدعاء يعتلج مع القدر النازل حتى يدفعه، فنكون كمن يفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله.

فمعرفة الفتن قبل وقوعها من أهم أسباب النجاة منها، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: (إِنَّهَا فِتَنٌ قَدْ أَظَلَّتْ كَجِبَاهِ الْبَقَرِ يَهْلِكُ فِيهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُهَا قَبْلَ ذَلِكَ).[1]

---

[1] رواه ابن ابي شيبة في مصنفه ونعيم بن حماد في الفتن.

وقال الشيخ أبو بكر العدني في شرح هذا الحديث:

(تشبيه الفتن هنا بجباه البقر غاية في الوصف ودقة في المحاكاة.. وقد جاء التشبيه للفتن بأنها كقطع الليل المظلم وهو تشبيه حقيقي فالفتن المضلة تنعدم فيها الرؤية للحق ولا يستبين في الصواب وتختفي فيها معالم الخير. وقد جمع حذيفة رضي الله عنه بين هذين التشبيهين فذكر حديثا مرفوعا إلى رسول الله ﷺ فقال: **(تكون فتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا تأتيكم مشتبهة كوجوه البقر لا يدرون أيها من أي)**. نعم.. (لا تدرون أيها من أي) لأن وجوه البقر تتشابه تشابها كبيرا كما هو معروف بالعادة، ولذلك قالت بنو إسرائيل في شأن البقرة {**إن البقر تشابه علينا**}، وتشبيه الفتن بجباه البقر في دلالات التشابه والقوة والمقابلة، وفي الحديث فائدة عظيمة وهي أن النجاة من تشابه الفتن تكون بالمعرفة المسبقة بها وبالعلم المتقدم لها، وذاك لا يكون الا في قلة من الناس، تأمل قول حذيفة: (يَهْلِكُ فِيهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُهَا قَبْلَ ذَلِك).[1]

لذا كان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يقول: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.[2]).

وكان الحسن البصري يقول: إن الفتنة إذا أقبلت عرفها العالم وإذا أدبرت عرفها كل جاهل. بل لقد كلن حذيفة رضي الله عنه يتمنى أن لو ينشر هذه الأحاديث بين الناس حتى يُحذرَ بعضهم بعضاَ منها، فقال رضي الله عنه: لوددت أن عندي مئة رجل قلوبهم من ذهب فأصعد على صخرة فأحدثهم حديثا لا يضرهم بعده فتنة أبدا ثم أذهب فلا أراهم ولا يروني أبدا.

[1] رواه نعيم بن حماد في الفتن.
[2] رواه مسلم.

ومن الأحاديث التي أخبر فيها ﷺ عن مراحل في الأمة تكون فيها فتن عظيمة:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ قعودا فذكر الفتن فأكثر في ذكرها حتى ذكر فتنة الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: **(هي فتنة هَرَب وحَرَب ثم فتنة السراء دخلها أو دخنها من تحت قدمي رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني إنما وليّي المتقون ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع ثم فتنة الدهيماء لا تدع أحدا من هذه الأمة إلا لطمته لطمة فإذا قيل: انقطعت تمادت يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسى كافرا حتى يصير الناس إلى فسطاطين، فسطاط إيمان لا نفاق فيه وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، إذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من اليوم أو غد)**.[١]

وقال ﷺ: **(يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويلقى الشُّحُّ، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج، قالوا: يا رسول الله، أَيُّمَ هو؟ قال: القتل القتل)**.[٢]

وقال رسول الله ﷺ: **(يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن)**.[٣]

وقبل أن ننتقل في الحديث إلى زمننا المعاصر، دعونا نطلع على بعض أقوال التابعين وتابعيهم، ماذا قالوا في أزمانهم، لنتعرف كيف تدرجت الفتن حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم، ثم نقارن أزمانهم بزمننا: قال الإمام الطبري المتوفى سنة ٣١٠ للهجرة: حدثني أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة، حدثنا عثمان بن سعيد، عن محمد بن مهاجر، حدثني الزبيدي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: يا ويح لبيد حيث يقول:

---

[١] رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم وغيرهم.
[٢] البخاري، ومسلم، وغيرهما.
[٣] رواه الأمام مالك، والبخاري، وغيرهما.

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلف كجلد الأجرب

قالت عائشة: فكيف لو أدرك زماننا هذا؟ قال عروة: رحم الله عائشة، فكيف لو أدركت زماننا هذا؟ ثم قال الزهري: رحم الله عروة، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

ثم قال الزبيدي: رحم الله الزهري، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

قال محمد: وأنا أقول: رحم الله الزبيدي، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

قال أبو حميد: قال عثمان: ونحن نقول: رحم الله محمدا، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

قال أبو جعفر: قال لنا أبو حميد: رحم الله عثمان، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

قال أبو جعفر: رحم الله أحمد بن المغيرة، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟

قال الشيخ: رحم الله أبا جعفر، فكيف لو أدرك زماننا هذا؟[١]

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: لو خرج رسول الله ﷺ إليكم اليوم ما عرف شيئاً مما كان عليه هو وأصحابُه إلا الصلاة!

قال الأوزاعي (ت سنة ١٥٧ هـ): فكيف لو كان اليوم؟! وقال عيسى بن يونس (ت سنة ١٨٧ هـ): فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟[٢]

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه على أم الدرداء وهو مغضب: فقالت: ما أغضبك؟ فقال: والله ما أعرف من أمَّة محمد شيئاً إلا أنهم يصلّون جميعًا.

---

[١] تهذيب الآثار للطبري.
[٢] البدع والنهي عنها لابن وضاح.

قال الحافظ ابن حجر توفي سنة (٨٥٢هـ) رحمه الله: وكأنّ ذلك صَدَرَ من أبي الدرداء في أواخر خلافة عثمان، فيا ليت شعري إذا كان ذلك العصر الفاضل بالصفة المذكورة عند أبي الدرداء! فكيف بمن جاء بعدهم من الطبقات إلى هذا الزمان؟[١]

وقال طاووس: لمّا وقعت فتنة عثمان، قال رجل لأهله: أوثقوني بالحديد؛ فإنّي مجنون، فلمّا قُتل عثمان، قال: خلّوا عنّي، الحمد لله الذي شفاني من الجنون وعافاني من قتل عثمان.

وقال الامام سفيان الثوري عن زمانه: هذا زمن السكوت ولزوم البيوت والرضا بالقوت الى ان تموت.

وقال شريح: كانت الفتنة سبع سنين: ما خبرت فيها ولا استخبرت، وما سلمت، قيل كيف ذاك يا أبا أميّة؟ قال: ما التقت فئتان إلا وهواي مع إحداهما.

وقال مطرّف بن عبد الله: لبثتُ في فتنة ابن الزّبير تسعًا أو سبعًا ما أَخبرتُ فيها بخبر ولا استخبرت فيها عن خبر.[٢] كيف لا وهو القائل: الفتنة لا تجيء تهدي الناس ولكن تجيء تقارع المؤمن عن دينه.

هذه بعض أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى القرن التاسع، رحمهم الله، يشتكون من الفتن في أزمانهم، فكيف نقول نحن في زماننا وقد اشتدت الفتن وازدادت؟

فمن يقرأ التاريخ يجد مصداق ذلك، كما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنكم لم تروا إلا بلاء وفتنة، ولن يزداد الأمر إلا شدة، ولا الأنفس إلا شحاً. وقال: لن تروا من

---

[١] فتح الباري لابن حجر.
[٢] طبقات ابن سعد.

الأئمة إلا غلظة، ولن تروا أمرا يهولكم ويشتد عليكم إلا حضر بعده ما هو أشد منه.
قال البغوي: سمعت أحمد، يقول: اللهم رضنا.[١]

فكلما مرت فتنة على الأمة وانتهت، أردفتها فتنة أكبر منها، قال ابو الزاهرية: وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: (لا تزالوا في بلاء وفتنة ولا يزداد الأمر الا شدة، فإذا لم يل الوالي لله ولم يؤد المولى عليه طاعة الله، فأوشكوا بكره الله فإن كره الله أشد من كره الناس).[٢] فازدياد الفتنة من شقين، شقّ يسببه الولاة، وشقّ ستسببه الرعية.

فتن القوة الناعمة:

إذا كانت القوة المؤثرة في الماضي هي القوة الصلبة، أي قوة (العصا)، فإن القوة المؤثرة اليوم هي القوة الناعمة: (الجزرة).

فالقوة الناعمة كما يسميها "جوزيف .س ناي" هي السلاح المؤثر في الناس؛ ويحقق الأهداف المطلوبة عن طريق الجاذبية بدلا من الإرغام أو دفع الأموال. وبصيغة أخرى: هي جعل الآخرين يريدون ما تريد باختيارهم لا بإرغامهم.

كيف أجعل من شباب أمة تختلف عن أمتي أن يحملوا أفكاري، ويتخذوا مني قدوة لهم وملهما لأحلام مستقبلهم؟ هذا ما يعمل عليه الغرب لفتنة شباب الأمة ورجالها، فهي الفتنة في أن ينبهر الناس بالغرب، ولكن هذه المرة فإن الفتنة غيرت من أزيائها.

فالفتنة الناعمة هي الحرب العصرية اليوم، حيث تم استبدال الجيوش المقاتلة بالسلاح بجيوش الكترونية، والدبابة بالكتاب، والصاروخ بالقلم، والجنرالات

---

[١] رواه ابن كثير في النهاية في الفتن.
[٢] رواه نعيم بن حماد في الفتن.

بالمفكرين، وقيادات الأركان بمراكز البحوث، والقادة الغربيين بالعملاء المحليين، وتغير ميدان القتال من ساحات الوغى إلى مقاعد الجامعات والمعاهد العلمية.

يقول جوزيف ناي في كتابه القوة الناعمة: (عندما سقطت حكومة طالبان في أفغانستان عام ٢٠٠١، طار وزير خارجية الهند إلى كابول كي يرحب بالحكومة المؤقتة الجديدة، على متن طائرة، لم تكن محملة بالأسلحة أو الأغذية، بل كانت محشوة بأشرطة سينمائية وموسيقية من "بوليود" تم توزيعها بسرعة في سائر العاصمة الأفغانية).

هكذا هو الغزو اليوم، إنه الغزو الثقافي، وهو الأشد خطورة وتأثيرا، عندما تجذب الآخرين إلى ثقافتك فتشكل لهم القدوات التي تريدها، وتنسيهم تراثهم وقدواتهم العظيمة. ويقول جوزي ناي أيضا: (إن جدار برلين قد تم اختراقه بالتلفزيون والأفلام السينمائية قبل زمن طويل من سقوطه في عام ١٩٨٩، ذلك أن المطارق والجرافات ما كانت لتنتج لولا انتقال الصور المبثوثة من ثقافة الغرب الشعبية على مدى سنوات طوال فاخترقت الجدار قبل أن يسقط).

هذه هي القوة الناعمة، إنها الطرقات الخفية على العقول، طرقات الإعلام المؤثرة، إنها سرقة القلوب وامتلاكها بتأثير الإعلام وسحر الصورة، إنها معارك في كل لحظة وثانية، عندما يدخل الفكر الغربي ويتسلل إلى ألعاب أطفالنا الالكترونية، وإلى برامج اليوتيوب التي أخذت بألباب الكبار والصغار بلا رقيب، إلا رقابة عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سبحانه وتعالى، ومن هنا وجب استبدال ثقافة مراقبة الله بثقافة العيب السائدة.

فتنة زهرة الحياة الدنيا

قال تعالى:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه:١٣١]

- **أسباب النزول**:

عن أبي رافع قال: (نزل برسول الله ﷺ ضيف، فأرسلني إلى يهودي بالمدينة يستسلفه فأتيته، فقال: لا أسلفه إلا برهن، فأخبرته بذلك، فقال: إني لأمين في أهل السماء وفي أهل الأرض، فاحمل درعي إليه، فنزلت {ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم} وقوله: {ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا} إلى قوله {والعاقبة للتقوى} ويعني بقوله: {أزواجاً منهم}: رجالاً منهم أشكالاً، وبزهرة الحياة الدنيا زينة الحياة الدنيا)[١].

قال القرطبي: (قال ابن عطية: وهذا معترض أن يكون سبباً؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي ﷺ؛ لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم، والصبر على أقوالهم، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزي.

[١] ذكره الطبري في تفسيره بسنده.

- **التفسير**:

قال الإمام الألوسي: (والمراد على ما قيل: استمر على ترك ذلك، وقيل: الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد أمته، لأنه صلى الله عليه وسلم كان أبعد شيء عن إطالة النظر إلى زينة الدنيا وزخارفها وأعلق بما عند الله عز وجل من كل أحد وهو ﷺ القائل: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما أريد به وجه الله تعالى)، وكان ﷺ شديد النهي عن الاغترار بالدنيا والنظر إلى زخرفها، والكلام على حذف مضاف أو فيه تجوز في النسبة، وفي العدول عن لا تنظر إلى ما متعنا به إلخ إلى ما في النظم الكريم إشارة إلى أن النظر الغير الممدود معفو وكان المنهي عنه في الحقيقة هو الإعجاب بذلك والرغبة فيه والميل إليه لكن بعض المتقين بالغوا في غض البصر عن ذلك حتى أنهم لم ينظروا إلى أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغيرهما، وذلك لمغزى بعيد وهو أنهم اتخذوها لعيون النظارة والفخر بها فيكون النظر إليها محصلا لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها).

(ولا تمدن عينيك): لا تنظر، ومد النظر كناية عن التأمل.

(إلى ما متعنا به): أعطينا.

(أزواجا): أصنافا.

(منهم زهرة الحياة الدنيا): زينتها وبهجتها.

(لنفتنهم فيه): أي لنجعل ذلك فتنة لهم بأن أزيد لهم النعمة فيزيدوا كفرا وطغيانا[1]، وقال الزمخشري في الكشاف: (لنفتنهم: لنبلوهم حتى يستوجبوا العذاب؛ لوجود الكفران منهم، أو لنعذبهم في الآخرة بسببه).

---

[1] تفسير الإمام البغوي.

(ورزق ربك): في المعاد، يعني: الجنة، وقال في الكشاف: هو ما ادخر له من ثواب الآخرة الذي هو خير منه في نفسه وأدوم، أو ما رزقه من نعمة الإسلام والنبوة، أو لأن أموالهم الغالب عليها الغصب والسرقة والحرمة من بعض الوجوه، والحلال خير وأبقى لأن الله لا ينسب إلى نفسه إلا ما حل وطاب دون ما حرم وخبث، والحرام لا يسمى رزقا أصلا.

(خير وأبقى): قال أبي بن كعب: من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه حسرات، ومن يتبع بصره فيما في أيد الناس بطل حزنه، ومن ظن أن نعمة الله في مطعمه ومشربه وملبسه فقد قل عمله وحضر عذابه.

- فتنة زهرة الحياة بين الماضي والحاضر:

قال ﷺ: (**إِنَّمَا أَخشى عليكم من بعدي مَا يُفتح عليكم مِن بَركاتِ الأَرضِ قيلَ ومَا بَركَاتُ الأَرض؟ قَال: زَهْرَةُ الدُّنْيَا**. وفي رواية مسلم: (**أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الْأَرْضِ**).

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَلْ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ فَصَمَتَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ يَمْسَحُ عَنْ جَبِينِهِ فَقَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَقَدْ حَمِدْنَاهُ حِينَ طَلَعَ ذَلِكَ.

قَالَ: لَا يَأْتِي الْخَيْرُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ كُلَّ مَا أَنْبَتَ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمُّ إِلَّا آكِلَةَ الْخَضِرَةِ، أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا، اسْتَقْبَلَتْ الشَّمْسَ

فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ حُلْوَةٌ مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ.[1]

فزهرة الحياة الدنيا -كما فسرها النبي ﷺ- هي ما تخرجه الأرض من بركاتها وخيراتها وكنوزها التي أودعها الله فيها، والسؤال هو: فلماذا تخوف النبي ﷺ على أمته منها؟

ولعظم المسألة، وبعد أن سأله أحد الصحابة: هل يأتي الخير بالشر؟ ينزل الوحي لحمل الجواب لرسول الله ﷺ حتى يبلغه لأمته، وأي أمر عظيم هذا الذي يستوجب نزول الوحي في هذه اللحظة؟ إنه أمر الإجابة على السائل، فلولا أنه أمر لا يستوجب نزول الوحي، لأجاب النبي من تلقاء نفسه كما في كثير من الأحيان.

وكيف لا يكون هذا الأمر عظيماً، والنبي ﷺ يقول عنه أنه من أخوف ما يخاف على الأمة منه؟!

ومعنى الحديث باختصار: أن زهرة الحياة الدنيا هي بركات الأرض، وبركات الأرض هي زهرة الحياة الدنيا، وهي جميع متاع الدنيا من مأكل وملبس وأموال، فهي لو أحسن التعامل معها لكانت خيرا، والخير لا يأتي إلا بالخير، وهذا هو الأصل، (نعم المال الصالح للرجل الصالح)، وفي الحديث تشبيه بلاغي في قمة الجمال، حيث شبه الدنيا بالمال، لأن المال هو عصب الحياة، وشبه الدنيا بجدول ماء، نبت العشب حوله، فأكلت الماشية منه فانتفخت ثم أخذت تجتر ما في بطنها ثم أخرجته وألقته خارجا، فالمال نعم صاحب المسلم إذا أخذه بحق وأداه بحق، أما العكس فهو كالذي يأكل ولا يشبع ثم يكون شهيدا عليه يوم القيامة، يفضح صاحبه كيف أخذه وكيف صرفه.

---

[1] رواه البخاري.

قال الحافظ في الفتح: ((زهرة الدنيا) والمراد بالزهرة الزينة والبهجة، والزهرة مأخوذة من زهرة الشجر وهو نورها بفتح النون، والمراد ما فيها من أنواع المتاع والعين والثياب والزروع وغيرها مما يفتخر الناس بحسنه مع قلة البقاء.. .

قوله (لا يأتي الخير إلا بالخير) وفي رواية " إنه لا يأتي الخير بالشر " ويؤخذ منه أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير، إنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع، وأن كل شيء قضى الله أن يكون خيرا فلا يكون شرا وبالعكس، ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب له الشر.

قوله (إن هذا المال) معناه أن صورة الدنيا حسنة مونقة، والعرب تسمى كل شيء مشرق ناضر أخضر.

والمعنى أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه بأن تجتر فيزداد نعومة، ثم تستقبل الشمس فتحمي بها فيسهل خروجه؛ فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت، وهذا بخلاف من لم تتمكن من ذلك فإن الانتفاخ يقتلها سريعا، قال الأزهري: هذا الحديث إذا فرق لم يكد يظهر معناه، وفيه مثلان أحدهما للمفرط في جميع الدنيا المانع من إخراجها في وجهها وهو ما تقدم أي الذي يقتل حبطا.

والثاني المقتصد في جمعها وفي الانتفاع بها وهو آكلة الخضر فإن الخضر ليس من أحرار البقول التي ينبتها الربيع ولكنها الحبة والحبة ما فوق البقل ودون الشجر التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول، فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلا لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها ولا منعها من مستحقها، فهو ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر، وأكثر ما تحبط الماشية إذا انحبس رجيعها في بطنها.

وقال الطيبي: يؤخذ منه أربعة أصناف: فمن أكل منه أكل مستلذ مفرط منهمك حتى تنتفخ أضلاعه ولا يقلع فيسرع إليه الهلاك، ومن أكل كذلك لكنه أخذ في الاحتيال لدفع الداء بعد أن استحكم فغلبه فأهلكه، ومن أكل كذلك لكنه بادر إلى إزالة ما يضره ويحيل في دفعه حتى انهضم فيسلم، ومن أكل غير مفرط ولا منهمك وإنما اقتصر على ما يسد جوعته ويمسك رمقه، فالأول مثال الكافر والثاني مثال العاصي الغافل عن الإقلاع والتوبة إلا عند فوتها والثالث مثال للمخلط المبادر للتوبة حيث تكون مقبولة والرابع مثال الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، وبعضها لم يصرح به في الحديث وأخذه منه محتمل، وقوله "فنعم المعونة " كالتذييل للكلام المتقدم، وفيه حذف تقديره إن عمل فيه بالحق.

وفيه إشارة إلى عكسه، وهو بئس الرفيق هو لمن عمل فيه بغير الحق، وقوله "كالذي يأكل ولا يشبع " ذكر في مقابلة " فنعم المعونة هو " وقوله " ويكون شهيدا عليه " أي حجة يشهد عليه بحرصه وإسرافه وإنفاقه فيما لا يرضى الله.

وقال الزين بن المنير: في هذا الحديث وجوه من التشبيهات بديعة: أولها تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره، ثانيها تشبيه المنهمك في الاكتساب والأسباب بالبهائم المنهمكة في الأعشاب، وثالثها تشبيه الاستكثار منه والادخار له بالشره في الأكل والامتلاء منه، ورابعها تشبيه الخارج من المال مع عظمته في النفوس حتى أدى إلى المبالغة في البخل به بما تطرحه البهيمة من السلح ففيه إشارة بديعة إلى استقذاره شرعاً، وخامسها تشبيه المتقاعد عن جمعه وضمه بالشاة إذا استراحت وحطت جانبها مستقبلة عين الشمس فإنها من أحسن حالاتها سكونا وسكينة وفيه إشارة إلى إدراكها لمصالحها، وسادسها تشبيه موت الجامع المانع بموت البهيمة الغافلة عن دفع ما يضرها، وسابعها تشبيه المال بالصاحب الذي لا يؤمن أن ينقلب عدوا، فإن المال من

شأنه أن يحرز ويشد وثاقه حباً له وذلك يقتضي منعه من مستحقه فيكون سببا لعقاب مقتنيه، وثامنها تشبيه آخذه بغير حق بالذي يأكل ولا يشبع.

وقال الغزالي: مثل المال مثل الحية التي فيها ترياق نافع وسم ناقع، فإن أصابها العارف الذي يحترز عن شرها ويعرف استخراج ترياقها كان نعمة، وإن أصابها الغبي فقد لقي البلاء المهلك.

وفي الحديث تسمية المال خيرا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾.

والعجب أن النووي قال: فيه حجة لمن رجح الغني على الفقير، وكان قبل ذلك شرح قوله " لا يأتي الخير إلا بالخير " على أن المراد أن الخير الحقيقي لا يأتي إلا بالخير، لكن هذه الزهرة ليست خيرا حقيقيا لما فيها من الفتنة والمنافسة والاشتغال عن كمال الإقبال على الآخرة.

قلت: فعلى هذا يكون حجة لمن يفضل الفقر على الغنى والتحقيق أن لا حجة فيه لأحد القولين.

وفيه الحض على إعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل. وفيه أن المكتسب للمال من غير حله لا يبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع. وفيه ذم الإسراف وكثرة الأكل والنهم فيه، وأن اكتساب المال من غير حله وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لمحقه فيصير غير مبارك، كما قال تعالى: ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾.

فتنة عبادة الله تعالى على حرف

وفيها ثلاثة مواضع في كتاب الله تعالى:

الموضع الأول:

قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]

تتحدث سورة الحج عن مظاهر يوم القيامة، وعن مراحل خلق الإنسان، وعن أصناف الناس، وتبين السورة أن الناس أقسام مختلفون في صفاتهم وطباعهم وعقائدهم، وفي كل ما يتعلق بألوان الحياة، وأن الناس سيتعرضون لأشكال مختلفة من الفتن، ليميز الله الخبيث من الطيب، وهذه الأقسام هي:

القسم الأول: هم من يجادل في وحدانية الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، فيقلد غيره، ويستمع لكل كلمة من غير أن يحللها ويفهم ما وراءها، وهم المقلدون الجاهلون.

القسم الثاني: هو الذي يجادل في وحدانية الله تعالى بلا علم ولا عقل يهديه ولا نقل من كتاب منير، بل هو ضلالي ويضل غيره، ثاني عطفه مغرور متكبر، وهذا له في الدنيا خزي، وفي الآخرة العذاب المحرق بما قدمت يداه.

القسم الثالث: من يعبد الله على طرف، إن جاءه الخير حمد وشكر، وإن أصابه الشر ارتد وترك الاسلام. فما هو الرابط بين هذه الأقسام الثلاثة؟

لننظر في أسباب النزول:

- **أسباب النزول**:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونُتِجت خيله، قال هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنتج خيله قال هذا دين سوء)[١].

٢- عن ابن عباس قال: (الفتنة البلاء، كان أحدهم إذا قدم المدينة وهي أرض وبيئة، فإن صح بها جسمه، ونتجت فرسه مهرا حسنا، وولدت امرأته غلاما رضي به واطمأن إليه وقال: ما أصبت منذ كنت على ديني هذا إلا خيرا، وإن أصابه وجع المدينة، وولدت امرأته جارية وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شرا، وذلك الفتنة)[٢].

٣- وفي رواية الحسن: أنها نزلت في المنافقين؛ يعني المنافقين من الذين كانوا مشركين مثل: عبد الله بن أبي ابن سلول. وهذا بعيد؛ لأن أولئك كانوا مبطنين الكفر فلا ينطبق عليهم قوله فإن أصابه خير اطمأن به . وممن يصلح مثالا لهذا الفريق العرنيون الذين أسلموا وهاجروا فاجتووا المدينة. فأمرهم النبي ﷺ بأن يلحقوا براعي إبل الصدقة خارج المدينة فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا فلما صحوا قتلوا الراعي واستاقوا الذود وفروا. فألحق بهم النبي ﷺ الطلب في أثرهم حتى لحقوا بهم فأمر بهم فقتلوا. وفي حديث الموطأ: أن أعرابيا أسلم وبايع النبي ﷺ فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبي ﷺ يستقيله بيعته فأبى أن يقيله، فخرج من المدينة فقال النبي ﷺ:

---

[١] رواه البخاري.
[٢] الطبري في تفسيره.

(**المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها**) فجعله خبثاً لأنه لم يكن مؤمناً ثابتاً. وذكر الفخر عن مقاتل أن نفراً من أسد وغطفان قالوا: نخاف ألا ينصر الله محمداً فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا فنزل فيهم قوله تعالى من كان يظن أن لن ينصره الله الآيات.

وعن الضحاك: أن الآية نزلت في المؤلفة قلوبهم، منهم: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس، قالوا: ندخل في دين محمد فإن أصبنا خيرا عرفنا أنه حق. وإن أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل.[١]

٤- قال أبو سعيد الخدري: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فقال: يا رسول الله أقلني فإني لم أصب من ديني هذا خيرا، ذهب بصري وولدي ومالي، فقال ﷺ: إن الإسلام لا يقال، إن الإسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية.[٢]

- **التفسير**:

(ومن الناس من يعبد الله على حرف): أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ مهاجرين من باديته، فإن نالوا رخاء من عيش بعد الهجرة والدخول في الإسلام أقاموا على الإسلام، وإلا ارتدوا على أعقابهم.[٣]

(على حرف): على طرف، وليس في وسط الإسلام وقلبه. وقال مجاهد: على شك.

وقال القرطبي: وحقيقته أنه على ضعف في عبادته كضعف القائم على حرف مضطرب فيه. وحرف كل شيء طرفه، وشفيره، وحده؛ ومنه حرف الجبل، وهو أعلاه المحدد.

[١] ابن عاشور في التحرير والتنوير.
[٢] الفخر الرازي في التفسير الكبير.
[٣] تفسير الطبري.

وقيل: على حرف أي على وجه واحد، وهو أن يعبده على السراء دون الضراء؛ ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف. وقيل: على حرف على شرط؛ وذلك أن شيبة بن ربيعة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يظهر أمره: ادع لي ربك أن يرزقني مالا، وإبلا وخيلا، وولدا حتى أومن بك وأعدل إلى دينك؛ فدعا له فرزقه الله عز وجل ما تمنى؛ ثم أراد الله عز وجل فتنته واختباره وهو أعلم به، فأخذ منه ما كان رزقه بعد أن أسلم فارتد عن الإسلام، فأنزل الله تبارك وتعالى فيه: ومن الناس من يعبد الله على حرف يريد شرط. وقال الحسن: هو المنافق يعبد الله بلسانه دون قلبه.

وقال ابن عاشور: (تمثيل لحال المتردد في عمله، يريد تجربة عاقبته بحال من يمشي على حرف جبل أو حرف واد فهو متهيئ لأن يزل عنه إلى أسفله فينقلب، أي ينكب).

(فإن أصابه خير اطمأن به): وهو السعة من العيش وما يشبهه من أسباب الدنيا اطمأن به يقول: استقر بالإسلام وثبت عليه.

(وإن أصابته فتنة): وهو الضيق بالعيش وما يشبهه من أسباب الدنيا. وقال ابن عاشور: (والفتنة: اضطراب الحال وقلق البال من حدوث شر لا مدفع له. وهي مقابل الخير).

(انقلب على وجهه): ارتد فانقلب على وجهه الذي كان عليه من الكفر بالله.

(خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين): قرأ مجاهد، وحميد بن قيس والأعرج والزهري وابن أبي إسحاق - وروي عن يعقوب - (خاسر الدنيا) بألف نصباً على الحال، وعليه فلا يوقف على (وجهه). وخسرانه الدنيا بأن لا حظ في غنيمة، ولا ثناء، والآخرة بأن لا ثواب له فيها.

الموضع الثاني:

قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠]

أسباب النزول:

عن الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب الله.

وقال ابن زيد: هو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر، وجعل فتنة الناس كعذاب الله. وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أهل الإيمان كانوا بمكة، فخرجوا مهاجرين، فأدركوا وأخذوا فأعطوا المشركين – لما نالهم أذاهم – ما أرادوا منهم.

وعن ابن عباس قال: (كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بإسلامهم، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت **﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم﴾** إلى آخر الآية. قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لا عذر لهم، فخرجوا. فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾** إلى آخر الآية. فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم **﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن**

ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا، فأدركهم المشركون، فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقتل من قتل)[1].

- **التفسير**:

(ومن الناس): أي بعضهم.

(من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله): أي لأجله عز وجل على أن في للسببية، أو المراد: في سبيل الله تعالى بأن عذبهم المشركون على الإيمان به تعالى.

(جعل فتنة الناس كعذاب الله): أي نزلوا ما يصيبهم من أذيتهم منزلة عذابه تعالى في الآخرة فجزعوا من ذلك ولم يصبروا عليه وأطاعوا الناس وكفروا بالله تعالى كما يطيع الله تعالى من يخاف عذابه سبحانه فيؤمن به عز وجل.

(ولئن جاء نصر من ربك): بأن حصل للمؤمنين فتح وغنيمة.

(ليقولن إنا كنا معكم): أي مشايعين لكم في الدين فأشركونا فيما حصل من الغنيمة، وقيل: أي مقاتلين معكم ناصرين لكم فالمراد الصحبة في القتال. ورد بأنها غير واقعة، والآية نزلت في ناس من ضعاف المسلمين كانوا إذا مسهم أذى من الكفار وافقوهم وكانوا يكتمونه من المسلمين وبذلك يكونون منافقين، ولذا قال ابن زيد والسدي: إن الآية في المنافقين فرد الله تعالى عليهم ذلك بقوله سبحانه:

(أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين): وهو في الظاهر عطف على مقدر أي أيخفى حالهم وليس إلخ أو أليس المتفرسون الذين ينظرون بنور الله تعالى بأحوالهم عالمين وليس إلخ، و (أعلم) إما على أصله أي أليس هو عز وجل أعلم من العالمين بما في

---

[1] تفسير الطبري.

صدور العالمين من الأخلاق والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والإخفاء عن المسلمين وادعاء كونهم منهم لنيل الغنيمة أو هو بمعنى عالم.[1]

- **التفسير الإجمالي**:

قال الزمخشري: (هم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفا لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله صارفا. وإذا نصر الله المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: إنا كنا معكم أي مشايعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، ما قدر أحد أن يفتننا، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر سبحانه أنه أعلم بما في صدور العالمين من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما تكن صدور هؤلاء من النفاق، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه، ثم وعد المؤمنين وأوعد المنافقين).

[1] تفسير الألوسي.

الموضع الثالث:

قال تعالى:

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون (٤٩) قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِين﴾ [الزمر:٥٠-٥١]

- **التفسير**:

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه في حال الضراء يضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: (إنما أوتيته على علم) : لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله تعالى خصيص لما خولني هذا!

(على علم عندي): قال قتادة: على خير عندي.

(بل هي فتنة): ليس الأمر كما زعموا، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهي فتنة أي: اختبار.

(ولكن أكثرهم لا يعلمون): فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون.[1]

قال ابن عاشور: (.. المراد بالإنسان كل مشرك، فالتعريف تعريف الجنس، والمراد جماعة من الناس وهم أهل الشرك فهو للاستغراق العرفي. والمخالفة بين الآيتين تفنن ولئلا تخلو إعادة الآية من فائدة زائدة كما هو عادة القرآن في القصص المكررة).

[1] تفسير ابن كثير.

- **فتنة العبادة على حرف بين الماضي والحاضر**:

المؤمن الحق، هو من يخشى على نفسه النفاق، ويسأل الله الثبات، والمؤمن من يتلقى الابتلاءات من الله تعالى بوعي وثبات، والمؤمن من يحسن الظن بالله تعالى.

فالمؤمن لا يشترط على خالقه، أنه إذا آمن به فانه يستحق الخير والعطاء الدائم، لأن الإنسان لا يعرف الخير إلا كما يلمسه ماديا بيديه، فلربما كان المنع خيرا، ولربما كان الابتلاء خيرا، **(عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم)**.

هيا بنا أخي القارئ نتأمل في طبائع الإنسان وفطرته التي جبل عليها:

فالإنسان يميل بطبعه إلى الأسهل والأضمن، كما يميل إلى الرخاء والترف والسعة، حيث يجد في كل ذلك تحقيق السعادة له في الدنيا.

كما يميل الإنسان بطبعه إلى كراهية المشقة، والجهاد، والقتال، والجوع، والفقر، والمرض، والحزن.

وكذلك من صفات الإنسان أنه يميل إلى الجزع والتخوف والترقب والعجلة والتحوط والنسيان والاتكال.

ومن مكنونات الإنسان أيضا الطمع والأنانية والطموح والمباهاة والرياء والفخر والكبر والخيلاء.

فإن ترك الإنسان بهذه الغرائز والصفات والطبائع والميل، فمن يربيه؟ وكيف يربيه؟ ومتى؟

أليس من مصلحته – وهو المائل إلى ما سبق – أن تتولى قدرة أعلى من قدرته، بعلم أكبر من علمه، ورحمة قد لا يتجاسر عليها، ورادع لا يتفطن إليه، أن تتولى تربيته وتنقيته!؟ فإذا كان الله تعالى لا يكلم الناس عياناً كما يكلم الناس بعضهم بعضاً.

فإن تولى هذه التربية الإنسان للإنسان، فبماذا اختلف هذا الإنسان عن غيره من أبناء نوعه؟ حتى يستطيع تولي هذه التربية؟

إذاً؛ لابد لهذا الإنسان المربي أن يتصف بما لا يتصف به البشر، وليس هذا إلا للأنبياء والرسل فقط، بما يتفضل الله عليهم من اصطفاء ومعجزات وعلم وسعة صدر وحلم.

- **حول الآيات الثلاث السابقة**:

لو تدبرنا الآيات الكريمة السابقة للاحظنا التالي:

في الآية الأولى: يخبرنا الله عز وجل أن من الناس من {يعبد الله} ولكن عبادته على شرط أو طرف.

وفي الثانية: يخبرنا عز وجل أن من الناس من يقول {آمنا بالله} ولكنه ساوى بين عذاب الله وعذاب الناس.

وفي الثالثة: يخبرنا عز وجل أن الإنسان إذا أصابه ضر لجأ إلى الله وإذا أصابه خير ادعى أن هذا الخير اكتسبه بعلمه الشخصي ولم ينسبه لله تعالى.

السؤال هنا: فأي عبادة هذه؟ وأي إيمان هذا؟ وأي دعوة بالعلم تلك؟!

ما هي العبادة؟ العبادة هي أقصى غايات التذلل والخضوع والتسليم لله تعالى.

فهل يتوافق هذا التعريف مع من يدعي عبادة الله ولكنه ينقلب عند أول فتنة، أو يساوي بين عذاب الناس وعذاب الله، أو لا يتعرف على المنعم إلا في الأزمات والمشاكل؟!

أليس هذا النوع من العبادة هو مما ابتلي به الكثير من المسلمين، مع حسن ظننا بالمسلمين؟! فماذا نسمي هذا النوع من العبادة، هذا إن جاز لنا تسميتها بالعبادة أصلا، لأنها تفتقر إلى شرط التذلل والخضوع والتسليم ومطلق الإيمان؟ هل نسميها: عبادة المصلحة، أو عبادة الأزمات، أو عبادة الشرط، أو عبادة الرغبات والشهوات، أو عبادة المصائب، أو العبادة المؤقتة؟!

سأدع الإجابة لكل قارئ، بل سأضيف إليها سؤالا آخر وهو: هل هذا الذي يعبد الله على هذه الصور هو ضحية الجهل أم مذنب عاصي؟

لا شك أبدا أنه مذنب عاصي، بل ويخشى على من لم يتب ويرجع عن غيه الكفر، بدليل الآيات السابقة:

﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ – ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ – ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين﴾.

فأي تهديد ووعيد وخسران بعد هذا؟ وأي صفة هي ملتصقة بهم وهي صفة النفاق؟

ذلك لأن من يتصف بهذه الصفات هو كمن يريد أن يختبر ربه، والعياذ بالله تعالى، وذلك كمن يتعلق بالنعمة لا بالمنعم؟ وبالسبب لا بخالق الأسباب، وذلك كمن اتخذ من (الأنا) الإبليسية، و(لي) الفرعونية، وال(عندي) القارونية.

إن من يعبد الله تعالى على حرف، كمن يجلس على طرف جرف هار، فهو مهدد بالسقوط في أي لحظة، إن لم تتداركه عناية الله تعالى ورحمته.

إن عبادة الله تعالى في كل الحالات، في الشدة والفرج، والفقر والغنى، واليسر والعسر، والصحة والمرض، وفي غيرها، هو التسليم بقضاء الله وقدره، هو التسليم لحكمة عالم الغيب والشهادة، فمن فقد الله ماذا وجد؟ ومن وجد الله ماذا فقد؟!

إن الجزع عند المصيبة أو الأزمة أو الفتنة لا يحل المشكلة، بل يوقع صاحبها في مشكلتين: الأولى هي ما أصابه، والثانية أنه سقط في فتنة سوء التسليم لله تعالى.

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ البقرة: ١٥٢.

وفي الحديث: إن الله تعالى يقول: "ابن آدم اذكرني في الرخاء أذكرك في الشدة". ذكره ابن عطية في التفسير.

وقال ﷺ: (**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**)[١].

وفي رواية غير الترمذي: (**احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا**).

[١] رواه أحمد، والترمذي وقال: حسن صحيح.

فتنة مخالفة النبي ﷺ

قال تعالى:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ [النور:٦٣]

- **التفسير**:

(فليحذر الذين يخالفون عن أمره): يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته، و(عن) لتضمنه معنى الإعراض أو يصدون عن أمره دون المؤمنين من خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذف المفعول لأن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة أو للرسول فإنه المقصود بالذكر.

(أن تصيبهم): محنة في الدنيا.

(أو يصيبهم عذاب أليم): في الآخرة، واستدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمر مقتض لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب.[١]

وقال صاحب الكشاف: (ومعنى **(الذين يخالفون عن أمره)** الذين يصدون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه. الضمير في أمره لله سبحانه أو للرسول ﷺ. والمعنى: عن طاعته ودينه، (فتنة): محنة في الدنيا أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: فتنة قتل. وعن عطاء: زلازل وأهوال. وعن جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر).

---

[١] تفسير البيضاوي.

وزاد القرطبي: (وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول ﷺ).

وقال القرطبي: (بهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب. ووجهها أن الله تبارك وتعالى قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: **﴿أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾** فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره).

فتنة مخالفة أمر النبي ﷺ بين الماضي والحاضر:

تفتخر الأمم بعظمائها، ويعملون على تلميعهم وجعلهم قدوة لشعوبهم، على ما فيهم من نقص بشري، وسيرة غير متكاملة.

ولكن الأمة الوحيدة التي لا ينطبق على حالها هذا المقال هي أمة الإسلام، وما من عظيم من عظماء الأمم إلا وهو دون سيد البشر محمد ﷺ، فأجمل منه لم يأت في الوجود، وأكمل منه لم يولد مولود، خلق مبرئاً من كل عيب في الدنيا، فهو السبيل إلى رضا الرب المعبود، وهو السبيل إلى جنات الخلود، فبأي عظيم بعده يفخرون، وبأي قدوة بعده يأخذون، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿وما أتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ هكذا أمر الخالق جل في علاه، وقال سبحانه: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾**، في أقواله وأفعاله وأحواله، ومنهجه.

فعاقبة مخالفة النبي ﷺ هي الوقوع في الفتن، لأنه ﷺ هو ميزان الأعمال والأقوال، فمن خالفها كسلاً وتهاوناً سقط قلبه في أوحال الفتن والمنكرات، ومن خالفها اعتراضاً وإنكاراً سقط في مستنقع الكفر والنفاق، وكان من الخائبين الخاسرين، وإن ملك الدنيا بحذافيرها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فمن أوامره ﷺ التي خالفتها أكثر المجتمعات الإسلامية للأسف، فأوقعها في إحدى الفتن كنتيجة لتلك المخالفة، قوله ﷺ: (**من أتاكم ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**).

وقد أبى بعض الناس إلا تزويج صاحب المال أو المنصب والجاه، فكانت النتيجة أن ازداد عدد الشباب الأعزب، وكثر عدد الفتيات في العنوسة، فوقع الخطب الذي حذر منه ﷺ.

وفي الموضوع نفسه، فإن الهدي النبوي كان في عدم الغلو في المهور، ثم جاءت المخالفة في أغلب المجتمعات برفع المهور، فوقع المحظور.

وجاء الأمر بالظفر بذات الدين كزوجة وشريكة في بناء الأسرة، فوقعت المخالفة عند الكثير من الشباب في البحث عن ذات المال والجمال بغض النظر عن الخلق، فوقع الخلل. وكان نتيجة مخالفة جميع تلك الأوامر النبوية، انتشار الفتن.

حكمة:

(كل من تتخذه قدوة لك فهو فتنة لك، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو جناح النجاة ومعراج الارتقاء).

الفصل الثاني

الفتن الخاصة

(المادية الحسية والغيبية والمعنوية)

وفيه:

١- فتنة التخرص.

٢- فتنة السحر.

٣- فتنة الشيطان.

٤- فتنة الأموال والأولاد.

فتنة الخرّاصين

قال تعالى:

﴿وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات:٧-١٤]

- **التفسير**:

(والسماء ذات الحبك): أقسم الله تعالى بالسماء ذات الحبك. (قيل المراد بالسماء هاهنا السحب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ابن عمر: هي السماء السابعة. وقيل: ذات الخلق الحسن المستوي وقيل: ذات الزينة، وقيل: ذات النجوم، وقيل: ذات الطرائق، وقيل: ذات الشدة، وقيل: ذات الصفاقة، ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بين الصفاقة، وقيل: أن المراد بالطرق المجرة التي في السماء، سميت بذلك لأنها كأثر المجر).[١]

(إنكم لفي قول مختلف): هذا جواب القسم الذي هو "والسماء" أي إنكم يا أهل مكة في قول مختلف في محمد والقرآن فمن مصدق ومكذب. وقيل: نزلت في المقتسمين. وقيل: اختلافهم قولهم: "ساحر، بل شاعر، بل افتراه، بل هو مجنون، بل هو كاهن، بل هو أساطير الأولين". وقيل: اختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه. وقيل: المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره.

[١] تفسير القرطبي، بعد حذف أصحاب الأقوال والاختصار، فمن أراد التوسع فليرجع إلى تفسيره.

(يؤفك عنه من أفك): يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صرف. عن الحسن وغيره. وقيل: المعنى يصرف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأولين. وقيل: المعنى يصرف عن ذلك الاختلاف من عصمه الله. أفكه يأفكه أفكا أي قلبه وصرفه عن الشيء.

(قتل الخراصون): لعن الكذابون. وقال ابن عباس: أي قتل المرتابون، يعني الكهنة. وقال الحسن: هم الذين يقولون لسنا نبعث. ومعنى قتل أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وقال الفراء: معنى قتل لعن، قال: و"الخراصون" الكذابون الذين يتخرصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمدا مجنون كذاب ساحر شاعر، وهذا دعاء عليهم لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال ابن الأنباري: علمنا الدعاء عليهم، أي قولوا: قتل الخراصون وهو جمع خارص والخرص الكذب والخراص الكذاب، ويدخل في الخرص قول المنجمين وكل من يدعي الحدس والتخمين. وقال ابن عباس: (هم المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة، واقتسموا القول في نبي الله صلى الله عليه وسلم ليصرفوا الناس عن الإيمان به).[1]

(الذين هم في غمرة): في جهل يغمرهم. ساهون غافلون عما أمروا به.[2]

(يسألون أيان يوم الدين): أي فيقولون متى يوم الجزاء أي وقوعه.

(يوم هم على النار يفتنون): يحرقون، وهو من باب المشاكلة في اللغة، فهو جواب للسؤال أي يقع يوم هم على النار يفتنون.

---

[1] تفسير القرطبي.
[2] تفسير البيضاوي.

(ذوقوا فتنتكم): نكالا لهم وردا على تهكمهم، أي ذوقوا جزاء فتنتكم التي كنتم تمشون بها في الدنيا لصرف الناس عن دينهم، بتعذيبهم وتهجيرهم والاستهزاء بهم. وهو من باب إطلاق اسم الشيء على جزائه، وهو وارد في القرآن كثيرا كقوله تعالى: **(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)** أي تجعلون جزاء رزق الله إياكم أنكم تكذبون وحدانيته.

قال ابن عاشور: (وجملة: **"يوم هم على النار يفتنون"**: جواب لسؤالهم جرى على الأسلوب الحكيم من تلقي السائل بغير ما يتطلب إذ هم حين قالوا: أيان يوم الدين، أرادوا التهكم والإحالة فتلقي كلامهم بغير مرادهم لأن في الجواب ما يشفي وقع تهكمهم على طريقة قوله تعالى: **(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)**).

(كنتم به تستعجلون) كنتم تطلبون تعجيله فالسين والتاء للطلب، أي كنتم في الدنيا تسألون تعجيله وهو طلب يريدون به أن ذلك محال غير واقع. والجملة استئناف في مقام التوبيخ وتعديد المجارم، كما يقال للمجرم: فعلت كذا، وهي من مقول القول.

التفسير الاجمالي:

هو خطاب للمشركين المكذبين بنبوة سيدنا محمد ﷺ، مبينا حالهم بأنهم مضطربون مختلفون في أكاذيبهم التي أطلقوها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قالوا كذبا وزورا وافتراء بأنه شاعر، ثم افتروا وقالوا ساحر، وافتروا فقالوا مجنون، وافتروا فقالوا بأنه اختلق ما يقوله من أساطير الأولين. وحاشاه من كل ذلك صلى الله عليه وسلم تسليما، بل هو الصادق الأمين والهادي البشير والسراج المنير.

وكانت غايتهم من هذا التخرص والكذب صد المسلمين عن هذه الدعوة المباركة، وعن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، متخذين جميع الوسائل المتاحة وقتها،

من تكذيب واستهزاء وتعذيب وتهجير وقتال، لوأد هذه الدعوة الكريمة، فاستحقوا يوم القيامة العذاب في نار جهنم فيقال لهم تهكما كما كانوا يتهكمون: ذوقوا جزاء فتنكم.

- **فتنة التخرّص بين الماضي والحاضر**:

ومع تغير وسائل الاتصال والتواصل والإعلام بين الأمس واليوم، تغيرت أساليب الخراصين المكذبين، إلا أن أصل دعوتهم وغاية هدفهم لايزال هو نفسه، في صد المسلمين عن دينهم.

بئس السلف سلفهم وبئس الخلف هم، يجددون الشبهات ويزينون الافتراءات، ويكثرون المحاولات، نسمعهم إلى اليوم عبر وسائل الإعلام الكثيرة، وعلى منابرهم المشؤومة، يختلقون الشبهات ويتخرصون الادعاءات، لا يستثنون ثوابت ولا رموزاً ولا مقدسات، إلا وقاموا بمحاولات خبيثة للنيل منها.

فبعد أن تهجموا على الأئمة الأكابر كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم، وغيرهم من علماء الأمة، رحمهم الله رحمة واسعة، زادت جرأتهم وأخذوا ينالون من نبي الله صلى الله عليه وسلم، ومن كتاب الله تعالى، ومن بيت الله الحرام. لم يتنبه هؤلاء إلى تحذير الله تعالى ووعيده لهم ولأمثالهم، بأنهم ستصيبهم فتن تدعهم يتخبطون في الحياة الدنيا، مع مالهم في الآخرة من عذاب أليم.

فتنة السحر

قال تعالى:

﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

أسباب النزول:

قال القرطبي: (قال ابن إسحاق: لما ذكر النبي ﷺ سليمان ﷺ في الأنبياء، قال اليهود: إن محمداً يزعم أن سليمان نبي وما هو بنبي، ولكنه ساحر. فنزلت هذه الآية).

- التفسير:

(واتبعوا ما تتلوا الشياطين): عطف على نبذ، أي نبذوا كتاب الله واتبعوا كتب السحر التي تقرؤها، أو تتبعها الشياطين من الجن، أو الإنس، أو منهما.

(على ملك سليمان): أي عهده، وتتلو حكاية حال ماضية، قيل: كانوا يسترقون السمع ويضمون إلى ما سمعوا أكاذيب، ويلقونها إلى الكهنة وهم يدونونها ويعلمون الناس، وفشا ذلك في عهد سليمان عليه السلام حتى قيل: إن الجن يعلمون الغيب، وأن ملك سليمان تم بهذا العلم، وأنه تسخر به الجن والإنس والريح له.

(وما كفر سليمان): تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيا كان معصوما منه.

(ولكن الشياطين كفروا): باستعماله، (قال ابن عاشور: و"الشياطين" يحتمل أن يكونوا شياطين من الجن وهو الإطلاق المشهور. ويحتمل أن يراد به ناس تمردوا وكفروا وأتوا بالفظائع الخفية فأطلق عليهم الشياطين على وجه التشبيه كما في قوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن وقرينة ذلك قوله "يعلمون الناس السحر" فإنه ظاهر في أنهم يدرسونه للناس وكذلك قوله بعده: (ولكن الشياطين كفروا) إذ هذا الاستدراك في الإخبار يدل على أنهم من الإنس لأن كفر الشياطين من الجن أمر مقرر لا يحتاج للإخبار عنه. وعن ابن إسحاق أيضا أنه لما مات سليمان عليه السلام عمدت الشياطين فكتبوا أصنافا من السحر وقالوا: من أحب أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا لأصناف من السحر وختموه بخاتم يشبه نقش خاتم سليمان ونسبوه إليه ودفنوه وزعموا أن سليمان دفنه وأنهم يعلمون مدفنه ودلوا الناس على ذلك الموضع فأخرجوه، فقالت اليهود: ما كان سليمان إلا ساحرا وما تم له الملك إلا بهذا. وقيل كان آصف بن برخيا كاتب سليمان يكتب الحكمة بأمر سليمان ويدفن كتبه تحت كرسي سليمان لتجدها الأجيال فلما مات سليمان أغرت الشياطين الناس على إخراج تلك الكتب وزادوا في خلال سطورها سحرا وكفرا ونسبوا الجميع لسليمان فقالت اليهود: كفر سليمان).[١]

(يعلمون الناس السحر): إغواءً وإضلالاً، والجملة حال من الضمير، والمراد بالسحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس. فإن التناسب شرط في التضامن والتعاون، وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي، وأما ما يتعجب منه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات والأدوية أو يريه صاحب خفة اليد فغير مذموم، وتسميته سحراً عمل التجوز، أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفي سببه.

---

[١] التحرير والتنوير.

(وما أنزل على الملكين): عطف على السحر والمراد بهما واحد، والعطف لتغاير الاعتبار، أو المراد به نوع أقوى منه، أو على ما تتلو. وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس، وتمييزا بينه وبين المعجزة.

(وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر): فمعناه على الأول ما يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله، فمن تعلم منا وعمل به كفر، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به. وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور، وإنما المنع من اتباعه والعمل به. وعلى الثاني ما يعلمانه حتى يقولا إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا.

(ما يفرقون به بين المرء وزوجه): أي من السحر ما يكون سبب تفريقهما.

(وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله): لأنه وغيره من الأسباب غير مؤثرة بالذات، بل بأمره تعالى وجعله.

(ويتعلمون ما يضرهم): لأنهم يقصدون به العمل، أو لأن العلم يجر إلى العمل غالبا.

(ولا ينفعهم): إذ مجرد العلم به غير مقصود ولا نافع في الدارين. وفيه أن التحرز عنه أولى

(ولقد علموا): أي اليهود.

(لمن اشتراه): أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله تعالى، والأظهر أن اللام لام الابتداء علقت علموا عن العمل.

(ما له في الآخرة من خلاق): نصيب.

(لو كانوا يعلمون): يتفكرون فيه، أو يعلمون قبحه على التعيين أو حقيقة ما يتبعه من العذاب، والمثبت لهم أولا على التوكيد القسمي العقل الغريزي أو العلم الإجمالي بقبح الفعل، أو ترتب العقاب من غير تحقيق وقيل: معناه لو كانوا يعملون بعلمهم، فإن من لم يعمل بما علم فهو كمن لم يعلم.[1]

قال ابن عاشور: (والمراد من الآية مع سبب نزولها إن نزلت عن سبب أن سليمان عليه السلام لما مات انقسمت مملكة إسرائيل بعده بقليل إلى مملكتين إحداهما مملكة يهوذا وملكها رحبعام بن سليمان جعلوه ملكا بعد أبيه وكانت بنو إسرائيل قد سئمت ملك سليمان لحمله إياهم على ما يخالف هواهم فجاءت أعيانهم وفي مقدمتهم يربعام بن نباط مولى سليمان ليكلموا رحبعام قائلين إن أباك قاس علينا وأما أنت فخفف عنا من عبودية أبيك لنطيعك فأجابهم اذهبوا ثم ارجعوا إلي بعد ثلاثة أيام واستشار رحبعام أصحاب أبيه ووزراءه فأشاروا عليه بملاينة الأمة لتطيعه.

واستشار أصحابه من الفتيان فأشاروا عليه أن يقول للأمة إن خنصري أغلظ من متن أبي فإذا كان أبي قد أدبكم بالسياط فأنا أؤدبكم بالعقارب فلما رجع إليه شيوخ بني إسرائيل في اليوم الثالث وأجابهم بما أشار به الأحداث خلعت بنو إسرائيل طاعته وملكوا عليهم يربعام ولم يبق على طاعة رحبعام إلا سبطا يهوذا وبنيامين.

واعتصم رحبعام بأورشليم وكل أمته لا تزيد على مائة وثمانين ألف محارب يعني رجالا قادرين على حمل السلاح وانقسمت المملكة من يومئذ إلى مملكتين:

مملكة يهوذا وقاعدتها أورشليم. ومملكة إسرائيل ومقرها السامرة. وذلك سنة ٩٧٥ قبل المسيح كما قدمناه عند الكلام على قوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) الآية. ولا يخفى ما تكون عليه حالة أمة في هذا الانتقال فإن

[1] تفسير البيضاوي.

خصوم رحبعام لما سلبوا منه القوة المادية لم يغفلوا عما يعتضد به من القوة الأدبية وهي كونه ابن سليمان بن داود من بيت الملك والنبوءة والسمعة الحسنة فلم يأل أعداؤه جهدهم من إسقاط هاته القوة الأدبية وذلك بأن اجتمع مدبرو الأمر على أن يضعوا أكاذيب عن سليمان يبثونها في العامة ليقضوا بها وطرين:

أحدهما: نسبة سليمان إلى السحر والكفر لتنقيص سمعة ابنه رحبعام كما صنع دعاة الدولة العباسية فيما وضعوه من الأخبار عن بني أمية.

والثاني: تشجيع العامة الذين كانوا يستعظمون ملك سليمان وابنه على الخروج عن طاعة ابنه بأن سليمان ما تم له الملك إلا بتلك الأسحار والطلاسم وأنهم لما ظفروا بها فإنهم يستطيعون أن يؤسسوا ملكا يماثل ملك سليمان كما صنع دعاة انقلاب الدول في تاريخ الإسلام من وضع أحاديث انتظار المهدي وكما يفعلونه من بث أخبار عن الصالحين تؤذن بقرب زوال الدولة.

ولا يخفي ما تثيره هذه الأوهام في نفوس العامة من الجزم بنجاح السعي وجعلهم في مأمن من خيبة أعمالهم ولحاق التنكيل بهم فإذا قضي الوطر بذلك الخبر التصق أثره في الناس فيبقى ضر ضلاله بعد اجتناء ثماره.

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان في كتبهم فقد جاء في سفر الملوك الأول أن سليمان في زمن شيخوخته أمالت نساؤه المصريات والصيدونيات والعمونيات قلبه إلى آلهتهن مثل عشتروت إله الصيدونيين (ومولوك) إله العمونيين (الفينيقيين) وبنى لهاته الآلهة هياكل فغضب الله عليه لأن قلبه مال عن إله إسرائيل الذي أوصاه ألا يتبع آلهة أخرى.

والسحر من المعارف القديمة التي ظهرت في منبع المدينة الأولى أعني ببلاد المشرق فإنه ظهر في بلاد الكلدان والبابليين وفي مصرفي عصر واحد وذلك في القرن الأربعين قبل المسيح مما يدل على أنها كانت في تينك الأمتين من تعاليم قوم نشؤوا قبلهما فقد وجدت آثار مصرية سحرية في عصر العائلة الخامسة من الفراعنة والعائلة السادسة ٣٩٥١ - ٣٧٠٣ ق. م.

وللعرب في السحر خيال واسع وهو أنهم يزعمون أن السحر يقلب الأعيان ويقلب القلوب ويطوع المسحور للساحر ولذلك كانوا يقولون إن الغول ساحرة الجن ولذلك تتشكل للرائي بأشكال مختلفة. وقالت قريش لما رأوا معجزات رسول الله: إنه ساحر، قال الله تعالى: {وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} وقال الله تعالى: {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون}. وفي حديث البخاري عن عمران بن حصين أن القوم عطشوا في سفر مع رسول الله فطلبوا الماء فوجدوا امرأة على بعير لها مزداتان من ماء فأتيا بها رسول الله فسقى رسول الله جميع الجيش ثم رد إليها مزادتيها كاملتين فقالت لقومها : فوالله إنه لأسحر من بين هذه وهذه ، تعني السماء والأرض وفي الحديث إن من البيان لسحرا . ولم أر ما يدل على أن العرب كانوا يتعاطون السحر فإن السحر مستمد من خصائص الأمور الطبيعية والتركيب ولم يكن للعرب ضلاعة في الأمور اليدوية بل كانت ضلاعتهم فكرية محضة.

وكان العرب يزعمون أن أعلم الناس بالسحر اليهود والصابئة وهم أهل بابل، ومساق الآية يدل على شهرة هؤلاء بالسحر عند العرب.

وقد اعتقد المسلمون أن اليهود في يثرب سحروهم فلا يولد لهم فلذلك استبشروا لما ولد عبد الله بن الزبير وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة كما في

صحيح البخاري . ولذلك لم يكثر ذكر السحر بين العرب المسلمين إلا بعد أن هاجروا إلى المدينة إذ قد كان فيها اليهود وكانوا يوهمون بأنهم يسحرون الناس. ويداوي من السحر العراف ودواء السحر السلوة وهي خرزات معروفة تحك في الماء ويشرب ماؤها.

وورد في التوراة النهي عن السحر فهو معدود من خصال الشرك وقد وصفت التوراة به أهل الأصنام فقد جاء في سفر التثنية في الإصحاح ١٨ "إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يزج ابنه أو ابنته في النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب".

وفي سفر اللاويين الإصحاح ٢٠ : "والنفس التي تلتفت إلى الجان وإلى التوابع لتزني وراءهم أجعل وجهي ضد تلك النفس وأقطعها من شعبها، وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة فإنه يقتل بالحجارة يرجمونه دمه عليه".

وكانوا يجعلونه أصلا دينيا لمخاطبة أرواح الموتى وتسخير الشياطين وشفاء الأمراض وقد استفحل أمره في بلد الكلدان وخلطوه بعلوم النجوم وعلم الطب. وأرجع المصريون المعارف السحرية إلى جملة العلوم الرياضية التي أفاضها عليهم " طوط " الذي يزعمون أنه إدريس وهو هرمس عند اليونان.

حكمة:

(إن للفتن سحراً، لا يقاومه إلا كل رباني، فالسحر والفتنة وجهان لعملة واحدة).

- فتنة السحر بين الماضي والحاضر:

لقد كان السحر قديما يعتمد على أشياء محددة، كالكهانة التي تعتمد على التعامل مع الجن، من خلال ما يسترقونه من السمع، فيخبرون قرناءهم من الكهنة.

وكذلك كان السحر يعتمد على قلب الحقائق بسحر أعين الناس حتى يتخيلوا الوهم حقيقة.

قال ﷺ: (**العيافة والطرق والطيرة من الجبت**)[1].

والعيافة: زجر الطير وارسالها فالتشاؤم أو التفاؤل. والطرق: الخط على الأرض ويسمى: علم الرمل، ويدخل فيه قراءة خطوط الكف والأقدام والجباه بحسب الطول والعرض، الجبت: هو الشيطان أو الكاهن أو الساحر، أو كل ما يعبد من دون الله تعالى.

وقد اختلفت تعريفات السحر لاختلاف أنواعه، وإن كانت متشابهة في فحواها:

قال الإمام ابن العربي المالكي: السحر هو كلام مؤلف يعظم فيه غير الله تعالى، وتنسب إليه المقادير والكائنات.

وعرفه ابن خلدون بقوله: هو علم بكيفية استعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر، إما بغير معين، أو بمعين من الأمور السماوية.

وقال ابن قدامة: هو عزائم ورقى وعقد تؤثر في الأبدان والقلوب، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه.

---

[1] رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه النووي.

أما اليوم، فقد تغيرت ملامح السحر، وغدا له مدارسٌ ومذاهبٌ وأنواعٌ تفوق ما كان عليه قديماً، بل غيروا اسمه حتى يتوافق مع مظاهر العصر الحديث الزائفة، فأصبح يطلقون عليه: العلوم الفلكية والروحانية، فأصبح صناعة وحرفة وفناً من الفنون التي تجذب الملايين من المتابعين في العالم.

بل وقد أصبح منظماً وله هيئات وجمعيات واتحادات عالمية، كاتحاد المنجمين، والاتحاد العالمي للفلكيين الروحانيين في فرنسا، وغيرها.

فطُبعت له الكتب، وفتحت له الجامعات والمعاهد، وأصبح متعاطوه من نجوم المجتمع وكبار القوم، وأهل التخطيط والشورى، تُسبق أسماء بعضهم بحرف "د." أو لقب البروفسور، أو لقب عميد الفلكيين، أو المنجم وغيرها، ولهم منابرهم وفضائياتهم الخاصة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فكان قديما زبائن السحرة من الجهلة والعوام، وأصبح اليوم زبائنهم من الأثرياء والوجهاء والزعماء ورجال الاقتصاد والسياسة والفن والرياضة.

- **ساحر العصر الحديث**:

وإن كنا نتكلم عن السحر، فلا ينبغي أن ننسى نوعاً من أهم وأخطر أنواع السحر في العصر الحديث، ألا وهو سحر الإعلام، فإن كان يقال قديما: الناس على دين ملوكهم، فنستطيع القول اليوم: الناس على دين إعلامهم، ولا يجوز التعميم فنقول: إلا من رحم ربي، وقليل ما هم، من أهل الوعي والثقافة والحكمة والعلم.

فالإعلام هو سحر العصر الحديث، بل هو كبيرهم الذي يسعون إليه، فإن كان السحر قديماً هو التأثير على الأعين حتى يجعلها تتخيل الوهم حقيقة، فإن سحر الإعلام يؤثر على العقول، ويأسر القلوب، ويأخذ بألباب ذوي الحجا والتفكير، حتى

أصبح يغير المفاهيم ويقلب الحقائق ويرفع السفلة ويقدم الرويبضات، وغدا مالئ الدنيا وشاغل الناس، ومهيج المشاعر، ومثير الفتن والقلاقل، ومزلزل العروش والمناصب، يجمع بين الكلمة والصورة والحركة، فيقدم التاريخ والحاضر والمستقبل كما يرى الممسكون بتلابيبه من أصحاب الأموال والفضاء.

لقد غير الإعلام الكثير من الواقع، وزور التاريخ، وزرع في العقول صوراً للمستقبل، يوهم ضعاف النفوس، ويستحكم بضعاف الإيمان، ويحرك الدهماء.

ولا شك أن للإعلام صورا مشرقة، وفوائد عظيمة، وقدم خدمات جليلة في مجالات كثيرة، في خدمة الشريعة والطب والصناعة والاقتصاد والسياسة، ونشر الوعي والثقافة، وايجاد حلولٍ لكثير من المشاكل الاجتماعية والأسرية والفردية.

فهو سلاح ذو حدين، فيه منافع للناس، ولكن أصبح ضرره أكثر من نفعه عندما أمسك بأكثره وأشهره أهل الفساد والإفساد.

فتنة الشياطين

وفيها موضعان: الأولى- قال تعالى:

﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]

التفسير:

وفيه خمس مسائل:

١- خطاب تحذيري لبني آدم من فتن الشيطان.

٢- تذكير بأنه سبب اخراج آدم وحواء من الجنة.

٣- من غاياته نزع اللباس لتظهر السوءات.

٤- الشيطان وجنوده من نسله يروننا ولا نراهم.

٥- جعل الله الشياطين نصراء ومعينين للذين لا يؤمنون.

وقد ورد ذكر الشيطان في القرآن الكريم (٥٥) مرة، والشياطين (١٤) مرة، وشيطان (٤٠) مرة، كما ورد اسم ابليس (١١) مرة، منها: (٩) مرات عن قصة رفضه السجود لآدم، ومرة في قصة ابراهيم عليه الصلاة والسلام، ومرة في قصة سبأ. فيكون المجموع نحو (١١٠) مرات، في أكثر من مائتي آية، وما كل هذا العدد من الآيات في ذكر الشيطان، إلا لبيان حجم إضلاله وعدائه وإغوائه وإفتانه للناس.

المسألة الأولى والثانية والثالثة: وهي خطاب يشمل التذكير والتحذير، بالعداء القديم المتجدد مع هذا الذي بدأ بإفتان أبوي البشر وإخراجهما من الجنة، وهو مستمر معكم بالإغواء والإفتان والإضلال والخداع، هو وجنوده من نسله.

وقد جاء الخطاب ب﴿**يا بني آدم**﴾ في القرآن الكريم في خمسة مواضع، نجد بينها نسقاً تكاملياً لطيفاً ودقيقاً، أربعة منها في سورة الأعراف وواحدة في سورة يس، (وتكرار النداء في مقام التذكير والوعظ هو من سنن العربية)[1]، وهي على الشكل التالي:

الأولى: بعد أن ذكر قصة ابليس وتكبره عن السجود لآدم، ثم قصته مع آدم في الجنة، في خمسة عشر آية، بدأ خطابه الأول بالامتنان على خلقه بإنزاله اللباس الساتر للعورات واللباس التكميلي والتجميلي، مع تفضيله للباس التقوى والإيمان الذي فيه خشية الله تعالى وستر البدن كما أمر الله ورضي، فقال: ﴿**يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون**﴾، وحيث أن اللباس غير الشرعي هو أحد سبل الشيطان في الإغواء وهو من مقدمات الفتن، ذكر لباس التقوى لمن يعتبر ويتذكر من أهل التقوى والخشية.

الثانية: جاءت هذه الآية التي نحن بصددها: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان. .**﴾، فذكرنا بفتنة الشيطان الأولى واغوائه لآدم وزوجه، التي تسببت في نزع اللباس واظهار المستور. (رجع لموضوع اللباس).

قال ابن عاشور: (وجملة: ينزع عنهما لباسهما في موضع الحال المقارنة من الضمير المستتر في: أخرج أو من: أبويكم والمقصود من هذه الحال تفظيع هيئة الإخراج بكونها

[1] كما قال الشيخ المراغي في تفسيره.

حاصلة في حال انكشاف سوآتهما لأن انكشاف السوأة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف الناس. والتعبير عما مضى بالفعل المضارع لاستحضار الصورة العجيبة من تمكنه من أن يتركهما عريانين. ويجوز هنا أن يكون حقيقة وهو لباس جللهما الله به في تلك الجنة يحجب سوآتهما، كما روي أنه حجاب من نور، وروي أنه كقشر الأظفار وهي روايات غير صحيحة، والأظهر أن نزع اللباس تمثيل لحال التسبب في ظهور السوءة. وكرر التنويه باللباس تمكينا للتمهيد لقوله تعالى بعده: ﴿**خذوا زينتكم عند كل مسجد**﴾).[1]

الثالثة: جاء الخطاب ب ﴿**يا بني آدم**﴾ بالأمر باللباس عند كل مسجد، والنهي عن الإسراف باللباس والأكل والشرب، فالإسراف باللبس يكون بلباس الشهرة والتفاخر والتكبر، وهذا عند الرجال، أما عند النساء فيكون كما وصفه حديث: (**نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات**)، فكأن القرآن يحذر من أدوات الشيطان وحبائله في الملبس والمأكل والمشرب، من خلال حثه على الإسراف وتجاوز الحدود الشرعية فيها. فقال تعالى: ﴿**يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين**﴾.

الرابعة؛ يتكامل النسق القرآني في الخطاب الرابع ب ﴿**يا بني آدم**﴾ باتباع الرسل عليهم السلام، ولا شك أن مما جاء به الرسل يتضمن التحذير من فتن الشيطان وخطواته وحبائله، وأن في الحذر منه سبيل الصلاح في الدارين، فلا خوف عليه ولا هم يحزنون، فقال تعالى: ﴿**يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

[1] التحرير والتنوير.

الخامسة؛ جاء الخطاب الأخير ب ﴿**يا بني آدم**﴾ في سورة ياسين، ليتوج هذه النداءات الخمسة بنفس النسق والدقة، ليبين أن الشيطان عدو مبين، وأن طاعته إنما هي كعبادة له، وأن صراطه كثير المزالق والاعوجاج والإضلال، فهو يفسد الجبلة والفطرة السوية إن لم يحكم الإنسان عقله في الحذر منه واتخاذه عدواً، وفي اتباع صراط الله المستقيم، فقال تعالى: ﴿**ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم* ولقد أضل جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون**﴾ .

قال ابن عاشور: (وشبه الفتون الصادر من الشيطان للناس بفتنه آدم وزوجه إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه، فأخرجهما من نعيم كانا فيه، تذكيرا للبشر بأعظم فتنة فتن الشيطان بها نوعهم، وشملت كل أحد من النوع، إذ حرم من النعيم الذي كان يتحقق له لو بقي أبواه في الجنة وتناسلا فيها، وفي ذلك أيضا تذكير بأن عداوة البشر للشيطان موروثة، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده. وفي الآية إشارة إلى أن الشيطان يهتم بكشف سوأة ابن آدم لأنه يسره أن يراه في حالة سوء وفظاعة).

المسألة الرابعة:

(إنه يراكم هو وقبيله): قال القرطبي: قبيله جنوده. وقال مجاهد: يعني الجن والشياطين. ابن زيد: قبيله نسله. وقيل: خيله.

وقال ابن عاشور: (وذكر القبيل، وهو بمعنى القبيلة، للدلالة على أن له أنصارا ينصرونه على حين غفلة من الناس، وفي هذا المعنى تقريب حال عداوة الشياطين بما يعهده العرب من شدة أخذ العدو عدوه على غرة من المأخوذ، تقول العرب: أتاهم العدو وهم غارون).

(من حيث لا ترونهم): قال القرطبي: قال بعض العلماء: في هذا دليل على أن الجن لا يرون لقوله **(من حيث لا ترونهم)** قيل: جائز أن يروا، لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى. قال النحاس: **(من حيث لا ترونهم)** يدل على أن الجن لا يرون إلا في وقت نبي، ليكون ذلك دلالة على نبوته، لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم. وذلك من المعجزات التي لا تكون إلا في وقت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال القشيري: أجرى الله العادة بأن بني آدم لا يرون الشياطين اليوم. وفي الخبر: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . وقال تعالى: {**الذي يوسوس في صدور الناس**} . وقال ﷺ: (**إن للشيطان لمة بان آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشرّ وتكذيبٌ بالحق، وأمّا لمّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق**)[1].

وعن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، وذكر قصة طويلة، ذكر فيها أنه أخذ الجني الذي كان يأخذ التمر، وأن النبي ﷺ قال له: ما فعل أسيرك البارحة. وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: (**والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة – في العفريت الذي تفلت عليه**).

(من حيث لا ترونهم): قال مالك بن دينار: إن عدوا يراك ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلا من عصم الله.

وقال ابن عاشور: (وجملة: **"إنه يراكم هو وقبيله"** واقعة موقع التعليل للنهي عن الافتتان بفتنة الشيطان، والتحذير من كيده ، لأن شأن الحذر أن يرصد الشيء المخوف بنظره ليحترس منه إذا رأى بوادره، فأخبر الله الناس بأن الشياطين ترى البشر، وأن البشر لا

[1] رواه الترمذي، وابن حجر في هداية الرواة.

يرونها، إظهارا للتفاوت بين جانب كيدهم وجانب حذر الناس منهم، فإن جانب كيدهم قوي متمكن وجانب حذر الناس منهم ضعيف، لأنهم يأتون المكيد من حيث لا يدري. فليس المقصود من قوله: إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم تعليم حقيقة من حقائق الأجسام الخفية عن الحواس وهي المسماة بالمجردات في اصطلاح الحكماء ويسميها علماؤنا الأرواح السفلية إذ ليس من أغراض القرآن التصدي لتعليم مثل هذا إلا ما له أثر في التزكية النفسية والموعظة).

وقال: و (من حيث لا ترونهم): ابتداء مكان مبهم تنتفي فيه رؤية البشر، أي من كل مكان لا ترونهم فيه، فيفيد: إنه يراكم وقبيله وأنتم لا ترونه قريبا كانوا أو بعيداً، فكانت الشياطين محجوبين عن أبصار البشر، فكان ذلك هو المعتاد من الجنسين، فرؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخول الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: (**إن عفريتا من الجن تفلت علي الليلة في صلاتي فهممت أن أوثقه في سارية من المسجد**) الحديث، أو كرامة للصالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة، وقول النبي ﷺ لأبي هريرة: ذلك شيطان كما في الصحيحين، ولا يكون ذلك إلا على تشكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتتمكن منه الرؤية البشرية، فالمرئي في الحقيقة الشكل الذي ماهية الشيطان من ورائه، وذلك بمنزلة رؤية مكان يعلم أن فيه شيطانا، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلولا الخبر لما علم ذلك).

(إنا جعلنا الشياطين أولياء): قرناء وأعوانا، قال ابن عاشور: وجملة: (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) مستأنفة استئنافا ابتدائيا قصد منه الانتقال إلى

أحوال المشركين في ائتمارهم بأمر الشيطان، تحذيرا للمؤمنين من الانتظام في سلكهم، وتنفيرا من أحوالهم).

(للذين لا يؤمنون) وقال الزجاج: سلطانهم عليهم يزيدون في غيهم كما قال: **(أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزّا)** مريم ٨٣.

وقال ابن عاشور: (ولما كان من جبلة الشياطين حب ما هو فساد، وكان من قدرة الإنسان وكسبه أنه قد يتطلب الأمر العائد بالفساد، إذا كان له فيه عاجل شهوة أو كان يشبه الأشياء الصالحة في بادئ النظرة الحمقاء، كان الإنسان في هذه الحالة موافقا لطبع الشياطين، ومؤتمرا بما تسوله إليه، ثم يغلب كسب الفساد والشر على الذين توغلوا فيه وتدرجوا إليه، حتى صار المالك لإراداتهم، وتلك مرتبة المشركين، وتتفاوت مراتب هذه الولاية، فلا جرم نشأت بينهم وبين الشياطين ولاية ووفاق لتقارب الدواعي، فبذلك انقلبت العداوة التي في الجبلة التي أثبتها قوله: إن الشيطان لكما عدو مبين وقوله بعضكم لبعض عدو فصارت ولاية ومحبة عند بلوغ ابن آدم آخر دركات الفساد، وهو الشرك وما فيه، فصار هذا جعلا جديدا ناسخا للجعل الذي في قوله: **(بعضكم لبعض عدو)**، فما في هذه الآية مقيد للإطلاق الذي في الآية الأخرى تنبيها على أن من حق المؤمن أن لا يوالي الشيطان. والمراد بالذين لا يؤمنون المشركون، لأنهم المضادون للمؤمنين في مكة).

الثانية- قال تعالى:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيم [٥٢] لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيد ﴾ [الحج:٥٣]

(قال ابن كثير في تفسيره أن قصة الغرانيق التي ذكرها الكثير من المفسرين، كلها من طرق مرسلة وليست مسندة من وجه صحيح). ولكونها ضعيفة ولا تخدم الغاية التي من أجلها كتابنا هذا، فسأعرض عنها ولن أذكرها.

- **التفسير**:

وملخص هذه الآيات الحكيمة التي تكشف هذه الفتنة الشيطانية، أن هذه الآيات نزلت تسلية وتثبيتا للنبي صلى الله عليه وسلم، بأن ما أصابه وحدث معه فقد أصاب الأنبياء والرسل من قبل، فالمرسلون لا يتمنون إلا الخير والهداية لأقوامهم وأن يصدقوا ويؤمنوا بما أرسلهم الله به، ولكن دأب الشيطان ومحاولاته مستمرة في أن يفسد على الناس هذه الهداية، فيلقي شروره وإفساده في نفوسهم، فيوسوس لهم بنقيض ما يقوله الرسل، فيبث التشكيك والتكذيب ويزرع الشبهات ويأمر بالعصيان.

ولكن الله تعالى يزيل هذه الوساوس الشيطانية ويبطل شبهاته ويرفع هذه الشكوك فينسخها ثم يزيد آياته بيانا وتثبيتا وإيضاحا لتزداد حجج وبراهين الرسل، فالله هو العليم بما هو كائن ويكون، وبمن سيتبع رسله ويهتدي بهديهم، ومن سيختار الضلال وسبيل الشيطان، والله هو الحكيم في تقدير وتدبير الخلق والأمر وما تؤول إليه نفوس البشر.

فيجعل الله ما ألقى الشيطان من الشبهات والشكوك التي وسوس بها لأتباعه، فتنة يسقط فيها أصحاب القلوب المريضة والقاسية، من المنافقين والمشركين، مع كونهم سمعوا حجج وبراهين الرسل الواضحة المحكمة، إلا أنهم قد فتنوا واختاروا تصديق وساوس الشيطان وشبهاته، وفضلوا البقاء على عبادة آلهتهم الباطلة التي لا تضر ولا تنفع، فيتمسكون بها ليصدوا عن دعوة الحق، مكابرين ومعاندين ومبتعدين عن النور والإيمان فيظلمون بذلك أنفسهم.

قال البيضاوي: **(ليجعل ما يلقي الشيطان)**: علة لتمكين الشيطان منه، وذلك يدل على أن الملقى أمر ظاهر عرفه المحق والمبطل.

وقال ابن عاشور: (و "لام" **﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾**، مستعار لمعنى الترتب، مثل اللام في قوله تعالى **﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا﴾**. وهي مستعارة لمعنى التعقيب الذي حقه أن يكون بحرف الفاء، أي تحصل عقب النسخ الذي فعله الله فتنة من أفتن من المشركين بانصرافهم عن التأمل في أدلة نسخ ما يلقيه الشيطان، وعن استماع ما أحكم الله به آياته، فيستمر كفرهم ويقوى).

وأما الذين آمنوا بما جاءهم من العلم الحق النافع، فصدقوا الرسل واتبعوهم وانقادوا لهم بقلوب سليمة خاشعة مطمئنة خاضعة مذللة لله تعالى، يمشون بنور الحق متجنبين فتن الشيطان، متبعين الصراط المستقيم الذي هداهم الله تعالى إليه ورضيه لهم.

حكمة:

(الشيطان فتان، يأمرك في الدنيا ليتخلى عنك في الآخرة، فاعص أوامره تخذله وترفع درجاتك).

- فتنة الشياطين بين الماضي والحاضر:

لا شك أن الشيطان هو أحد الأعداء المسلطين على المؤمن، ولعله أكثرهم خطرا لاقترانه وملازمته لبني آدم في كل أوقاته وظروفه، ولا تتوقف خطورته فقط في كونه يرانا ولا نراه، بل في أن طرقه للإفساد والإضلال لا تتوقف في حيز أو سبيل واحد، فإن دأبه الوصول إلى أي مفسدة أو فتنة يستطيع إيقاع بني آدم فيها، بدءاً من أصغر ذنب ووصولاً إلى الشرك والكفر، والعياذ بالله.

فهو في معركة دائمة مع بني آدم، انتقاماً وحسداً لكل من دخل الإيمان في قلبه. قال تعالى مخبرا عنه:

﴿قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِين (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيم (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين﴾ [الأعراف:١٤-١٧]

فالطرق المستقيمة التي أقسم الشيطان أن يقعد لابن آدم فيها كثيرة لا حصر لها، ومنها: الإيمان والهجرة والجهاد، والصلاة، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرُقِهِ، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتذرُ أرضكَ وسماءَكَ؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل، قال: فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهْدُ النفس والمال، فتقاتل فتُقتل، فتُنكح المرأة ويُقسّم المال، قال: فعصاه فجاهد، فقال ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله عزّ وجلّ أن يدخله الجنة..**)[1].

[1] رواه أحمد والنسائي في الصغرى.

أما في الصلاة، فقد روى مسلم أن عثمان بن أبي العاص أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن الشيطان قعد بيني وبين صلاتي؟ فقال رسول الله ﷺ: **(ذاك شيطان يقال له خِنزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك)**.

فمسالكه إذن عديدة، بعدد مسالك الإنسان في الحياة، ولو حاولنا حصرها ما استطعنا لكثرتها، ولكننا نوجز تحت عناوين يندرج عمل الشيطان في الإفساد تحتها، مع مقارنة إفساده بين الماضي والحاضر، فمثلا:

١- في العقيدة:

قال ﷺ: **(يأتي الشيطان أحدَكم، فيقولُ: من خلق كذا؟ ومن خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولْيَنْتَهِ)**.[١]

وبين الماضي والحاضر، هكذا وصلت الأفكار اليوم إلى ما وصلت إليه، بهذا التدرج الشيطاني في طرح الأسئلة، ليتلقفها أهل الزيغ والفتن.

أما الصحابة رضوان الله عليهم فقد التزموا بنصيحة رسول الله ﷺ بالتوقف عن مجاراته واستدراجه فيما يريد إيقاع المؤمن به، وعملوا بالنصيحة، ونعم النصيحة هي كافية وافية، فمثلاً حين قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه، لإن يحترق حتى يصير حممة أو يخر من السماء إلى الأرض، من أن يتكلم بها! فقال: **(ذلك محض الإيمان)**. وفي رواية: **(ذلك صريح الإيمان)**[٢].

فخيّبوا رجاء الشيطان وهزموه في أن يصل معهم إلى هدفه، ولكن مع ظهور من استحكم الشيطان في عقولهم فشذوا عن هذه العقيدة الصافية المحض، وبدؤوا باستقبال وساوس الشيطان والخوض فيها، أصبح لهم أتباعٌ لم يكتفوا بالهَدي النبوي

[١] البخاري، ومسلم.
[٢] رواه أحمد، وبنحوه مسلم.

فبات يعمل عقله مستجيباً لوساوس الشيطان في طرح أفكاره للعلن، بل والخوض والجدال فيها.

فبدأت تظهر شرار المسائل التي لم تكن على عهد النبي ﷺ وأصحابه، وبدأ الخوض في السؤال عن ذات الله تعالى وعن القدر وعن المتشابه في القرآن.

فقد جاء رجلٌ يسأل ابن عباس رضي الله عنه عن الأنفال، فقال ابن عباس: الفرس من النفل والسلب من النفل، قال ثم عاد الرجل لمسألته فقال ابن عباس ذلك أيضا، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ فلم يزل يسأله حتى كاد أن يخرجه، ثم قال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أما قصة صبيغ، فعن سليمان بن يسار قال: قدم المدينة رجل يقال له: صبيغ بن عسل، وضبطه البعض: ضبيع، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه، فأعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال: وأنا عبد الله عمر، فضربه حتى أدمى رأسه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين قد ذهب الذي كنت أجده في رأسي. رواه الدارمي واللفظ له، ورواه غيره مطولا.

وما صبيغ في الماضي مقارنة باليوم، إلا كواحد من الملايين، وما مسألته إلا كواحدة من ألوف المسائل، فمنها ما يوصل إلى التشدد، ومنها ما يوصل إلى الإلحاد، في ظل مراكز التمويل للشبهات المنظمة، وفي ظل وسائل الإعلام التي ساعدت على سرعة الانتشار والترويج والدعم، من شرار الخلق والخليقة.

لذا قال الحسن البصري رحمه الله: (إن شرار عباد الله قوم يحبون شرار المسائل يعمون بها عباد الله).

وسوف نتوسع في هذه المسألة إن شاء الله عند الحديث عن فتنة الخوض في المتشابه.

٢- ومن فتنة الشيطان في الأسرة والمرأة:

فإنه يسعى جاهدا لإفساد البيوت وتفتيت الأسر والتفريق بين الأزواج، قال ﷺ: (**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت. قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه**)[١].

ثم لا يكتفي الشيطان بإفساد البيوت، بل يسعى جهده لزرع الفتن وبثها في المجتمع، مستخدما ألاعيبه وتزيينه للباطل لينشر الفساد، ومن هذه الألاعيب استخدامه للنساء في هدم المجتمعات من خلال تزييف المصطلحات وقلب المفاهيم وتزيين الباطل، فبدأ أولياؤه برفع شعارات تحرير المرأة وحرية المرأة ومساواة المرأة بالرجل، وهكذا رفعوا شعارات حق أريد بها باطل، فالإسلام هو الذي أعطى للمرأة مكانتها الحقيقة وأمر بتعليمها دينها، وفق ضوابط وحدود لم ترق للشيطان وأتباعه، وقد حذر القرآن الكريم من هذه الفتن، وحذر رسول الله ﷺ من فتن النساء، فقال: (**ما تركت بعدي فتنةً هي أضر على الرجال من النساء**)[٢].

وهذا الحديث وأمثاله مما يستغله أعداء الإسلام وأولياء الشيطان، ليحرفوا المعنى ويتأولوه على أن فيه إساءة للمرأة، فقد كذبوا والله، فليس في الحديث أي اساءة لها، فالمرأة بحد ذاتها ليست فتنة ولكن الفتنة في استغلالها، لجعلها أول وأهم أسباب الفتنة، من خلال ما يروج له الشيطان وأولياؤه، فنزعوا عنها لباس الحياء والستر،

[١] رواه مسلم.
[٢] رواه مسلم، والترمذي.

واستغلوها تجارياً وإعلامياً، وجعلوا منها سلعة معروضة لكل متصيد أو مشترٍ، ثم قلبوا الحقائق وادعوا أن الإسلام لايزال يتبنى وأد المرأة وتسفيهها.

ولكن إذا قمنا بفهم الحديث فهما يليق به، فنقول: إن المرأة في الأسرة هي الأم والزوجة والأخت والابنة، ولكل واحدة منها بحسب مكانها من الرجل، قد تشكل مصدراً للفتنة، من خلال متطلبات الحياة ومشاكلها، وهي مشاهدة في كل مكان وزمان.

فمثلا؛ قد تطلب الأم من ولدها أن يعق والده نكاية فيه لمشكلة بينهما، وهذا موجود في الحياة، فتكون مصدراً للفتنة لولدها، والأخت قد تأتي شاكية لإخوتها من زوجها وهي ظالمة له، فتعكس الحقائق وتستجدي العواطف وتحرض أخوتها على خطأ، فيصبحوا متعاطفين مع أختهم دون تحكيم للعقل أو الحق، فتكون مصدرا لفتنة اخوتها بعد أن سلبتهم عقولهم ببكائها والمبالغة في شكواها، وهكذا فالأمثلة كثيرة في المجتمعات.

أما ما ذهب إليه أعداء الإسلام في محاولاتهم لحصر معاني أمثال هذه الأحاديث في المعنى الذي يروجون له، بأنه تقليل من مكانتها، فما حقيقة ذلك إلا لأنهم يسعون لإخراج المرأة من مملكتها وحيائها، ومن خلال رفعهم لشعارات حرية المرأة وحقوق المرأة، وهي شعارات ظاهرها خير وباطنها يتربع الشيطان فيه، يبتغون بذلك الكذب والتدليس، لإخراجها – من غير ضوابط الخروج الشرعية – التي تحميها منهم ومن أمثالهم من مرضى القلوب، وهذا بعينه ما حذر منه الخالق اللطيف الخبير سبحانه وتعالى، في الآيات التي ذكرتها آنفاً، وهي إحدى أساليب الشيطان وأوليائه في إغواء البشر، فإنها من إحدى حبائله في الإفساد، فهل نستمع لهؤلاء المفسدين وندع قول سيد البشر الحريص على نساء أمته، الغيور عليهن أكثر من أقرب

الناس لهن؟! وهو القائل: قال صلى الله عليه وسلم: (**المَرْأةُ عورَةٌ، فإذا خَرَجَتْ اسْتشْرَفَها الشيطانُ**)[1].

وهو ما فهمه وشرحه صاحب رسول الله ﷺ، ابن مسعود رضي الله عنه، فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إنما النساء عورة وإن المرأة لتَخرج من بيتها وما بها من بأس فيستشرفها الشيطان فيقول: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبْتيه، وإن المرأة لتلبس ثيابها فيقال: أين تريدين؟ فتقول: أعود مريضا أو أشهد جنازة أو أصلي في مسجد وما عبدت امرأة ربها مثل أن تعبده في بيتها)[2].

ومعنى استشرفها: قال المباركفوري: أي زيَّنها في نظر الرجال، وقيل: نظر إليها ليغويها ويغوي بها؛ ليوقعهما أو أحدهما في الفتنة.

٣- في التحريش بين المسلمين:

قال ﷺ: (**إن الشيطان قد أيسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**)[3].

قال الإمام النووي رحمه الله: (هذا الحديث من معجزات النبوة، ومعناه: أيس أن يعبده أهل جزيرة العرب، ولكنه سعى في التحريش بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها). فهو يرسل جنوده لإيقاع الفتن والبغضاء والعداء بين الأخوة، وبين العلماء، وبين الأمراء، والشعوب والطوائف والأفراد.. الخ.

أما في زمن نور النبوة؛ فحين كادت أن تقع فتنة بين المسلمين، خرج عليهم ﷺ، معلماً وهادياً ومصلحاً، فقال: (**يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية**

---

[1] رواه الترمذي وقال: حسن غريب، ورواه الطبراني وابن حبان.
[2] رواه الطبراني في الكبير (٢١١٨)، وقال في مجمع الزوائد: رجاله ثقات.
[3] رواه أحمد، ومسلم.

وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام؟! وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟) فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين. رواه الطبري وغيره.

وقد تدرج الشيطان وجنده في التحريش بين المسلمين، حتى وصل – للأسف – إلى أن جعلهم مذاهب مختلفة ومتناحرة فيما بينها، وقد وصل في كثير من الأحيان إلى حد القتال والقتل، كما حدث في مرحلة من مراحل الأمة بين أتباع المذاهب الفقهية الأربعة، بسبب التعصب البغيض للمذهب، حين أنساهم الشيطان أن هذه المذاهب كلها حق، فلا ينبغي أن تصل الحال بهم إلى حد القتل.

أما اليوم؛ فمن الأسف أن نجد أحياناً أبناء المذهب الواحد يتخللهم التعصب للشيخ أو للإمام، وربما للأمير أو الحاكم، وربما للحزب أو المنصب، فحدّث ولا حرج عن مثل ذلك.

٤- في نشر الفحشاء في المجتمعات:

قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ**﴾ [النور:٢١].

قال الإمام ابن كثير: (خطواته: طرائقه ومسالكه وما يأمر به، هذا تنفير وتحذير من ذلك، بأفصح العبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها. ثم ضرب ابن كثير بعض الأمثلة:

عن ابن عباس: عمله. وقال عكرمة: نزغاته. وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان. وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان.

وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاما؟ فقال: هذا من نزعات الشيطان، كفر عن يمينك، وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشا. وعن أبي رافع قال: غضبت علي امرأتي فقالت: هي يوما يهودية ويوما نصرانية، وكل مملوك لها حر، إن لم تطلق امرأتك. فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنها هذه من نزغات الشيطان. وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة، وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر، فقال مثل ذلك).

٥- الأمر بالبخل والمعاصي:

قال تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ البقرة: ٢٦٨.

وقال رسول الله ﷺ: **(إن للشيطان للمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان. ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا)**[١].

[١] سبق تخريجه.

قال ابن كثير: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق.

٦- استفزاز المسلم حتى يغضب:

عن سليمان بن صُرَد رضي الله عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، ورجلان يستبَّان، فأحدهما احمرَّ وجهه وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: (**إني لأعلم كلمةً لو قالها لذهب عنه ما يجد؛ لو قال: أعوذ بالله من الشيطان لذهب عنه ما يجد، فقالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بي جنون؟**)[1].

[1] رواه البخاري، وأبو داود.

- وسائل التغلب على فتن ووساوس الشيطان:

١ – قراءة القرآن: قال ﷺ: (**لاَ تَجعَلوا بيوتكُم مقابرَ؛ إِنَّ الشَّيطانَ يَنفرُ من البيتِ الَذى تُقرأُ فيه سورةُ البقرة**)[1].

٢ – الصلاة: قال ﷺ: (**إِذَا قرأَ ابنُ آدمَ السَّجدةَ فَسجدَ اعتزلَ الشيطَانُ يبكي يقول: يا ويلهُ – وفي روايةِ أَبي كُرَيْبٍ يا ويْلي – أُمِرَ ابنُ آدمَ بالسجودِ فسجَدَ فَلهُ الجَنَّةُ وأُمِرتُ بالسجودِ فأَبيتُ فلِيَ النَّارُ**)[2].

٣– الدعاء: قال ﷺ: (**أَمَا إِنَّ أَحدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهلَهُ وَقَالَ: بسمِ الله، اللَّهُمَّ جنِّبْنا الشَّيطانَ وجنِّبِ الشَّيطانَ ما رزقتَنَا فرُزِقا وَلَداً لمْ يَضره الشَّيطانُ**)[3].

٤– الاستعاذة بالله سبحانه: قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾. النحل: ,٩٨

٥– الجماعة: قال ﷺ: (**مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ إِلاَّ قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ؛ فَعَلَيْكَم بِالْجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذئْبُ الْقَاصِيَةَ**)[4].

٦– عدم الخوف من الشيطان وأوليائه: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. آل عمران: ١٧٥.

---

[1] رواه مسلم.
[2] رواه مسلم.
[3] رواه البخاري.
[4] رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي في الصغرى.

فتنة الأموال والأولاد والأزواج

وفيها موضعان:

١- قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٢٧-٢٨]

٢- قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٤-١٥-١٦]

- أسباب النزول:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم جفاء أهله وولده، فنزلت)[١].

وعن عطاء بن يسار قال: (نزلت سورة "التغابن" كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم" نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم، فنزلت: "يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم" الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي. وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة)[٢].

---

[١] تفسير القرطبي.
[٢] تفسير الطبري والقرطبي.

وعن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية {يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم}، قال: (هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ، فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾ الآية.)[1].

وعن عكرمة، في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبيّ ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: وإذا أسلم وفَقِه، قال: لأرجعنّ إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلنّ ولأفعلنّ، فأنـزل الله جلّ ثناؤه: (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[2].

وعن ابن عباس، قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، ولم يألُوا يثبطونه عن ذلك، فقال الله: إنهم عدوّ لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا، وامضُوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا مُنع وثبط مرّ بأهله وأقسم، والقسم يمين ليفعلنّ وليعاقبنّ أهله في ذلك، فقال الله جلّ ثناؤه (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)[3].

وعن الضحاك قال في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)، قال: هذا في أناس من قبائل العرب كان يسلم الرجل أو النفر من الحيّ،

[1] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وذكره الواحدي في أسباب النزول، والطبري في تفسيره.
[2] رواه الطبري في تفسيره.
[3] رواه الطبري.

فيخرجون من عشائرهم ويدعون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبيّ ﷺ فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم، فيناشدونهم الله أن لا يفارقوهم، ولا يؤثروا عليهم غيرهم، فمنهم من يَرقّ ويرجع إليهم، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبيّ الله ﷺ.

وعن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: " رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنـزل رسول الله ﷺ فأخذهما فرفعهما فوضعهما في حِجْرِهِ ثم قال: صَدَقَ الله ورَسُولُهُ: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** رأَيت هذينِ فلم أَصْبِر، ثم أخذ في خطبته)[1].

وقال ابن زيد، في قوله: **﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾** قال: يقول: عدوّا لكم في دينكم، فاحذروهم على دينكم.

- **التفسير**:

في هذه الآيات خمس مسائل: التحذير من الخيانة – فتنة الأموال والأولاد – عداوة بعض الأزواج والأولاد – العفو والصفح والمغفرة – تقوى الله على قدر الاستطاعة.

أولا: التحذير من الخيانة:

الخيانة نقيض الأمانة، وقال الراغب: الخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، والأظهر أنها شاملة لجميع التكاليف الشرعية وقيل: هي الاستبداد بما يؤتمن

[1] الطبري.

الإنسان عليه من الأموال والأعراض والحرم، وتملك ما يستودع، ومجاحدة مودعه. فالخيانة هي العمل بضد الأمانة بخفاء.

قال ابن كثير: والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية، وعن ابن عباس في قوله (وتخونوا أماناتكم): الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد- يعني الفريضة- يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها، وقال في رواية: (لا تخونوا الله والرسول): يقول بترك سنته وارتكاب معصيته.

ثانيا: فتنة الأموال والأولاد:

ويمكننا ربط آية النهي عن الخيانة مع آية التحذير من فتنة الأموال والأولاد من حيثيتين:

الأولى: أن الأموال والأولاد تعتبر في حد ذاتها من ضمن الأمانة التي خولها الله تعالى وملكها للعباد، فهما أمانة عند العبد ليحسن التصرف معهما كما أمر الله تعالى، فيؤدي حقوقهما وواجباتهما بحسن الرعاية والأداء، وخيانتهما تكون بالإهمال أو الإفراط أو التفريط أو الغلو، وما شاكل.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في الإحياء: (اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم؛ شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال الله عز و جل: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾**، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة

أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال، فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبيث، فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث، ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته..).

الثانية: أن الحب المفرط للأموال والأولاد والانشغال بهما عن عبادة الذي وهب المال والأولاد سبحانه وتعالى، وتعلق القلب المبالغ فيه بهما، هي من الأسباب المؤدية إلى خيانة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخيانة المرء لدينه، فهو معهما في اختبار وفتنة، فمن تعامل معهما بميزان الحق، باعتدال ووسطية، كما أمر الله تعالى، فهو من الناجحين في الاختبار الناجين من الوقوع في شباك الفتنة، ومن أساء فقد سقط في الفتنة وخسر في الاختبار.

وقوله تعالى: (واعلموا): للاهتمام بهذا التحذير والالتفات إلى حجم هذه الفتنة وتجنبها، والتي هي أكثر ما يتعامل معها المرء في أيامه وأوقاته، وللتنبيه على أن ما عند الله من أجر لمن أخذ بهذا التحذير، إنما هو أعظم وأدوم وأبقى من متاع الدنيا الآني الزائل، إما بزواله هو عن الدنيا أو بزوالهما عنه في حياته.

قال الإمام أبو زهرة: (والأمر في قوله تعالى: ﴿**واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة**﴾: أمر تعليم وعلم، وهذا العلم هو أن المال والولد فتنة).[1]

[1] زهرة التفاسير.

وقال الفخر الرازي: (ويمكن أن يتمسك بهذه الآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل أفضل من الاشتغال بالنكاح لأن الاشتغال بالنوافل يفيد الأجر العظيم عند الله، والاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة إلى المال، وذلك فتنة، ومعلوم أن ما أفضى إلى الأجر العظيم عند الله، فالاشتغال به خير مما أفضى إلى الفتنة).

قلت: وهذا ليس على إطلاقه، فأحيانا يكون في المال والولد خيرٌ أكثر من النوافل، وذلك في كثرة التصدق والإنفاق، وفي الولد الصالح الذي في دعائه استمرار في الاستثناء من الانقطاع من الأعمال بعد الموت.

جاء في زهرة التفاسير لأبي زهرة:

وفتنة المال أشد فتنة، ويقول الله تعالى: **(المال والبنون زينة الحياة الدنيا)** وقال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم)**: وقدم المال على الولد، لأن المال في أظهر أحواله متعة خالصة، والولد متعة وتكليف، وما لا تكليف فيه يكون أوضح وأظهر استمتاعا، ولذلك طلب المال الجميع.

والأبوة متعة، ولكن معها تكليف ورعاية، والذين تفتنهم الدنيا تغرهم الأمور الظاهرة، وتعوق متعتهم الأمور القابلة، وإنه حيث فقد الشخص إحدى المتعتين المال أو الولد - اشتدت الأخرى، ولذا كانت متعة الولد تشتد عند الفقراء، ولا تكون عند الأغنياء كقوتها عند الفقراء، وتلك الفطرة.

وقوله تعالى: **(إنما أموالكم وأولادكم فتنة)**: فيها قصر الأموال والأولاد على الفتنة، ومن ناحيتها تجد الخيانة مسرب الشيطان إلى النفوس، فالآية تحذرنا من هذه الفتنة، والحذر لا يكون بترك المال والأولاد، إنما الحذر ألا نطلب المال إلا من الحلال، وألا تدفعنا عاطفة الأبوة إلى الشطط ومجاوزة الحد.

المسألة الثالثة: **عداوة بعض الأبناء والأزواج**:

والمراد أنها تشمل العداوة الدينية والدنيوية، بأن يكون الأولاد والأزواج يضمرون لآبائهم وأزواجهم العداوة والبغضاء وسوء النية، بسبب الاختلاف في الطباع والأخلاق، أو في الأفكار، أو في العقيدة، ونحو ذلك، فيصدونهم عن سبيل الله، ويثبطونهم عن طاعته.

قال مجاهد: إنهما يحملانه على قطيعة رحمه، وعلى معصية ربه، فلا يستطيع مع حبه إلا أن يقطعه. وقال أيضا: ما عادوهم في الدنيا، ولكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن: "والمراد بالعداوة ها هنا بعد المودة والمنزلة، فإن الزوجة قريب، والولد قريب، بحكم المخالطة والصحبة، ولكنهما قد يقربان بالألفة الحسنة والعشرة الجميلة فيكونا وليين، وقد يبعدان بالنقرة والفعل القبيح، فيكونان عدوين، وعن هذا أخبر الله سبحانه، ومنه حذر، وبه أنذر. ثم قال: هذا يبين وجه العداوة؛ فإن العدو لم يكن عدوا لذاته وإنما كان عدواً لفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة.

وقال ﷺ: (**إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له: أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه فآمن، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتترك مالك وأهلك؟ فخالفه فهاجر، ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له: أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك؟ فخالفه فجاهد فقتل، فحق على الله أن يدخله الجنة**)[1].

---

[1] سبق تخريجه.

وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة. والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب.

قال الله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥]

وفي حكمة عيسى ﷺ: (من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً). وقال النبي ﷺ: **(تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)**[١].

وكما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدواً، كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدواً، بهذا المعنى بعينه، وعموم قوله: (من أزواجكم) يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدين. وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة. فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

وقال ابن عاشور: (والإِخبار عن بعض الأزواج والأولاد بأنهم عدوٌّ يجوز أن يحمل على الحقيقة، فإن بعضهم قد يضمر عداوة لزوجه وبعضهم لأبويه من جراء المعاملة بها لا يروق عنده مع خباثة في النفس وسوء تفكير، فيصير عدوًّا لمن حقه أن يكون له صديقاً، ويكثر أن تأتي هذه العداوة من اختلاف الدين ومن الانتماء إلى الأعداء. ويجوز أن يكون على معنى التشبيه البليغ، أي كالعدوّ في المعاملة بما هو من شأن معاملة الأعداء كما قيل في المَثَل: يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدوّ لعدوّه. وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه).

---

[١] رواه البخاري.

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم. و﴿مِنْ﴾: في قوله ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾: للتبعيض. ثم أمر الله بالحذر منهم وليس بالضرر فيهم، فقال:

(فَاحْذَرُوهُمْ): أن تقبلوا منهم ما يأمرونكم به من ترك طاعة الله. وقال ابن عاشور: وعُطف على قوله: (فاحذروهم) جملة: (وإن تعفوا وتصفحوا): إلى آخرها، عَطف الاحتراس لأنه إذا كان العفو مطلوباً محبوباً إلى الله تعالى، وهو لا يكون إلا بعد حصول الذنب فإن عدم المؤاخذة على مجرد ظنّ العداوة أجدر بالطلب، ففهم النهي عن معاملة الأزواج والأبناء معاملةَ الأعداء لأجل إيجاد العداوة ، بل المقصود من التحذير التوقّي وأخذُ الحيطة لابتداء المؤاخذة، ولذلك قيل: "الحزم سوء الظن بالناس"، وهذا ليس دائماً، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وقال: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦]. والعفو: ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها، ولو مع توبيخ. والصفح: الإعراض عن المذنب، أي ترك عقابه على ذنبه دون التوبيخ. والغفر: ستر الذنب وعدم إشاعته.

وقوله: (وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا) يقول: إن تعفوا أيها المؤمنون عما سلف منهم من صدّهم إياكم عن الإسلام والهجرة وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب.

(فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ): لكم لمن تاب من عباده، من ذنوبكم (رَحِيمٌ) بكم أن يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها.

حكمة: (الفتنة عدوك فجاهدها، فجهاد الشبهات بالعلم، وجهاد الشهوات بخشية الله).

- فتنة الأموال والأزواج والأولاد بين الماضي والحاضر:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]

تحذير من التدرج بالمضي وراء خطوات شياطين الانس والجن، فإنهم يأمرون بالفحشاء والمنكر، يستدرجون الغافلين بخطوات ربما يظنها المرء أنها صغيرة، فيعمل المسلم الصغيرة وهو في تخوف منها، ثم إن لم يتنبه ويندم طُبعت في قلبه فيكررها حتى يعتاد عليها، فلا يعود يكترث، بل ينطلق إلى خطوة أكبر منها، وهكذا حتى يُختم على قلبه، فلا يعود يُنكر منكراً ولا يعرف معروفاً، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل يتعداه إلى أن يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وهذا هو قمة السقوط في الفتن، حتى يصبح قائداً للشيطان وليس تابعاً. فأصبح مضلاً مفسداً من الغاوين، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف:١٧٥]

أولا- فتنة النساء:

وهذا الموضوع من المواضيع التي زاود فيه أعداء الإسلام كثيرا ولايزالون، متخذين منه عنوانا لمهاجمة الإسلام وبأنه أهان المرأة وجعلها في درجة بهيمية لا ترقى حتى إلى الإنسانية، مروجين لأفهام خاطئة، متقصدين النيل من المرأة ومن الإسلام، ونشر الفساد بين الناس، رافعين شعارات كاذبة خادعة، يقلبون المفاهيم ليدلسوا على الناس.

ولكن الحقيقة التي لا تستطيع قلوبهم وأقلامهم الآثمة المجرمة، أن تخفيها إلا كمن يريد اخفاء الشمس في وضح النهار خلف الغربال، أن الإسلام هو الذي كرم المرأة وأوصى بإنزالها في مكانتها التي تحفظ لها كرامتها وحياءها، وتصون حقوقها وعفتها.

والواقع أنه لم يسبق في التاريخ أن جعل من المرأة مادة للتناول والخوض والتعريض كما حدث في هذا العصر، عصر الفضاء والعولمة، حتى أصبح موضوع المرأة هو هاجس أعداء الإسلام في القرنين الأخيرين، فمنذ أواخر القرن العشرين وإلى اليوم، نستطيع أن نقول إن عنوان هذه المرحلة الزمنية الأبرز عالمياً هو: (قضية تحرير المرأة).

وسوف نتناولها إن شاء الله في ستة محاور رئيسة:

الأول- توازن النصوص الشرعية بين: (تكريم المرأة وصيانتها) و (التحذير من فتنتها):

وفي هذا المحور الرد على من اقتطع بعض النصوص مكتفيا بها ومغيرا لمعانيها وغاياتها، ممن يتشدقون مستنكرين بقولهم: لماذا هذا الحقد على المرأة؟ لماذا تشبهونها بالشيطان تارة، وتصفونها بالشؤم تارة، وبأنها فتنة، وتسعون إلى حبسها وتجهيلها، وما إلى ذلك من الافتراءات الكاذبة، والغمز المتعمّد لهدم الأسرة والإسلام عموما.

أما النصوص المعاكسة لما يفترون، والتي لا يذكرونها في دعاويهم المزيفة، فهي كثيرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

١- قال ﷺ: **(الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)**.[1]

[1] رواه مسلم.

٢- قال ﷺ: **(من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح)**.[1]

٣- قال ﷺ: **(ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله تعالى خيرا من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته أو حفظته في نفسها وماله)**.[2]

٤- قال ﷺ: **(ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة؛ إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته)**.[3]

ولهذا الحديث قصة، جدير أن نذكرها هنا، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: **(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)**، كَبُر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحدنا أن يترك مالا لولده يبقى بعده. فقال عمر رضي الله عنه: أنا أفرّج عنكم، قال: فانطلقوا وانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتوا رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا نبي الله، قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال نبي الله ﷺ: **(إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث في أموال تبقى بعدكم، قال: فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته)**[4].

جاء في عون المعبود في شرح هذا الحديث: (أي أفضل ما يقتنيه ويتخذه لعاقبته المرأة الجميلة ظاهرا وباطنا، قيل فيه إشارة إلى أن هذه المرأة أنفع من الكنز المعروف، فإنها خير ما يدخرها الرجل، لأن النفع فيها أكثر لأنه إذا نظر الرجل إليها

---

[1] رواه الإمام أحمد.
[2] رواه ابن ماجة.
[3] رواه أبو داود، والحاكم وصححه.
[4] رواه الحاكم وصححه.

جعلته مسرورا لجمال صورتها، وحسن سيرتها، وحصول حفظ الدين بها، وإذا أمرها بأمر شرعي أو عرفي أطاعته وخدمته، وإذا غاب عنها حفظته. قال القاضي: لما بين لهم ﷺ أنه لا حرج عليهم في جمع المال وكنزه ما داموا يؤدون الزكاة، ورأى استبشارهم به رغبهم عنه إلى ما هو خير وأبقى وهي المرأة الصالحة الجميلة، فإن الذهب لا ينفعك إلا بعد ذهابه عنك، وهي ما دامت معك تكون رفيقتك تنظر إليها فتسرك، وتقضي عند الحاجة إليها وطرك، وتشاورها فيما يعن لك فتحفظ عليك سرك، وتستمد منها في حوائجك فتطيع أمرك، وإذا غبت عنها تحامي مالك وتراعي عيالك).

أنظروا ما أجمل هذا الفهم لأحاديث النبي ﷺ، وقارنوا بينه وبين افتراءات هؤلاء الأدعياء الفجرة، والنتيجة واضحة لكل عاقل منصف، من الذي يريد ويحث على كرامة المرأة وصيانتها.

أما الأحاديث التي يرون فيها إهانة وتحقيراً للمرأة، بسوء أفهامهم وخبث سرائرهم، فسوف نذكرها مع حقيقة مرادها، لنبين عوار هؤلاء الأدعياء:

١- قال ﷺ: **(إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه)**.[١]

قال الإمام ابن الجوزي: ("في صورة شيطان: أي: إن الشيطان يزين أمرها، ويحث عليها، وإنما يقوى ميل الناظر إليها على قدر قوة شبقه، فإذا جامع أهله قل المحرك وحصل البدل)[٢]. إذن؛ فالإشكالية ليست في المرأة نفسها، بل فيما قد ينتج عن خروجها من غير الضوابط الشرعية من فتن، نظرا لما خلقه الله تعالى من غرائز فطرية في النفس البشرية، مع اختلاف درجاتها بين شخص وآخر.

[١] رواه أحمد، ومسلم.
[٢] كشف المشكل في حديث الصحيحين لابن الجوزي.

وقال الإمام القرطبي: ("إن المرأة تقبل في صورة شيطان" أي: في صفته من الوسوسة، والتحريك للشهوة بما يبدو منها من المحاسن المثيرة للشهوة النفسية، والميل الطبيعي، وبذلك تدعو إلى الفتنة التي هي أعظم من فتنة الشيطان، ولذلك قال ﷺ: **(ما تركت في أمتي فتنة أضر على الرجال من النساء)**. فلمّا خاف ﷺ هذه المفسدة على أمته أرشدهم إلى طريق بها تزول وتنحسم، فقال: إذا أبصر أحدكم المرأة فأعجبته فليأت أهله، ثم أخبر بفائدة ذلك، وهو قوله: فإن ذلك يردّ ما في نفسه)[١].

فإذا فهمنا المراد الحقيقي من الحديث، فأين المهانة التي يدعيها المجرمون؟ بل الحديث لا يحمل سوى صيانتها عن الفتن، وصيانة الأسرة والمجتمع عن الوقوع في الرذائل التي لا يرى هؤلاء المفسدون أنها من الرذائل أصلاً.

قال الإمام النووي: (قال العلماء: معناه الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بنظرهن، وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته، وتزيينه له، ويستنبط من هذا أنه ينبغي لها ألّا تخرج بين الرجال إلا لضرورة، وأنه ينبغي للرجل الغض عن ثيابها، والإعراض عنها مطلقاً). وسنذكر بعد قليل إن شاء الله مسألة الخروج.

إذاً؛ فليس الحديث فيه ما يذم المرأة الملتزمة بأوامر ربها، الحريصة على صيانة نفسها وأسرتها ومجتمعها، بل هو حديث وقائي؛ يحذّر من سوء تصرفٍ نتائجه وخيمة على الناس.

٢- قال ﷺ: **(ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء)**.[٢]

---

[١] المفهم لما أشكل في تلخيص كتاب مسلم.
[٢] سبق تخريجه.

قال في فتح الباري: (وفي الحديث أن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن، ويشهد له قوله تعالى: **(زين للناس حب الشهوات من النساء)**، فجعلهن من حب الشهوات، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك).

وقد سبق أن تحدثت عن أن الفتنة هنا قد تحمل معان عديدة، مشاهدة في حياتنا اليومية في كثير من القصص والوقائع والحالات، ولو تدبرنا هذا الحديث مع حديث آخر وهو قوله ﷺ: (**ما من صباح إلا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال**)[1]، ثم أخذنا هذين الحديثين في ظل قوله تعالى: **(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ)**.

سنصل إلى مفهوم عام، وهو أن فتنة النساء للرجال هي من ضمن فتنة الناس لبعضهم البعض، فكذلك الرجل فتنة للرجل، فالغني فتنة للفقير والراعي فتنة للرعية..، وهكذا كما ذكرنا سابقا، وكذلك الرجل فتنة للمرأة، وقد ذكرنا أن معنى الفتنة هي عرض الشيء على الإنسان حتى يتبين خيره من شره، وذكرنا أيضا أن قولنا "فتنته" أي اختبرته، إذن فليس مجرد قولنا أن المرأة فتنة للرجل، أو العكس، أن بهذا إساءة لأحد الطرفين، لأن الفتنة أو الاختبار في حد ذاتها ليس محل ذم، فقد يسقط المرء في الاختبار وقد ينجح، وبهذا نفهم أن هذه النصوص هي من رحمة الله وفضله في تحذير المسلم من أي شيء قد يفسد عليه دينه ودنياه، **(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)**، فالحمد لله على أنه بين وحذر من كل ما يمكن أن يكون سببا للخسارة والخذلان والفضيحة في الدنيا والآخرة.

---

[1] رواه ابن ماجة، والحاكم وصححه.

فما شأن هؤلاء الإمعات المجرمين الذين يرددون كل ما يستمعون إليه من أعداء الدين والإنسانية، فيجترونه إما دون فهم لغاياتهم وأهدافهم الإفسادية، وإما هم مشتركون معهم في نشر الفساد في الأرض، والله لا يحب المفسدين.

٣- قال ﷺ: (**ألا لا يخلونّ رجل بامرأة لا تحل له، فإن ثالثهما الشيطان، إلا محرم**)[1]. وهذا فيما يخص فتنة الخلوة، وفيه حديث: قال ﷺ: (**إياكم والدخول على النساء. فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحمو؟ قال: الحمو الموت**)[2].

قال في فتح الباري: (.. وقد ورد في حديث: "**لا تدخلوا على المُغْيِبَاتِ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**"[3] و: "**لا يدخل رجل على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان**"[4]، والمغيبة: من غاب عنها زوجها، يقال أغابت المرأة إذا غاب زوجها.

(إياكم والدخول): بالنصب على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذور ليحترز عنه كما قيل إياك والأسد.. وتقدير الكلام: "اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء والنساء أن يدخلن عليكم". ووقع في رواية ابن وهب بلفظ: "لا تدخلوا على النساء"، وتضمن منع الدخول منع الخلوة بها بطريق الأولى.

والحمو: أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه... وقال الترمذي: يقال هو أخو الزوج، كره له أن يخلو بها. قال: ومعنى الحديث على نحو ما روي: (**لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان**).

وقال النووي: المراد في الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، لأنهم محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت. قال وإنما المراد الأخ وابن الأخ

[1] رواه الإمام أحمد، والترمذي.
[2] رواه البخاري.
[3] سنن الدارمي، وقال الحافظ: رواه الترمذي مرفوعا من حديث جابر، ورجاله موثوقون، لكن مجالد بن سعيد مختلف فيه،
[4] قال الحافظ: من حديث مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعا.

والعم وابن العم وابن الأخت ونحوهم مما يحل لها تزويجه لو لم تكن متزوجة، وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه، فشبهه بالموت، وهو أولى بالمنع من الأجنبي اهـ.

قوله (الحمو الموت) قيل المراد أن الخلوة بالحمو قد تؤدي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية، أو إلى الموت إن وقعت المعصية ووجب الرجم، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على تطليقها، أشار إلى ذلك كله القرطبي. وقال الطبري: المعنى أن خلوة الرجل بامرأة أخيه أو ابن أخيه تنزل منزلة الموت، والعرب تصف الشيء المكروه بالموت، قال ابن الأعرابي، هي كلمة تقولها العرب مثلا كما تقول: الأسد الموت أي لقاؤه فيه الموت، والمعنى احذروه كما تحذرون الموت.

وقال النووي: المراد أن الخلوة بقريب الزوج أكثر من الخلوة بغيره والشر يتوقع منه أكثر من غيره والفتنة به أمكن؛ لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها من غير نكير عليه بخلاف الأجنبي. وقال عياض: معناه أن الخلوة بالأحماء مؤدية إلى الفتنة والهلاك في الدين فجعله كهلاك الموت وأورد الكلام مورد التغليظ.

وقال القرطبي في "المفهم": المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يشبه الموت في الاستقباح والمفسدة، أي فهو محرم معلوم التحريم، وإنما بالغ في الزجر عنه وشبهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لإلفهم بذلك حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة فخرج هذا مخرج قول العرب: الأسد الموت، والحرب الموت، أي لقاؤه يفضي إلى الموت، وكذلك دخوله على المرأة قد يفضي إلى موت الدين أو إلى موتها بطلاقها عند غيرة الزوج أو إلى الرجم إن وقعت الفاحشة.

"تنبيه": مَحْرَمُ المرأة: من حرم عليه نكاحها على التأبيد، إلا أم الموطوءة بشبهة وَالْمُلَاعَنَةِ فإنهما حرامان على التأبيد ولا محرمية هناك، وكذا أمهات المؤمنين،

وأخرجهن بعضهم بقوله في التعريف بسبب مباح لا لحرمتها. وخرج بقيد التأبيد أخت المرأة وعمتها وخالتها وبنتها إذا عقد على الأم ولم يدخل بها).

٤- قال ﷺ: **(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء).**[١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إنما هلكت نساء بني إسرائيل من قبل أرجلهن، وتهلك نساء هذه الأمه من قبل رؤوسهن)[٢].

فما هي قصة فتنة نساء بني إسرائيل؟ وكيف فتن الرجال من قبل أرجلهن؟ وكيف تكون الفتنة من قبل الرؤوس؟

قال ﷺ: **(كانت امرأة من بني إسرائيل قصيرة تمشي مع امرأتين طويلتين، فاتخذت رجلين - في رواية: نعلين - من خشب، وخاتماً من ذهب مغلق مطبق، ثم حشته مسكاً، وهو أطيب الطيب، فمرّت بين المرأتين فلم يعرفوها، فقالت بيدها هكذا).** ونفض شعبة يده. قال المستمر -أحد رواة الحديث- بخنصره اليسرى فأشخصها دون أصابعه الثلاثة شيئا وقبض الثلاثة.[٣] وعند الإمام أحمد: **(فكانت إذا مرت بالمجلس حركته فنفح ريحه).**

وفي رواية:

قال ﷺ: (**إن أول ما هلك بنو إسرائيل؛ أن امرأة الفقير كانت تكلفه من الثياب أو الصيغ ما تكلف امرأة الغني، فذكر امرأة من بني اسرائيل كانت قصيرة، واتخذت رجلين من خشب، وخاتماً له غلق وطبق، وحشته مسكاً، وخرجت بين امرأتين**

---

[١] رواه مسلم.
[٢] رواه ابن أبي شيبة في مصنفه.
[٣] رواه مسلم وأحمد وابن حبان.

طويلتين أو جسيمتين، فبعثوا إنساناً يتبعهم، فعرف الطويلتين، ولم يعرف صاحبة الرجلين من خشب).[1]

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كن نساء بني اسرائيل يتخذن أرجلاً من الخشب يتشرفـّن للرجال في المسجد، فحرّم الله عليهـّن المساجد، وسلط عليهن الحيضة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (كان الرجال والنساء من بني إسرائيل يصلون جميعاً، فكانت المرأة إذا كان لها خليل تلبس القالبين تطـّول بهما لخليلها، فألقى الله عليهن الحيض، فكان ابن مسعود يقول: أخرجوهنّ من حيث أخرجهن الله).[2]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد؛ إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل في زينة لها في المسجد، فقال النبي ﷺ: **(يا أيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر في المسجد، فإن بني إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبخترن في المساجد)**[3].

وروت عمرة بنت عبد الرحمن، عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: ولو رأى رسول الله ما أحدث النساء لمنعهن المساجد كما ُمنعه نساء بني إسرائيل، قيل لعمرة: أو مُنِعْن؟ قالت: نعم[4].

فمن هذه النصوص السابقة، علمنا ما هي فتنة نساء بني اسرائيل، وكيف عمت مجتمعاتهم الفساد.

---

[1] رواه ابن خزيمة. خاتما له غلق وطبق: أي له غطاء وفارغ من الداخل أجوف

[2] رواه الطبراني. ألقى عليهن الحيض: أي أصبح مستمرا فلم يعدن يطهرن، عقوبة لهن بما كسبن.

[3] رواه ابن ماجة.

[4] رواه أبو داود في سننه ومالك في الموطأ.

لقد أصاب أغنياءهم الترف والبذخ والفساد، وانجروا وراء نسائهم فأطاعوهن، وانحرفوا عن تطبيق أوامر شريعتهم التي تأمرهم بالعفة والحياء والستر والحشمة، حتى وصل فسادهن إلى ذهابهن إلى صلواتهن، بالزينة متعطرات، في مشيتهن التبختر والتمايل في الطريق، لإضلال الرجال وملاقاة الخليل.

حتى قلد فقراؤهم أغنياءهم، فكلفت النساء رجالهن ما هو فوق طاقتهم بالطلبات، وطغين كما طغت نساء الأغنياء، ففتحنَ على ازواجهن أبواب الديون والكذب ومجاراة المجتمع المترف، فعمّ الفساد في المجتمع كله، بأغنيائه وفقرائه، حتى كانت المرأة منهن تتفنن في افتتان الرجال، وتحتال وتفكر لاختراع الطرق لجذبهم واغوائهم، باللباس والعطر والجواهر المصنعة خصيصا لذلك، وبطريقة المشي المائلة المميلة، يضربن بنعالهن الأرض، حتى أن القصيرة فيهن كانت تحتال بلباس نعل له كعب طويل حتى تبدو كصاحباتها في الطول، حتى لا تخسر نصيبها من الإغواء والإمالة، فانتشرت الرذائل، وتفشى الخنا، ولم ينكر المنكرون عليهم سوء أعمالهم، حتى استحقوا الهلاك بما كسبوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، يسلبونهم الأموال ويسبون النساء، ويشردون بهم شرّ مشرد، كما فعل بهم الآشوريون والبابليون والرومان وغيرهم.

فأشفق رسول الله ﷺ على أمته أن تفعل النساء من أمته ما فعلت نساء بني اسرائيل، فحذر أمته من ذلك، حتى لا يستحقوا ما استحق بنو اسرائيل من عذاب وعقاب رباني، فقال ﷺ: (**اتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**)[1].

---

[1] رواه مسلم.

لقد جاء تحذير النبي ﷺ لأمته، بعد أن رأى أن أكثر أهل النار من النساء، فخشي عليهن تقليد نساء بني إسرائيل، فجاء تحذيره شديد اللهجة بلعن أصناف معينة من النساء، وأخبر أنهن لن يجدن ريح الجنة، مع أن ريحها يصل إلى مسافات بعيدة جدا، وفي هذا إشارة على عظم جريمتهن وبعدهن عن الجنة.

قال ﷺ: (**سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المسجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم**).[1]

هذا الصنف من النساء، الأولى بهن أن يكن كالجوار للأمم الأخرى، لأن الحرائر من المؤمنات لا يفعلن ذلك، بل هن عفيفات طاهرات، لباسهن التقوى والحياء.

ولا تهاون في الغيرة والعفة والحياء، وفي اختيار اللباس الساتر، فهذه الأشياء إما أن تكون سبباً إلى جهنم، والعياذ بالله، وإما أن تكون سبباً للفلاح يوم القيامة ورضوان الله تعالى.

قال ﷺ: (**إذا رأيتم اللاتي ألقين على رؤوسهن مثل أسنمة البخت، فأعلموهن أنه لا تقبل لهن صلاة**).[2]

ولقي أبو هريرة رضي الله عنه امرأة متطيبة تريد المسجد، فقال: يا أمة الجبار أين تريدين؟ قالت: المسجد، قال: وله تطيبت؟ قالت: نعم، قال: فإني سمعت رسول

[1] رواه الإمام أحمد، والطبراني وابن حبان.
[2] رواه البزار والطبراني.

الله ﷺ يقول: (**أيما امرأة تطيبت ثم خرجت إلى المسجد لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل**)[1].

وقال رسول الله ﷺ: (**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهنّ كأسنمة الـبُخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا**)[2].

ولا أظننا اليوم نحتاج إلى كتب شروح الأحاديث والمعاجم اللغوية، لاستخراج معاني: (مائلات مميلات؛ كاسيات عاريات، رؤوسهن كأسنمة البخت..) وغيرها من هذه الألفاظ المذكورة في هذه الأحاديث التي تعتبر من معجزات ودلائل النبوة، فقد وقع للأسف ما أخبر عنه المصطفى ﷺ، وبتنا نشاهد هذه الصفات في المجتمعات العربية، فقلدن نساء الغرب، وتشبهن بالرجال، وظهرت المائلات المميلات، وظهرت اللواتي رؤوسهن كأسنمة البخت، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: (يأتي على الناس زمان همتهم بطونهم، وشرفهم متاعهم، وقبلتهم نساؤهم، ودينهم دراهمهم أولئك شر الخلق لا خلاق لهم عند الله).

فهل بقي بعد هذا الكلام حاجة لأي دليل يفضح ألاعيب وأباطيل وإضلال هؤلاء المنادين بحرية المرأة وخروجها إلى الميادين ومساواتها بالرجال.

قال تعالى: ﴿**وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ**﴾ [النور:٣١]

---

[1] رواه ابن ماجة.
[2] رواه مسلم.

وأخيرا؛ فلنستمع إلى نصيحة من بيت النبوة الطاهر، من إحدى سيدات العالمين، ماذا تقول لنساء الأمة:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه كان عند النبي ﷺ فقال: أي شيء خير للمرأة؟ فسكتوا، فلما رجعت قلت لفاطمة: أي شيء خير للنساء؟ قالت: ألا يراهن الرجال، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: (**إنها فاطمة بضعة مني. وفي رواية قالت: خير للنساء ألا يرين الرجال، ولا يرونهن**).[1]

ثانيا- فتنة النساء بين دعاة الغرب وأتباعهم من أبناء جلدتنا:

بعد أن عرفنا دور الإسلام في التحذير من فتنة النساء، دعونا نرى دور دعاة تحرير المرأة وأهدافهم الخبيثة، ثم نطلع على إحصائيات قاموا بها هم أنفسهم، لنرى نتيجة دعوتهم عليهم في بلادهم، وأن هذا ما يريدونه للأمة.

وكانت دعاوي تحرير المرأة قد بدأت بالظهور في الدول العربية، بعد الإرساليات الدراسية والبعوث إلى دول أوروبا، والتي كانت في زمن محمد علي باشا، فتأثر هؤلاء المبعوثون بمشاهداتهم في دول الغرب، وبالفارق الكبير بين ما تعودوا عليه من مبادئ وتشريعات وعادات في بلدانهم، وبين ما شاهدوه من انحلال وانحطاط أخلاقي ممزوج بالتقدم العمراني والتقني في الغرب، بالإضافة إلى تأثرهم بمن تولوا عمليات تدريسهم من الفلاسفة المستشرقين المبطنين العداء للإسلام، خاصة وأن أكثر المبتعثين من الشباب الغض الطري القابل للتغرير به بما يزينه لهم الغربيون من سحر الكلام والأسلوب بما لم يعتادوا عليه، فكان أنه لما عادوا، أول ما بدؤوا به من مؤلفات تناولت قضايا تحرير المرأة التي لم تكن قد تم تناولها من قبل، فقاموا بالدعوة إلى نزع الحجاب والاختلاط ومساواة المرأة بالرجل وما شابه من

[1] قال في مجمع الفوائد: رواه البزار وأبو نعيم في الحلية.

دعوات تلقوا مبادئها من المستشرقين، وكان من هؤلاء؛ رفاعة الطهطاوي الذي كتب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، ثم ظهر من بعده قاسم أمين صاحب "تحرير المرأة" وطلعت حرب صاحب "تربية المرأة والحجاب" و"فصل الخطاب في المرأة والحجاب" وطه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" و "في الشعر الجاهلي" الذي أخذه عن استاذه المستشرق اليهودي ديفيد مارجيليوث عن كتابه "نشأة الشعر الجاهلي".

إن دعاة التحرير والمساواة والاختلاط من أبناء أمتنا، ما هم – للأسف – إلا مجرد مرددين كالببغاء لما يملى عليهم من أسيادهم ومموليهم، فإما أنا يكونوا جهلة مخدوعون ومغرراً بهم؛ وهذا مستبعد لأن الردود عليهم في كل مكان وزمان، أقوى من شبهاتهم وأكاذيبهم، وإما أن يكونوا مشتركين معهم في الجريمة، مستفيدين من الشهرة والأموال الباطلة التي تصلهم، دون أن يكترثوا لجرائم أفعالهم وإفسادهم في الأرض.

ثم إذا عرفنا أن بداية الدعوة بتحرير المرأة في أوروبا منذ حوالي خمسة قرون، كانت بدافع القهر والتهميش والمهانة التي كانت تكابدها المرأة في بلادهم، فسعين إلى نيل حقوقهن وكرامتهن، التي سلبتها منهن القوانين والأعراف والتقاليد الجائرة في بلدانهن، في حين كانت المرأة المسلمة تسبقهم بقرون طويلة، في نيل حقوقها ومكانتها التي ترفل بها، بما وهبها إياها مالك الملك الخبير العزيز سبحانه وتعالى.

فإذا علمنا ذلك، أدركنا أنهن محقات في مطالباتهن، وثوراتهن التي قمن بها لأجل بلوغ ما بلغت المسلمات، يقول الدكتور نور الدين عتر: (وظلت النساء طبقا للقانون الانكليزي العام – حتى منتصف القرن الماضي – (الحادي عشر) تقريبا؛ غير معدودات من الأشخاص أو المواطنين الذين اصطلح القانون على تسميتهم بهذا

الاسم، لذلك لم يكن لهن حقوق شخصية، ولا حق في الأموال التي يكتسبنها، ولا حق ملكية في شيء، حتى الملابس التي كن يلبسنها).[1]

في هذه الحالة؛ أليس من حقهن أن يقمن بثورات، ويكتبن الروايات والكتب، حتى يحصلن على حقوقهن المسلوبة؟! لا شك أنه حقهن، بل لقد كانت معاناتهن أبعد من ذلك، لقد كان الرجال يبيعونهن ويشترونهن كأنهن البهائم، فهل عرف دعاة تحرير المرأة من أبناء جلدتنا هذه المعلومات قبل أن يسلطوا أقلامهم على أن الإسلام دين الجواري والإماء وأسواق النخاسة؟! أم أن أسيادهم لم يخبروهم بذلك؟

يقول الدكتور نور الدين عتر نقلا عن هربرت سبنسر الفيلسوف الإنكليزي: (إن الزوجات كانت تباع في إنكلترا فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر...، وشر من ذلك، ما كان للشريف – أي النبيل روحانيا أو زمنيا – من الحق في الاستمتاع بامرأة الفلاح إلى مدة أربع وعشرين ساعة من بعد عقد زواجها عليه – أي على الفلاح – وفي سنة ١٥٦٧ صدر قرار البرلمان الاسكوتلندي بأن المرأة لا يجوز أن تمنح أي سلطة على أي شيء من الأشياء).[2]

بل وحتى لا يقال إن هذا كان منذ قرون طويلة، فها هو الدكتور العتر ينقل عن الشيخ محمد رشيد رضا: (من الغرائب التي نقلت عن بعض صحف إنكلترا في هذه الأيام أنه لايزال يوجد في بلاد الأرياف الإنكليزية رجال يبيعون نساءهم بثمن بخس جدا، كثلاثين شلنا، وقد ذكرت الصحف الإنكليزية أسماء بعضهم).

بينما نجد في الإسلام امرأة تقف تحاجج أمير المؤمنين في أمر المهور، فيأخذ برأيها ويتراجع عن قراره، لما علم أن الإسلام يقرر حقوق المرأة في التملك والاستقلالية في

---

[1] ماذا عن المرأة، الدكتور نور الدين عتر، ص: ٢٣

[2] المصدر السابق، نقلا عن كتاب "وصف علم الاجتماع" لسبنسر.

التصرف بأموالها، وهو حق من خالقها، لا منة لأحد عليها، قال تعالى: ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [النساء:٣٢]

بل ولا أبالغ إن قلت إن الغرب اليوم في مسألة حقوق المرأة والمحافظة على حيائها وصيانتها من الرذائل، لم يصل حتى إلى ما كانت عليه أخلاق الجاهلية قبل الإسلام، فجميعنا نقرأ في أدبيات الجاهلية قول عنترة: وأغض طرفي إن بدت لي حارتي   حتى يواري جارتي مأواها

ونقرأ لحاتم الطائي: إذا ما بت أختل عرس جاري   ليخفيني الظلام فلا خفيت

أأفضح جارتي وأخون جاري   فلا والله أفعل ما حييـــت

ودعونا نقرأ ما خطه الدكتور محمد عمارة في مقال مختصر عن كتابه" ..." قائلا:

(في التحرير الإسلامي للمرأة تأسست فلسفة هذا التحرير على فطرة التكامل بين الرجال والنساء، فالمساواة هي مساواة الشقين المتكاملين، لتكون المرأة سكنا للرجل، وليدوم الشوق والاشتياق بينهما، وليست مساواة الندين المتماثلين المتنافرين، كما هو مفهومها في فكر الحداثة الغربية وما بعدها.

ومن أمثلة هذه المفاهيم الحداثية الغربية، ما قاله أبو النزعة الأنثوية الفرنسية "فورييه" (١٧٧٢ – ١٨٣٧م) "الذي دعا إلى تحرير المرأة على كل الأصعدة: البيتي والمهني والمدني والجنسي، وقال: "إن العائلة تكاد تشكل سدا في وجه التقدم"!

وما قاله "ماركيوز – هربرت" (١٨٩٨ – ١٩٧٠م) الذي دعا إلى التركيز وتأكيد انعتاق الغرائز الجنسية، وإطلاق الحرية الجنسية بلا حدود، سواء من ناحية

الكم أم الكيف"، أي حتى الشذوذ!، بل وتمجيد الشذوذ باعتباره ثورةً وتمرداً ضد القمع الجنسي وضد مؤسسات القمع الجنسي، معتبرا التحرر الجنسي عنصرا مكملا ومتمما لعملية التحرر الاجتماعي، ورافضا ربط الجنس بالتناسل والإنجاب"!

وما قاله "فوكو - ميشيل" (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) الذي تساءل: "لماذا يُجعل السلوك الجنسي مسألة أخلاقية؟! ومسألة أخلاقية مهمة؟!".

وما قالته "سيمون دي بوفوار" (١٩٠٨ - ١٩٨٦م) من "أن الزواج هو السجن الأبدي للمرأة، يقطع آمالها وأحلامها"!، "وأن مؤسسة الزواج مؤسسة لقهر المرأة، يجب هدمها"!، "وإنه لا يولد المرء امرأة، بل يصير كذلك، وسلوك المرأة لا تفرضه عليها هرمونات ولا تكوين دماغها، بل هو نتيجة لوضعها"!.

"ولقد كان الدين محايدا عندما لم يكن للآلهة جنس، ثم انحاز الدين للمرأة عندما أصبحت الآلهة إناثا، ثم تحول الدين إلى عدو للمرأة بسبب التفسيرات الذكورية للدين"!.

"والمرأة مالكة لجسدها وحرة فيه، تتصرف فيه جنسيا كما تشاء ووفق ما تشاء، بما في ذلك حرية التصرف في الجنين - الإجهاض - لأنه جزء من جسدها، فالتعبير الحر عن الجنس هو جزء من الحرية، حتى لو اتخذ شكل الشذوذ السحاقي، وحتى لو اتخذ شكل احتراف البغاء، طالما خلا هذا الاحتراف للبغاء من الاستغلال التجاري".!

"والغيرة عاطفة برجوازية ينبغي التخلص منها"، "والحياء: مرض يجب التخلص منه".. "والعفة: تخلف وكبت للحرية الجنسية! ولابد من تجريد الحب من أية ضوابط، باستثناء العاطفة والشهوة"!

"ويجب تقرير حرية الاقتران وحرية الافتراق بين أي فردين في أي لحظة"!، "والأمومة: قوالب جامدة وجائرة، لأنها لا تحقق للمرأة عائدا ماديا"! "والإنجاب: هو عبودية التناسل"! "وتربية الأطفال: مسؤولية الدولة والمجتمع، لا المرأة والأسرة".

تلك هي الفلسفة الشيطانية التي دعت إليها الحداثة وما بعد الحداثة الغربية باسم تحرير المرأة، وهي الفلسفة التي هدمت الأسرة وأشاعت الشذوذ الجنسي، فجعلت المجتمعات الأوربية تعاني من فقر المواليد، إذ أصبحت نسبة الوفيات فيها أعلى من نسبة المواليد، حتى لتقول الإحصاءات إن هذه المجتمعات مهددة بأن تتحول إلى دور للمسنين! وحتى أن نسبة الرجل الأبيض - الذي تبنى هذه الفلسفة الشيطانية قد تراجعت من ٢٨٪ من سكان العالم عام ١٩١٥ إلى ١٨٪ من سكان العالم عام ٢٠١٥! الأمر الذي أزعج اليمين العنصري في أوروبا، لكن دون أن يجرؤ على مراجعة هذه الفلسفة الشيطانية، ودون أن يقدم البديل الذي يحول بين حضارته وبين الغروب).

وبعد هذا النقل من أفكار فلاسفتهم ونظرياتهم المعادية لأقل مستويات الإنسانية، دعونا نطالع بعض نتائج هذه الأفكار والنظريات، من خلال بعض الإحصاءات الرسمية التي تقوم بها مؤسساتهم، لرصد حالة المجتمع في بلدانهم:

- إحصائيات لنتائج تحرر المرأة في الغرب: على الرغم من الحرية والديمقراطية والتنوير والانفتاح على الآخر وحقوق المرأة ومساواتها بالرجل في الغرب، الا أنهم لم يصلوا بعد إلى أخلاق الجاهلية في العفة والمروءة والنخوة والحياء..

وهذه إحصائيات صادرة عن مراكز بحثية وهيئات غربية متعددة عن معدّلات التحرش الجنسي والاغتصاب في الغرب. تبيّن أنّ أرض الحضارة والفكر والتنوير المزعومة ما تزال تعاني من مشكلة في أخلاقياتها..

ونبدأ من: الولايات المتّحدة: إحصائيات عام ١٩٩٨:

تقول الدراسات: أنه في كل ٩٨ ثانية هناك اعتداء جنسي على شخص. فوسطيا يوجد ٣٢٠٠٠٠ في كل سنة ضحية للاعتداءات الجنسية أو التحرّش. منهم:

٥٤٪ بين عمر ١٨-٣٤ سنة. و١٥٪ بين ٢ - ١٧ سنة.

كل ١ من بين كلّ ٣ نساء يتعرّضنْ للتحرّش مرّة واحدة على الأقل في عملهن.

إحصائيات ٢٠١٥: ٢٠٪ من جميع نساء أمريكا تعرّضنْ للاغتصاب.

يبلغ تعدادهن حوالي الـ٢ , ٣٢ مليون امرأة، ما يعني أنّ خُمس نساء أمريكا مغتصبات.

الفتيات بين عمر ١٦-١٩ عامًا معرّضات ٤ مرات أكثر للاعتداءات الجنسية المختلفة.

ملاحظة: ٨٣٪ من حالات الاغتصاب لا يتم الإبلاغ عنها إلى الشرطة.

التحرّش الجنسي: تتعرض ٨٨٪ من الأمريكيات إلى التحرّش الجنسي مرّة واحدة على الأقل في حياتهن. ٢٥٪ من قبل زميل في العمل.

على الجانب الاقتصادي:

بلغت تعويضات ودعم المغتصبات من طرف الولايات المتّحدة إلى ١٥٠ ألف دولار. وتدفع سنويا:

١٢٧ مليار دولار: تكلفة برامج الدعم الصحي والنفسي لضحايا الاغتصاب والجرائم الأخرى المتعلقة بها. ٩٣ مليار دولار: للاعتداءات العامّة. ٧١ مليار دولار: لجرائم القتل. ٢ ٪ من جميع رجال أمريكا تعرّضوا للاغتصاب. ما يقدّر بحوالي ٣ مليون رجل أمريكي.

وعلى مدى حياة الفرد، يتعرّض ٩, ٤٣٪ من نساء أمريكا و٤, ٢٣٪ من رجالها إلى أشكالٍ أخرى من الاعتداءات الجنسية خلال حياتهم. الصورة التالية تفصيلية حسب كل ولاية:

- ٢٥ ٪ من جميع فتيات الولايات المتّحدة يتعرضن للاعتداءات والتحرشات الجنسية.

- ١٥ ٪ من الصبيان يتعرّضون للاعتداءات الجنسية قبل بلوغهم الثامنة عشرة من العمر.

- ٣٤ ٪ من هؤلاء المُتحرّشن بالأطفال هم من ضمن نطاق العائلة نفسها.

_ أوروبا: - في العاصمة البريطانية لندن في العام ٢٠١٢: تعرّضت أكثر من ٤٠ ٪ من النساء للتحرش الجسدي في الشوارع خلال العام الذي سبق.

وبحسب تقرير منفصل لمؤسسة "Stop Street Harassment" البريطانية، تعرّضت ٣٥ ٪ من النساء في بريطانيا للمس بشكل جنسي غير مرغوب به في حياتهن.

السويد: أكثر دولة أوروبية يتعرّض نساؤها للتحرّشات الجنسية في كامل أوروبا بنسبة ٨١٪. في ٢٠١٢، كانت السويد صاحبة لقب أكبر معدّل اغتصاب في العالم بأسره:

٦٦,٥ ٪ حالة في كل ١٠٠٠٠٠ نسمة.

الدنمارك: - ٨٠٪ من نساء الدنمارك تعرّضنْ للتحرش أو المضايقات الجنسية مرّة واحدة على الأقل في حياتهن، وهو معدلٌ يفوق ذاك الموجود في الهند أو باكستان (٧٠٪ في الهند).

فبحسب مسحٍ واسع أجرته "وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية" في العام ٢٠١٢: في الدنمارك؛ بلغ عدد النساء اللواتي عانين من التحرش نسبة ٥٢ في المائة، وهي النسبة الأعلى أوروبياً.

فرنسا: ٧٥٪، هولندا: ٧٣٪، فنلندا: ٧١٪، بريطانيا: ٦٨٪.

- ٥٥ ٪ متوسّط معدّل المضايقات الجنسية والتحرّش العام في القارّة.

أمّا الاعتداءات الجنسية الجسدية المباشرة:

الدانمارك: ٥٢٪ من النساء - فنلندا: ٤٨٪ من النساء - السويد: ٤٦٪ من النساء، على الأقل مرّة واحدة في حياتهنْ. - ٣٣ ٪ متوسّط الاعتداءات الجنسية الجسدية في القارّة.

- التحرّش بالقاصرين قبل ١٥ سنة:

- ٥١٪ من فتيات فنلندا - ٤٨٪ من إستونيا - ٤٤٪ من فرنسا - ٤٣٪ من لوكسمبورغ - ١٠٪ من ألمانيا.

كندا: سنة ٢٠١٤: - ٣٧٪ من نساء كندا - ٥٪ من رجالها - عدد البلاغات الصادرة عن النساء في نفس العام ٥٥٣ ألفًا: - ٧١٪ بين الـ١٥ والـ٢٤ سنة.

علما أنه: ٦٪ فقط من حالات الاعتداء يتم الإبلاغ عنها إلى الشرطة.

- ١٥٪ من نساء الجيش الكندي تعرّضنْ لمرّة واحدة على الأقل لاعتداء أو تحرّش جنسي أثناء فترة خدمتهن.

– معدّلات التحرش والاعتداءات الجنسية ما تزال هي نفسها منذ العام ١٩٩٩ وصولًا إلى العام ٢٠١٥. وهو النوع الوحيد من الجرائم الذي لا يتقلّص معدّله في كندا.

أستراليا: وفقًا لإحصائية مفوضية حقوق الإنسان الأسترالية الصادرة عام ٢٠٠٨ فإن من تعرّضوا لمضايقات جنسية لمرّة واحدة على الأقل في عملهم:

– ٢٢ ٪ من النساء – ٥ ٪ من الرجال.

❋ المعدّل العام:

– واحدة من بين كلّ ٣ نساء أستراليات تعرّضنْ للتحرّش مرّة واحدة على الأقل في حياتهن.

– ٦٥ ٪ من هذه الحالات كانت أثناء عملهن. حوالي نصفهم قالوا أنهم رأوا آخرين يتعرّضون للتحرّش في نفس مكان العمل.

– إحصائيات ٢٠٠٣: – ٩١,٦ حالات اغتصاب من كل ١٠٠ ألف نسمة.

– معدل الإبلاغ عن حالات التحرّش والاعتداءات الجنسية في تناقصٍ مستمر بدلًا من أن يكون في تزايد: – ٣٢٪ من الأشخاص الذين تعرّضوا للمضايقات الجنسية في العمل عام ٢٠٠٣ قاموا بالإبلاغ عنها فقط. بينما تراجع هذا المعدّل إلى ١٦٪ في ٢٠٠٨. هذا يعني أنّ ٨٤٪ من هذه الحالات لا يتم الإبلاغ عنها[1].

---

[1] المصادر:

- إحصائيات عن العنف والاغتصاب في أمريكا / وزارة العدل الأمريكية.

- إحصائيات عن العنف الجنسي في الولايات المتّحدة / مركز الأبحاث الأمريكي الوطني للاعتداءات الجنسية.

- ٢٣ إحصائية عن التحرّش الجنسي في أماكن العمل ^ Brandon Gaille.

ثانيا: فتنة الأموال:

المال من المحببات إلى قلوب البشر، وهو من الشهوات التي ذكرتها الآية الكريمة، بل هو مما يتملك القلوب تملكاً جمّاً، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]، وهذا الحب فطري، جبلت عليه غرائز الإنسان، لأنه من أهم مقومات الحياة، وأساسيات التقدم والازدهار، ولا يستغني عنه البشر في حياتهم الخاصة وفي عمارة الأرض.

والمال حقيقة هو لله تعالى، وما الإنسان إلا مستأمن عليه، فمستودع عنده في حياته، مفارق له بعد مماته، مسؤول عنه يوم حسابه، فناج أو هالك، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣]، ولكنه بملك الإنسان بما ملكه له الرزاق سبحانه وتعالى، وهو إذا شاء أخذه منه، ولا يملك الإنسان من دفع ذلك شيئا.

وليس كثرة المال دليلاً على حبّ الله تعالى، ولا المنع دليل على عدم محبة الله للعبد، قال ﷺ: (**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب**)[١].

- واحدة من كلّ ٤ نساء يبلغن عن المضايقات الجنسية في العمل / أخبار ABC.
- استبيان العنف ضدّ النساء / وكالة الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية.
- العنف الجنسي في أوروبا/ ورقة بحثية من جامعة برغام يونغ الأمريكية.
- الاعتداءات الجنسية في كندا / Sex Assault.
- ورقة الحقيقة عن الاعتداءات الجنسية والتحرّش في كندا / مؤسسة النساء الكندييات.
- الاعتداء الجنسي: كم هو شائعٌ في أستراليا / SBS.
- معدّلات التحرش والمضايقات الجنسية / مفوضية حقوق الإنسان في كندا.
- نشر الاثنين، ٢٧ نوفمبر / تشرين الثاني ٢٠١٧: ماذا تعرف عن حقيقة التحرّش الجنسي؟ (CN N).

[١] رواه الإمام أحمد والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

والفتنة في المال بحسب التعامل معه، فليس المال فتنة في ذاته، فقد يكون المال صالحاً مصلحاً، وقد يكون فاسداً مفسداً، (**نعم المال الصالح للرجل الصالح**)[1]، فالفتنة إذاً في كيفية التعامل مع المال، قال ﷺ: (**لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**)[2].

والمال مما يبتلى به الناس، **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾** [آل عمران:١٨٦]، **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين﴾** [البقرة:١٥٥]

والابتلاء بالمال يكون بالكثرة والقلة، بالمنح والعطاء، فإذا شكر المسلم في الكثرة وأدى حقه نجا من أن يتحول الابتلاء إلى فتنة، وإن طغى وبغى وحصله من حرام أو استعمله في منهي، تحول الابتلاء إلى فتنة، وكان رسول الله ﷺ يتعوذ من فتنتي الغنى والفقر: (**اللهم إني أعوذ بك من فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر**)[3].

وسوف نتناول قضية فتنة المال في أربعة محاور:

الأول: الفتنة في حب المال:

فمن الفطرة الإنسانية، أن النفس متعلقة بحب المال، فيغدو الإنسان حريصاً على جمعه وتكثيره، ولا يكتفي بقدر محدد، بل يسعى دائماً للمزيد منه، إلا من رحم ربي من أهل الزهد، قال تعالى: **﴿وتُحبّون المالَ حبّاً جمّاً﴾**، وقال ﷺ: (**لو أن لابن آدم وادياً من ذهب، أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**)[4]. وقال ﷺ: (**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر**)[5].

---

[1] رواه الإمام أحمد والطبراني في الكبير والأوسط وصححه العراقي.
[2] رواه الترمذي وأحمد وابن حبان والحاكم وصححه.
[3] رواه البخاري.
[4] رواه البخاري.
[5] رواه البخاري.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده، ورزقه ليشكره، فإن انشغل المرء بالرزق عن الرازق، والهبة عن الواهب، أصبح عبداً للمال لا لرب المال سبحانه.

وحب المال درجات، كما أن القناعة درجات، فقد يطغى حب المال على القلب حتى يصبح الاعتقاد فيه بأنه سبب السعادة والشقاء، وبأنه سبب الفلاح والنجاح، فيصبح المرء عبداً له، شعر بذلك أم لم يشعر، قال ﷺ: **(تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط)**[1]. فسماه عبداً للمال، ولو كان أقل ما يسمى مالاً، وهذا عندما يتملك المال القلب فيتحكم بصاحبه، بسيره بسيطرته على هواه، كما قال الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته   فإذا أنفقته فالمال لك

ومن فتنة المال في هذا الإطار، ما وقع فيه الكثير من الناس، ممن جعل من المال الميزان الذي يقيس الناس به، فيقيم الناس منازلهم بحسب ما يمتلكون منه، فيغض الطرف عن مساوئ الرجل في الأخلاق والتعامل والدين، إذا كان من الأثرياء، حتى لو كان ثراؤه شبهة، فيجله ويحترمه لأجل ماله، لا لأجل دينه وأخلاقه.

الثاني- الفتنة من حيث تحصيل المال:

فلكون القلب متعلقاً بالمال، ولكون المال يلبي احتياجات الإنسان، الضرورية والكمالية، فإن الإنسان قد يشغف في طلبه ويحرص على تكثيره، ولو خالف دينه، طمعا في الجاه والمكانة، قال ﷺ: **(ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، أفسد من حرص المرء على المال والشرف لدينه)**[2].

[1] رواه البخاري.
[2] رواه أحمد والترمذي وابن حبان.

فعندما يصبح المال هدفا في حد ذاته، وليس مجرد وسيلة، تعين على رضوان الله تعالى وتحقيق أوامره، بما يوصل إلى إعمار الدنيا والخلود في الآخرة، عندها يكون المرء قد وقع في فتنة جني الأموال، فلا يعد يبالي أمن حلال أم من حرام، قال ﷺ: (**يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال، أمن حلال أم من حرام**)[1]. فمن طرق الحرام؛ الكذب والتدليس والغش والاحتيال والسرقة والاختلاس والحيف في الميراث وشهادة الزور وما لا يستحقه من عطايا السلطان، والأجر الفاحش المبالغ فيه، والميل على أرض الجار، وأكل حقوق الناس، والغلول من الغنائم، وأكل مال اليتيم، والقمار والميسر، والغصب، وغيرها مما نهى الله ورسوله عنه.

الثالث- الفتنة في التنافس على المال:

ما هو التنافس الذي ينبذه الإسلام؟ وأين الفتنة فيه؟

لا شك أن التنافس المحمود في الأعمال الصالحة للوصول إلى رضا الله وإلى جنات الخلد، ففي ذلك فليتنافس المتنافسون، أما التنافس في الدنيا للدنيا، فهذا ما حذر منه الإسلام، لأن هذا التنافس هو أول خطوات التباغض والانقسام، ونهايته إلى الظلم والخسران.

قال ﷺ: (**فأبشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلتكم**)[2].

[1] رواه البخاري والنسائي.
[2] رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة.

والتنافس إلى الشيء: هو المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه، فالتنافس على الدنيا، هو المسابقة لنيلها والاستحواذ عليها قبل أن يصل إليها الغير، لذا فإن جميع أدواتها منبوذة، وهي الشح والبخل والحسد والطمع.

قال ﷺ: (**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟ قال عبد الرحمن بن عوف: نكون كما أمر الله: فقال النبي ﷺ: أو غير ذلك؟ تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**)[1].

وهذا الحديث من دلائل النبوة، فسبحان من علم نبيه ﷺ وآتاه جوامع الكلم، ففي هذا الحديث قاعدة لعلم النفس، ومنطلق لعلم الاجتماع، ففيه ترتيب دقيق في التدرج نحو الهلاك، لا يعرف سره ولا يتقن قوله إلا نبي معلم.

قال النووي: (قال العلماء: التنافس إلى الشيء: المسابقة إليه، وكراهة أخذ غيرك إياه، وهو أول درجات الحسد، وأما الحسد فهو تمني زوال النعمة عن صاحبها، والتدابر: التقاطع، وقد بقي مع التدابر شيء من المودة، أو لا يكون مودة وبغض، وأما التباغض فهو بعد هذا، ولهذا رتبت في الحديث، ثم ينطلقون في مساكين المهاجرين أي: ضعفائهم، فيجعلون بعضهم أمراء على بعض، هكذا فسروه).

وحتى تكتمل الصورة في أذهاننا، فلا يستهين أحد بالبغضاء وما تؤول إليه نتائجها، فلنقرأ هذا الحديث الذي فيه مآل البغضاء، وفيه الوقاية من هذا الداء، قال ﷺ: (**دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبَغْضَاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق**

[1] رواه مسلم وان ماجة.

الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أُنبِّئكم بما يثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السَّلام بينكم)[1].

إذاً، فالتنافس على الدنيا يؤدي إلى حسد الآخرين، وقد يكون هؤلاء الآخرون هم من الأهل والأصدقاء والجيران وزملاء العمل، وقد لا يشعر المرء بذلك لجهله خطورة العواقب، لذا فقد عبر النبي ﷺ عن دخول الحسد والبغضاء إلى القلوب بقوله: (دبَّ): وهو ما يشعر بتسلل ذلك إلى القلب خفية، وفي هذا إعجاز نبوي في دقة البيان، والحسد شيء معنوي غير ملموس، أما البغضاء فعلاماته ظاهرة الطرفين، ولكنه أيضا مرض من أمراض القلوب، يدب إليها في خفاء.

فيؤدي الحسد بدوره إلى قطع أوصال الرحم والجيران والأصدقاء، فإذا حدث ذلك، فأي معنى للعيشة حينئذ؟ فليس بعده إلا التباغض، وهو داء عضال نتيجته البطر والطغيان والظلم، ثم يحدث الهرج والقتل، من أجل الفوز بهذا التنافس البغيض، وعندها تقع الفتنة في المجتمعات، وهذه كفيلة أن ترفع الرحمة عن أهلها، فتحدث الهلكة عقوبة لهم، والعياذ بالله. قال المناوي في شرحه: (قال الطِّيبيُّ: أي: البَغْضاء تُذْهِب بالدِّين كالموسى تُذْهِب بالشَّعر).

قال ﷺ: (**سيصيب أمَّتي داء الأمم، قالوا: يا نبيَّ الله، وما داء الأمم؟ قال: الأَشَرُ والبَطَرُ، والتَّكاثر والتشاحن في الدُّنيا، والتَّباغض، والتَّحاسد حتى يكون البغي ثمَّ الهرج**)[2].

قال المناوي: (الأَشَر أي: كُفر النِّعمة. والبَطَر: الطُّغيان عند النِّعمة، وشدَّة المَرَح والفرح، وطول الغنى والتَّكاثر مع جمع المال. والتَّشاحن أي: التَّعادي والتَّحاقد

[1] رواه الترمذي وأحمد والبيهقي وقال المنذري: رواه أحمد والبزار بإسناد صحيح جيد.
[2] رواه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك وصحح.

في الدُّنيا والتَّباغض. والتَّحاسد أي: تمنِّي زوال نعمة الغير. حتى يكون البغي. أي: مجاوزة الحدِّ، وهو تحذيرٌ شديدٌ مِن التَّنافس في الدُّنيا؛ لأنَّها أساس الآفات، ورأس الخطيئات، وأصل الفتن، وعنه تنشأ الشُّرور).

عندما يكون طريق جني المال على حساب أعراض ودماء وحقوق الآخرين، لا يبالي المرء إن جناه بالقتل أو السلب أو بما يمس أعراض الناس، فإن هذا الطريق هو طريق الهلاك والخسران، إلا لمن آمن وتاب وأعاد الحقوق لأصحابها.

قد يكون التنافس من خلال بذل الجهد في إحدى هذه الحالات، فيقتل في سبيل المال، أو يسعى في نشر الفساد والرذيلة من خلال المشاركة مثلاً في الأفلام المنحطة والأغاني الهابطة، أو المسلسلات الداعية إلى الانحلال الأخلاقي، في التمثيل فيه أو الإنتاج والتصوير والتأليف أو في كل ما يساعد على إعداده ونشره، بما يفسد أخلاق المجتمع والأسرة والفرد، ﴿**وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة:٢]، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النور:١٩]

<u>الرابع- الفتنة من حيث كنزه والإمساك عن إنفاقه</u>: ووجوه الإنفاق معروفة في الشرع، فأما مصارف الزكاة الثمانية فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة:٦٠]

ولكن الزكاة ليست هي الوحيدة التي أمر الله بأدائها، بل لقد حث الإسلام على الإنفاق والجود والكرم والتصدق في الخير بما ينفع الناس، وحذر من البخل والشح والإعراض عن التفاعل مع المجتمع، كل بقدر استطاعته.

ومن فتن المال التي وقع فيها الكثير ممن طغى حب المال على قلبه، البخل والمن، فالأول بخل بما أعطاه الله وفرضه عليه، فافتتن بالمال وآثره على ما أمره الله به.

والثاني أعطى – ولا أدري إن جاز لي أن أقول: وليته ما أعطى – فهو أعطى ولكنه أتبع عطائه بالمن والأذى، افتتن بالمال فظن أنه هو المعطي الرزاق، فأطغاه كبره بسبب المال.

فالبخيل والمنان، لا أدري أيهما فتنته أكبر من الآخر! فالأول سيطوقه بخله بثعبان أقرع يوم القيامة. والثاني أبطل صدقاته بمنه، فلا يكلمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكيه يوم القيامة وله عذاب أليم. فقد قال تعالى في الأول: **﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠]**

ولم يتنبه البخيل إلى أن من سلم من الشح فقد أفلح ونجح. قال تعالى: **﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** التغابن١٦.

فالبخل من أسباب قطيعة الرحم وتفتت المجتمع، ولو أنفق الأثرياء لزالت الكثير الكثير من المشاكل في المجتمعات، فيجد المريض من يساعده في مصاريف علاجه، ويجد الفقير ما يكفيه مؤونة السؤال أو الانحراف، ويجد طالب العلم من ينفق عليه حتى يوصل علمه للناس فيحارب الجهل، والكثير من المشاكل المعروفة في الحياة.

والبخل من أسباب الفجور، وانتشار الظلم والبغي، وليس للبخل من نتائج سوى الهلكة والعقاب.

قال رسول الله ﷺ: (**إياكم والشح؛ فإنه أُهلِكَ مَن كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا**)[1].

وقال رسول الله ﷺ: (**السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل، وأكبر الداء البخل**)[2].

وقال تعالى عن الثاني:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ البقرة: ٢٦٤.

قال ابن كثير في تفسيره: (أخبر الله تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، فلا تبطلوا صدقاتكم بالمن الأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه).

---

[1] رواه أبو داود.
[2] رواه الدارقطني.

فالمنان بما أعطى خسر من جانبين، فلا هو الذي كسب رضى الله تعالى وحافظ على ثواب انفاقه، ولا هو الذي كسب قلوب الناس وحبهم واحترامهم، فهو كمن أحرق ماله فخسره، بل واكتسب عوضاً عنه غضب الله تعالى وبغض الناس له، فأي فتنة تلك التي أوقع نفسه فيها!!؟

قال ﷺ: (**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**)[1].

وقال ﷺ: (**لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر**)[2].

فمن فتنه بريق ماله، فبخل ومنَّ على الخلق فهو الخاسر، لأنه ظن أنه حرٌ في ماله حرية مطلقة، قال ﷺ فيما يرويه عن الله تعالى: (**يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت!**)[3]. فلا يبقى للمسلم من ماله إلا ما تصدق به عن طيب خاطر، ومن أطيب ماله، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً.

والغريب أن البعض قد يبخل على نفسه، فلا يوسع على نفسه وأهله بما أوسع الله عليه، حتى أن البعض يرفع شعار: هذا ورثته من والدي وأريد توريثه لولدي. يظن أن عمله هذا خير له ولولده، قال ﷺ لرجل عليه ثوب دون: (**ألك مال؟ قال: نعم، آتاني الله من كل المال، قال: من أي المال؟ قال: آتاني الله من الخيل والرقيق، فقال له صلى الله عليه وسلم: إذا آتاك الله مالا فلير عليك أثر نعمته وكرامته**)[4].

---

[1] رواه مسلم.
[2] رواه أحمد وابن ماجة وابن مردويه.
[3] رواه مسلم.
[4] رواه أبو داود والنسائي.

ثالثا- فتنة الأولاد:

والأولاد سبب للفتنة، وعلى قدر أهميتهم يكون التحذير من أسباب فتنتهم، وسوف ندرس هذه الأسباب من ثلاثة محاور، حتى نتبين ماهياتها:

المحور الأول: الرضا بما قسمه الله:

والأولاد مما يبتلي الله به الإنسان، في العطاء والمنع، وفي الذكور والإناث، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فعليه سخطه.

قال تعالى: **﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾** . الشورى ٤٩-٥٠.

ومن هنا يبدأ الابتلاء، فإما أن تكون بعده فتنة وإما لا. فالآية الكريمة تعرض لنا أربع حالات يمر بها الإنسان، فإما العقم، أو أن يرزقه الله البنات فقط، أو الأولاد فقط، أو البنات والذكور، وكل هذه الحالات هي قدر ورزق من الله تعالى، فمن رضي بما قضاه الله له، فقد نجا من الفتنة، ومن اعترض وسخط فعليه السخط، وقد وقع في الفتنة.

قال تعالى: **﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُون﴾** [النحل:٥٨-٥٩].

فمن ذا الذي يعلم الخيرة فيما يرزقه الله له، أفي الأولاد أم في البنات أم في العقم؟! ومن ذا الذي يعلم حكمة الله تعالى فيما يرزق؟!

فالإنسان لا يعلم الحكمة ولا الخيرة أين، لذا فما عليه سوى أن يرضى بما قسمه الله له وقضاه وقدره. وهذا للأسف من الأمراض المنتشرة في بعض المجتمعات الإسلامية.

فكم من والدين آتاهما الله ذكورا، فكانوا فتنة لهما وسببا إلى الخسران؟ أو كانوا من العاقين لهما!؟ وكم من والدين كان عطاء الله لهما في المنع من الأولاد، فرضيا بهذا العطاء شاكرين فضله، فأبدلهما الله بأن جعل قلوب من حولهما من أبناء الإخوة والأخوات، لا ترتاح إلا لهما، فيلجؤون إليهما في كل أمور حياتهم، وكم من أسرة لم يرزقهم الله إلا البنات فسخطوا واعترضوا؟! قال ﷺ: (**لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات**)[1].

وقد جاء الإسلام ليمنع ما كان في الجاهلية من عادات سيئة نحو البنات من وأد أو ظلم. قال ﷺ: (**إن الله عز وجل حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعاً وهات**)[2].

وقد تكون البنات سببا في دخول الجنة والنجاة من النار. قال ﷺ: (**من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له سترا من النار**)[3].

وقال ﷺ: (**مَن عال ابنتينِ أو ثلاث بنات، أو أختينِ أو ثلاث أخوات، حتَّى يمُتْن أو يموتَ عنهنَّ، كُنْتُ أنا وهو كهاتينِ. وأشار بأُصبُعِه السبابة والوسطى**)[4].

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: دخلت عليَّ امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها، ثم

[1] رواه الإمام أحمد (١٧٠٤٣).
[2] رواه مسلم.
[3] رواه البخاري (٥٥٦٣).
[4] رواه الإمام أحمد (١٢٢٦١) و(٢٦٩٨٥).

قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ علينا، فأخبرته فقال: **(من ابتلي بهذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار)**[1].

المحور الثاني: فتنة (الحب المفرط) للأبناء: فالإسلام جاء ليضبط عواطف الإنسان وانفعالاته، ويربيه على الاعتدال، والتوسط بين الإفراط والتفريط. فعندما يتملك حب الأبناء قلوب الآباء إلى درجة الاستحواذ، فإنه يفتح أبوابا لا تنتهي من الفتن، فيتسبب هذا الاستحواذ بالانشغال عن الواجبات، أو في ارتكاب المنهيات، ويمكننا جمع مسببات الفتن في الأبناء في ستٍّ نقاط، جاء ذكرها في القرآن وفي الأحاديث النبوية وهي أن الأولاد:

(زينة – ملهاة – مجبنة – محزنة – مبخلة – مجهلة).

١ – الزينة: قال تعالى: **﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**.

بدأ بالمال لأن المال أعم من البنين في التزين، ولأن المال يأتي قبل البنين، فبالمال يتم الزواج ثم يأتي الأولاد.

وصف الله تعالى المال والبنين بأنهم زينة للإنسان في الحياة الدنيا، والزينة تأتي بعد الضروريات، فقد لا يمتلك الإنسان من المال إلا أقل القليل، ولا يكون عنده من البنين شيءٌ، وهو مع ذلك يعيش مكتفيا، كما قال ﷺ: **(من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)**[2].

[1] رواه أحمد (٢٣٥٠٤)، والبخاري (٥٥٦٣)، ومسلم (٤٧٦٩).
[2] رواه الترمذي (٢٢٨٠) وابن ماجة (٤١٣٩).

والزينة لها زخرفها ومباهجها، وهي مما قد تفتن الإنسان، فيعجبه معتملها وبهرجها، فتشغله عن الواجبات، والمال والبنون من أول هذه الزينة التي قد تعم فتنتهم.

٢- ملهاة: قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ولا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ومَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾**.

هذا خطاب عظيم من الله تعالى للمؤمنين، بألا تشغلهم أموالهم؛ في جمعها وصرفها، والسعي لزيادتها، والتلذذ في منافعها.

ولا الأولاد؛ في الفرح بهم، والانشغال بمتطلباتهم، والعمل على تلبية حوائجهم، مع معرفتهم بأهمية ذلك في الحياة، ولكن مع فنائه.

عن ذكر الله تعالى، وإيثارهم إياهم عن كل ما فيه ذكر لله تعالى؛ من عبادات وجهاد، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وطلب للعلم، ونشر للإسلام، ونصح للمسلمين، وغيرها مما يندرج تحت "ذكر الله".

فمن انشغل بماله وبنيه عن ذكر الله تعالى، وألهته زينتها عن واجباته، كان واقعاً في فتنتهم التي حذر منها، وأصبح كالمنافقين الخاسرين في تجارتهم، كمن قدم الفاني على الباقي، قال ﷺ: (**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالمٌ ومتعلمٌ**)[1].

ولو انشغلت الأمة بأمور الحياة الفانية، عن عبادة ربها وإقامة دينه ونشره، فإنها مهددة بالاستبدال بقوم، يأتي بهم الله، يحبهم ويحبونه، ويقدمون طاعته وأوامره على ملهيات الحياة ومشاغلها الفانية.

[1] رواه الترمذي (٢٢٥٥) و(٣٩٢٤)، وابن ماجة (٤١١٠) و(٤٣٤٠)، والدارمي (٣٢٥) و(٣٤٠٦).

قال ﷺ: (**ألا أنبِّئكم بخير أعمالِكم وأزكاها عند مليكِكُم، وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إعطاء الذهب والوَرِقِ، وخيرٍ لكم من أن تَلقَوْا عدوَّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وذاك! ما هو يا رسول الله؟ قال: ذِكْرُ اللهَّ عزّ وجلّ**)[1].

٣- مَبخلَةٌ مجبَنَةٌ مجهلَةٌ محزَنَةٌ: قال ﷺ: (**إنَّ الولدَ مَبخَلةٌ مَجبَنة**)[2]، وفي رواية: (**إنَّ الولدَ مَبخلَةٌ مجبَنَةٌ مجهلَةٌ محزَنَةٌ**)[3]. وفي رواية: (**إنهم لَمَجْبَنَة مَحْزَنَة إنهم لمجبنة محزنة**)[4].

وهذه الصفات الأربع، لما للأبناء من تأثير على آباءهم، فقد يكون الرجل في شبابه قبل أن يتزوج ويرزقه الله بالأولاد، صاحب همة عالية في طلب العلم، وذا شجاعة في قول كلمة الحق والجهاد في سبيل الله، وله روح طيبة في البذل والعطاء والإنفاق في سبل الخير والإصلاح، لا يستوطن قلبه سوى الإقدام والمجاهدة، لا يتأثر بزينة الحياة ونوافلها.

ثم عندما يتزوج ويرزق بالأولاد يتغير حاله، فتقل الهمة ويخف الإقدام، وربما يزولان عنه، ويؤثر أولاده عما كان عليه، ويشغله التفكير في مستقبلهم حتى بعد مماته، فعندها يكون الأولاد:

مَبخلَةٌ: فيمسك يده عن البذل والعطاء، خشية التقصير عن متطلبات أولاده، بل وربما يبخل على نفسه، فيقدم حاجيات أولاده وإن كانت من الكماليات على ضرورياته، وكذلك فيبخل على أهله وجيرانه وأصدقائه. فتكون فتنته في أولاده أفقدته حسن

[1] رواه أحمد (٢١١٦٠٩) و(٢٦٩٨٥)، وابن ماجة (٣٧٨٨)، والترمذي (٣٣٢٤).
[2] رواه أحمد (١٧٢٢١)، وابن ماجة (٣٦٦٤) و(٤٣٤٠).
[3] رواه الحاكم وصححه.
[4] رواه الإمام أحمد (٢١٢٨٧).

تقدير الأولويات، والاعتدال في العطاء، والتوازن في الإنفاق، عندها يصبح الأولاد سبباً للبخل، والخوف من الفقر.

مجبَنَةٌ: فيؤثر السكوت عن قول الحق مخافة أن يجلب إلى أولاده الأذى، ويترك الجهاد خشية أن يتسبب في يتمهم من بعده، فبذلك أصبح الأولاد سببا في دخول الجبن على قلوب الآباء.

مجهلَةٌ: عندما ينشغل الأب بأولاده عن طلب العلوم النافعة له في دينه، فيؤثر زيادة ساعات العمل -مثلا- لزيادة مدخوله المادي، على سويعات يجلسهن في مجلس علم في مسجد أو معهد أو جامعة، يكون عندها الأبناء سببا للجهل وعائقا لطلب العلم.

والمسلم لا يستغني عن طلب العلم، حتى يقيم دينه على الوجه الصحيح، فلا يقع في الفتن والبدع، وحتى يستطيع توجيه زوجته وأولاده نحو الأصلح لهم بما يرضي الله تعالى، ويعلمهم ما ينفعهم ويحذرهم مما يضرهم، ويعينهم على تجنب الفتن المتزايدة في زماننا.

محزَنَةٌ: فالأبناء سبب في حزن الآباء إذا طلبوا منهم شيئا ولم يستطيعوا تلبيته، وكذلك في المرض أو الفشل الدراسي أو الوظيفي هم سبب للحزن، وهذا من الفطرة البشرية، وشفقة الوالدين ورحمتهما بالأبناء، ولكن المنبوذ منه ما كان فيه مبالغة أو سبباً لضعف في الإيمان، أو اعتراض على قضاء الله وقدره.

ولا شك أن الأبناء هم قرّة العين، وثمرة الفؤاد، ورياحين الدنيا وزينتها، وهم سبب استمرار الحياة. ولكن هناك فرقٌ بين أن يكون الآباء عونا لأولادهم، وحاجزاً من أن يقعوا في أوحال الفتن، وبين أن يكون الأبناء هم المتسببين في فتنة آبائهم.

قال ﷺ: (**كفى بِالمرْءِ إِثماً أَنْ يُضَيِّعَ مَن يَقُوت**)[1].

فالواجب على الآباء أن يتحملوا مسؤولياتهم تجاه أنفسهم وتجاه أولادهم، وأن يعينوهم على ألا يقعوهم في المهالك، وألا يقعوا أولادهم أيضاً فيها. قال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ التحريم:٦.

ونحن في زمن تتلاطم فيه أمواج من الفتن، فتموج في كل اتجاه وارتفاع، لابد من التسلح بالعلم والوعي، ومعرفة بواعث الفتن، ومواطن الزلل، والمبادرة في تجنبها والتحذير منها.

قال ﷺ: (**إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ، أم ضيع؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**)[2].

وقال ﷺ: (**ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن**)[3]. وقال ﷺ: (**علموا أنفسكم وأهليكم الخير**)[4].

[1] رواه أحمد (٦٣١٦) و(٦٦٦٣)، وأبو داود (١٤٤٤).
[2] رواه ابن حبان.
[3] رواه أحمد (١٦٣٦٨)، والترمذي (١٨٧١) وقال: (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن أبي عامر الخزاز وهو عامر بن صالح بن رستم الخزاز وأيوب بن موسى هو ابن عمرو بن سعيد بن العاصي، وهذا عندي حديث مرسل) .
[4] رواه عبد الرزاق في مصنفه.

الفصل الثالث

فتن العقيدة

وفيه:

١- فتنة الخوض في المتشابه.

٢- فتنة صرف الناس عن دينهم.

٣- فتنة التكذيب بالغيب.

٤- فتن المنافقين.

٥- فتنة عبادة الأوثان.

٦- لا يقع في فتنة عبادة الأوثان إلا أهل النار.

٧- تحريف الأحكام الشرعية.



فتنة الخوض في المتشابه

قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾ [آل عمران:٧]

هذه الآية الكريمة تعطينا المنهج الذي علينا من خلاله التعامل مع آيات الكتاب الحكيم، حيث يخبر المولى عز وجل أنه أنزل القرآن على قسمين: منه آيات محكمة هن الأصل والمرجع للفهم والتأويل، ومنه آيات متشابهات حمالة أوجه، لا يعلم حقيقة تأويلها إلا الله تعالى، فكان الخوض فيها من مزلات الأقدام ومضلات الأفهام.

فأما الذين في قلوبهم زيغ وانحراف عن الاستقامة فيتبعون المتشابه منه بغية نشر الفتن والاضطرابات بين الناس، وبغية التأويل بحسب تصوراتهم المسبقة وأهوائهم الفاسدة، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأنه القرآن كله من عند الله تعالى، محكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ويقفون عن الخوض فيه.

وبحث المتشابه والمحكم في الآيات بحث طويل له تقسيمات وتعلقات في علم أصول الفقه وعلم العقيدة، وضعها العلماء من استقراءاتهم كتاب الله تعالى، فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

وحيث أن هذا الكتاب عن الفتن الواردة في القرآن الكريم، فلن ندخل في تفاصيل المتشابه، ولكن يمكننا تقديم خلاصة الأقوال حتى نكون على بينة في طريقنا إلى فهم (فتنة الخوض) في المتشابهات التي وقع فيها الفرق التي زاغت عن الحق.

وينبغي علينا أولا أن نعلم أن القرآن الكريم كله محكم من حيثية معينة، وكله متشابه من حيثية أخرى، ومنه المحكم والمتشابه من حيثية ثالثة.

قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١]

فهي محكمة في اتقانها وحسنها فلا يتطرق إليها أي خلل في اللفظ أو المعنى، في المفردات والجمل والأحكام والأخبار والأمر والنهي والحلال والحرام والثواب والعقاب.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر:٢٣]

فهو متشابه في بلاغته وإعجازه وحسنه وتناسقه وروعة تأثيره وتناغمه، وصدق اخباره، يصدق بعضه بعضا فلا اختلاف فيه ولا تضاد، قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء: ٨٢

وأما أن فيه آيات محكمات وأخر متشابهات، فالمحكمات هن الآيات القطعية الدلالة للمعنى، الواضحات التي لا لبس فيهن، والمتشابهات هي المتماثلات التي تحتمل أكثر من معنى ولا يعلم حقيقة تأويله إلا الله سبحانه، ولا يسعنا إلا التسليم بها وتفويض لله تعالى والإقرار بالعجز والقصور.

- **التفسير**:

الحكم في اللغة: هو المنع من الظلم، والحكمة هي المنع من الجهل، والمحكم هو المتقن والمتماسك والموثق والواضح. وقال الراغب: المحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث

اللفظ ولا من حيث المعنى، والمتشابه: ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره؛ إما من حيث اللفظ وإما من حيث المعنى، فقال الفقهاء: ما لا ينبئ ظاهره عن مراده.

وقال أهل التفسير:

قال ابن عاشور: (أطلق المحكم في هذه الآية على واضح الدلالة على سبيل الاستعارة لأنّ في وضوح الدلالة، منعاً لتطرّق الاحتمالات الموجبة للتردّد في المراد.

وأطلق التشابه هنا على خفاء الدلالة على المعنى، على طريقة الاستعارة لأنّ تطرّق الاحتمال في معاني الكلام يفضي إلى عدم تعيّن أحد الاحتمالات، وذلك مثل تشابُه الذوات في عدم تمييز بعضها عن بعض)[1].

وقال الطبري: وأما المحكمات: فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر، وما أشبه ذلك.

وأما المتشابهات: متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعنى، ... فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس.

وعن عكرمة، ومجاهد، وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والسدي أنهم قالوا: المحكم الذي يعمل به.

وعن المتشابهات قال ابن عباس: إنهن المنسوخة، والمقدم منه والمؤخر، والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. وقال مقاتل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور.

[1] تفسير التحرير والتنوير، جزء ٣/ ص١٥٣

وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً. وهذا إنما هو في تفسير قوله: {كتابا متشابها مثاني} الزمر: ٢٣، هناك ذكروا: أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار ثم حال الفجار، ونحو ذلك، فأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم.

وعن قتادة: المحكمات: الناسخ الذي يعمل به ما أحل الله فيه حلاله وحرم فيه حرامه، وأما المتشابهات: فالمنسوخ الذي لا يعمل به ويؤمن به.

وقال ابن كثير: وأحسن ما قيل فيه الذي قدمناه، وهو الذي نص عليه محمد بن إسحاق بن يسار، رحمه الله، حيث قال: (منه آيات محكمات هن أم الكتاب) فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. قال: والمتشابهات في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

وقال أهل الأصول:

(المحكم هو اللفظ الدال على المقصود الذي سيق له، وهو واضح في معناه لا يقبل تأويلا ولا تخصيصاً، وقد اقترن به ما يدل على أنه غير قابل للنسخ، مثل قوله تعالى بالنسبة لمرتكبي جريمة القذف: **﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾**، وقوله في الزنا: **﴿فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾**، أي لا أكثر ولا أقل)[1].

[1] أصول الفقه لأبي زهرة ص ١٢٣.

والمتشابه: هو اللفظ الذي يخفى معناه ولا سبيل لأن تدركه عقول العلماء كما أنه لا يوجد ما يفسره تفسيرا قاطعا أو ظنيا من الكتاب أو السنة، وفي هذه الحال لا يسع البشر إلا التسليم والتفويض لله رب العالمين والإقرار بالعجز والقصور.[1]

وذكر الطبري من قال إن المتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى ابن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحد.

وقالوا: إنما سمى الله من آي الكتاب المتشابه الحروف المقطعة التي في أوائل بعض سور القرآن من نحو (الم والمص والمر والر) وما أشبه ذلك، لأنهن متشابهات في الألفاظ، وموافقات حروف حساب الجمل.

وكان قوم من اليهود على عهد رسول الله ﷺ طمعوا أن يدركوا من قبلها معرفة مدة الإسلام وأهله، ويعلموا نهاية أكل محمد وأمته، فأكذب الله أحدوثتهم بذلك، وأعلمهم أن ما ابتغوا علمه من ذلك من قبل هذه الحروف المتشابهة لا يدركونه ولا من قبل غيرها، وأن ذلك لا يعلمه إلا الله.

قال ابن عاشور: (وقد اختلف علماء الإسلام في تعيين المقصود من المحكمات والمتشابهات على أقوال مرجعها إلى تعيين مقدار الوضوح والخفاء، فعن ابن عباس:

أنّ المحكم ما لا تختلف فيه الشرائع كتوحيد الله تعالى، وتحريم الفواحش، وذلك ما تضمنته الآيات الثلاث من أواخر سورة الأنعام: **١٥١{قل تعالوا أتل ما حرّم**

[1] المصدر السابق ص: ١٣٤.

ربّكم عليكم﴾ والآيات من سورة الإسراء: ٢٣ ﴿**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**﴾ وأن المتشابه المجملات التي لم تبيّن كحروف أوائل السور.

وعن ابن مسعود، وابن عباس أيضاً رضي الله عنهما: أنّ المحكم ما لم ينسخ والمتشابه المنسوخ وهذا بعيد عن أن يكون مراداً هنا لعدم مناسبتِهِ للوصفين ولا لبقية الآية.

وعن الأصم: المحكم ما اتّضح دليلُه، والمتشابه ما يحتاج إلى التدبّر، وذلك كقوله تعالى: ﴿**والذي نزّل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون**﴾ الزخرف: ١١، فأولها محكم وآخرها متشابه.

وللجمهور مذهبان: أولهما أنّ المحكم ما اتّضحت دلالته، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، ونسب هذا القول لمالك، في رواية أشهب، من جامع العتبيَّة، ونسبه الخفاجي إلى الحنفية وإليه مال الشاطبي في الموافقات.

وثانيهما أنّ المحكم الواضح الدلالة، والمتشابه الخفيُها، وإليه مال الفخر: فالنص والظاهر هنا المحكم، لاتّضاح دلالتهما، وإن كان أحدهما أي الظاهر يتطرّقه احتمال ضعيف، والمجمل والمؤوّل هما المتشابه، لاشتراكهما في خفاء الدلالة وإن كان أحدهما: أي المؤول دالاً على معنى مرجوح، يقابله معنى راجح، والمجمل دالاً على معنى مرجوح يقابله مرجوح آخر، ونسبت هذه الطريقة إلى الشافعية)[1].

(هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ): أمّ الشيء أصله، أي أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم.

[1] تفسير التحرير والتنوير ج٣/ص١٥٣

وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن معظم الكتاب وموضع مفزع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامع معظم الشيء أما له، فتسمي راية القوم التي تجمعه في العساكر أمهم، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة أمها.

وعن سعيد بن جبير: (إنما سماهن أم الكتاب، لأنهن مكتوبات في جميع الكتب).

وقال مقاتل بن حيان: (لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن).

(فأما الذين في قلوبهم زيغ): الزيغ: الميل والانحراف عن الاستقامة والمقصود.

والأصل في القلب الصفاء والنقاء، فهو تابع للفطرة الصحيحة التي جعلها الله تعالى قابلة لتلقي كتابه العزيز بما فيه من أوامر ونواهي، ولكن لما طرأ عليه طوارئ خارجة عن الصواب والاستقامة، كوساوس الشيطان وهوى النفس وشبهات العقول، زاغ القلب وانحرف عن صحة التلقي والفهم عن مرادات الخالق سبحانه، فانبثقت فيه نوازع الشر وسوء التدبر والركون إلى الشبهات والبدع والأفكار المضللة، فظهر أفراد وجماعات زاغت عن الحق ومالت إلى الباطل.

(فيتبعون ما تشابه منه): عن ابن عباس: فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون، فلبس الله عليهم.

وقال الطبري: ما تشابهت ألفاظه وتصرفت معانيه بوجوه التأويلات، ليحققوا بادعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق تلبيسا منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه.

(ابتغاء الفتنة) أي: الحرص على نشر الفتن والشبهات بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه، لإضلال أتباعهم، وإيهامهم أنهم يحتجون على بدعهم وضلالاتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم.

(وابتغاء تأويله) أي: طلب تحريف معانيه على ما يريدون ويشتهون، وادعاء معرفة حقيقة مقاصده ومآلاته. وقال مقاتل **والسدي**: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن.

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا):

التأويل: الْأَوْلُ الرُّجُوعُ آلَ الشَّيْءُ يَؤولُ أَوْلًا وَمَآلًا: رَجَع، وفي حديث ابن عباس: اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل. قال ابن الأثير: هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.

ومن أمثلة التأويل غير المذموم: عن سعيد بن جُبير أنّ رجلاً قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: ما هو؟ قال: (فلا أنسَابَ بينهم يومئذ ولا يتساءلون). وقال: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون). وقال: ولا يكتمون الله حديثاً. وقال: (قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين) قال ابن عباس: فلا أنساب بينهم في النفخة الأولى ثم النفخة الثانية أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، فأما قوله: (والله ربّنا ما كنّا مشركين) الأنعام: ٢٣، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون: تعالَوا نقلْ: (ما كنا مشركين)، فيختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك لا يكتمون الله حديثاً. رواه البخاري.

الرسوخ: الثبات والتمكن، والراسخ في العلم: المتحقق به الذي لا تعترضه شبهة.

عن أبي الدرداء وأبي أمامة رضي الله عنهما قالا: سئل رسول الله ﷺ من الراسخ في العلم؟ قال: من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام له قلب، وعف بطنه، فذلك الراسخ في العلم.

وعن ابن عباس أنه قال: (التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل). ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك، رضي الله عنهم جميعا، وغيرهم.

واختلف العلماء على مذهبين في الوقف، فقال الأول:

الوقف على: **(وما يعلمه تأويله إلا الله)**، أي لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله وحده منفردا بعلمه، ويكون حرف الواو بعدها استئنافياً، وجملة **(الراسخون مستأنفة)**، و**(يقولون)** حال، أي حالهم يقول: **(آمنا به كل من عند ربنا)**، وعليه يكون الرسوخ في العلم هنا: هو الرسوخ الإيماني وتفويض معاني المتشابه إلى الله تعالى، وليس بالضرورة فهمه كاملا، وهم بذلك بعكس الزائغة قلوبهم الذين يتأولون المتشابه بحسب أهوائهم.

وقال الفريق الثاني: الوقف على: **(في العلم)**، أي والراسخون أيضا يعلمون تأويله، فيكون حرف الواو حرف عطف، و**(الراسخون)** معطوف على لفظ الجلالة عطف تشريف، كقوله تعالى: **(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم)** آل عمران:١٨، وعليه يكون الراسخون هنا هم العلماء الذين يتقنون علمهم ولا يدخلهم فيه شك ولا لبس ويعملون به ويردون على الزائغين من خلال رد المتشابه إلى المحكم.

وقد مال إلى الفريق الأول من الصحابة: أبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس، كما نقله الطبري، ونقل ابن عاشور أنه قول: ابن عمر وعائشة رضي الله عنهم جميعا، وقال: ورواه أشهب عن مالك، وقاله عروة بن الزبير والكسائي والأخفش والفراء والحنفية، وإليه مال الفخر الرازي.

أما القول الثاني فقد قال به: ابن عباس أيضا، ومجاهد والربيع بن سليمان والقاسم بن محمد والشافعية وابن فورك والشيخ أحمد القرطبي وابن عطية، رحم الله الجميع ورضي عنهم.

وقال الإمام النووي رحمه الله: (قد اختلف المفسرون والأصوليون وغيرهم في المحكم والمتشابه اختلافا كثيرا. قال الغزالي في المستصفى: إذا لم يرد توقيف في تفسيره فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة، وتناسب اللفظ من حيث الوضع، ولا يناسبه قول من قال: المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور، والمحكم ما سواه. ولا قولهم: المحكم ما يعرفه الراسخون في العلم، والمتشابه ما انفرد الله تعالى بعلمه. ولا قولهم: المحكم الوعد والوعيد، والحلال والحرام، والمتشابه القصص والأمثال، فهذا أبعد الأقوال. قال: بل الصحيح أن المحكم يرجع إلى معنيين:

أحدهما المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال، والمتشابه ما يتعارض فيه الاحتمال.

والثاني أن المحكم ما انتظم ترتيبه مفيدا إما ظاهرا وإما بتأويل، وأما المتشابه فالأسماء المشتركة كالقرء وكالذي بيده عقدة النكاح، وكالمس. فالأول متردد بين الحيض والطهر، والثاني بين الولي والزوج، والثالث بين الوطء والمس باليد، ونحوها.

قال: ويطلق على ما ورد في صفات الله تعالى مما يوهم ظاهره الجهة والتشبيه، ويحتاج إلى تأويل.

واختلف العلماء في الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه؟ وتكون الواو في (والراسخون) عاطفة أم لا؟ ويكون الوقف على (وما يعلم تأويله إلا الله)، ثم يبتدئ قوله تعالى: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) وكل واحد من القولين محتمل، واختاره طوائف، والأصح الأول، وأن الراسخين يعلمونه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته، وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد. والله أعلم).

ويقول ابن عاشور: (مع قليل من التصرف غير المخل): (ولذا فقوله: (والراسخون) معطوف على اسم الجلالة، وفي هذا العطف تشريف عظيم كقوله: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) آل عمران: ١٨، وعلى هذا فليس في القرآن آية استأثر الله بعلمها. ويؤيّد هذا أن الله أثبت للراسخين في العلم فضيلة. ووصفهم بالرسوخ، فآذن بأنّ لهم مزية في فهم المتشابه: لأنّ المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام، ففي أيِّ شيء رسوخهم، وحكى إمام الحرمين، عن ابن عباس: أنّه قال في هاته الآية: أنا ممّن يعلم تأويله.

ويؤيّد ذلك وصفهم بالرسوخ في العلم؛ فإنّه دليل بيّن على أنّ الحُكم الذي أثبت لهذا الفريق، هو حكم من معنى العلم والفهم في المعضِلات، وهو تأويل المتشابه، على أنّ أصل العطف هو عطف المفردات دون عطف الجمل، فيكون الراسخون معطوفاً على اسم الجلالة فيدخلون في أنّهم يعلمون تأويله. ولو كان الراسخون مبتدأ وجملةُ: (يقولون ءامّنا به) خبراً، لكان حاصل هذا الخبر ممّا يستوي فيه سائر المسلمين الذين لا زيغ في قلوبهم، فلا يكون لتخصيص الراسخين فائدة. قال

ابن عطية: "تسميتهم راسخين تقتضي أنّهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أيّ شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلاّ ما يعلمه الجميع وما الرسوخ إلاّ المعرفةُ بتصاريف الكلام بقريحة معدة". وما ذكرناه وذكره ابن عطية لا يعد وأن يكون ترجيحاً لأحد التفسيرين، وليس إبطالاً لمقابله إذ قد يوصف بالرسوخ من يفرق بين ما يستقيم تأويله، وما لا مطمع في تأويله).

ومن المعاصرين من علماء التفسير:

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: (والعلماء لهم وقفات عند قوله الحق: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله): بعضهم يقف عندها ويعتبر ما جاء من بعد ذلك وهو قوله الحق: (والراسخون فِي العلم) كلاماً مستأنفاً، إنهم يقولون: إن الله وحده الذي يعلم تأويل المتشابه، والمعنى: (والراسخون فِي العلم) أي الثابتون في العلم، الذين لا تغويهم الأهواء، إنهم: (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) وهو ما قاله الرسول ﷺ، إن الراسخين في العلم يقولون: إن المحكم من الآيات سيعلمون به، والمتشابه يؤمنون به، وكل من المتشابه والمحكم من عند الله. أمّا مَن عطف وقرأ القول الحكيم ووقف عند قوله: (والراسخون فِي العلم) نقول له: إن الراسخين في العلم علموا تأويل المتشابه، وكان نتيجة علمهم قولهم: (آمَنَّا بِهِ).

إن الأمرين متساويان، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف. فالمعنى ينتهي إلى شيء واحد. وحيثية الحكم الإيماني للراسخين في العلم هي قوله الحق على لسانهم: (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) فالمحكم من عند ربنا، والمتشابه من عند ربنا، وله حكمة في ذلك؛ لأنه ساعة أن يأمر الأعلى الأدنى بأمر ويبين له علته فيفهم الأدنى ويعمل، وبعد ذلك يلقي الأعلى الأمر لآخر ولا يبين علته، فواحد ينفذ

الأمر وإن لم يعرف العلة، وواحد آخر يقول: لا، عليك أن توضح لي العلة. فهل الذي آمن آمن بالأمر أو بالعلة؟

إن الحق يريد أن نؤمن به وهو الآمر، ولو أن كل شيء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان. إنما عظمة الإيمان في تنفيذ بعض الأحكام وحكمتُها غائبة عنك؛ لأنك إن قمت بكل شيء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة، ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر.

وعندما نأتي إلى لحم الخنزير الذي حرمه الله من أربعة عشر قرناً، ويظهر في العصر الحديث أن في أكل لحم الخنزير مضار، ويمتنع الناس عن أكله لأن فيه مضار، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه؟ طبعاً لا، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكل لحم الخنزير لأن الله قد حرمه؛ ولأن الأمر قد صدر من الله، حتى دون أن يعرِّفنا الحكمة، إن المؤمن بالله يقول: إن الله قد خلقني ولا يمكن ـ وهو الخالق ـ أن يخدعني وأنا العبد الخاضع لمشيئته. إن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله، هو الذي ينال الثواب، أما الذي يمتنع خوفاً من اهتراء الكبد أو الإصابة بالمرض فلا ثواب له. وهناك فرق بين الذهاب إلى الحكم بالعلة، وبين الذهاب إلى الحكم بالطاعة للآمر بالحكم.

إذن فالمتشابه من الآيات نزل للإيمان به، والراسخون في العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء، والأهواء تلوي إلى مرادات النفس وإلى ابتغاءات غير الحق. ومادامت ابتغاءات غير الحق، فغير الحق هو الباطل، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتي بشيء يتفق مع هواه. ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء؛ لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء. والحق سبحانه يقول:

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُون﴾ [المؤمنون:٧١]

ويقول الراسخون في العلم في نهاية علمهم: آمنا ﴿**والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾. وهنا تلتقي المسألة، فنحن نعرف أن المحكم نزل للعمل به، والمتشابه نزل للإيمان به لحكمة يريدها الله سبحانه وتعالى، وهي أن نأخذ الأمر من الآمر لا لحكمة الأمر. وعندما نأخذ الأوامر من الحق فلا نسأل عن علتها؛ لأننا نأخذها من خالق محب حكيم عادل. والإنسان إن لم ينفذ الأمر القادم من الله إلا إذا علم علته وحكمته فإننا نقول لهذا الإنسان: أنت لا تؤمن بالله ولكنك تؤمن بالعلة والحكمة، والمؤمن الحق هو من يؤمن بالأمر وإن لم يفهم. والراسخون في العلم يقولون: آمنا به، كل من عند الله، المحكم من عند ربنا والمتشابه من عند ربنا.

ويقول الدكتور أحمد نوفل: المتشابه يأتي من العقل ومن اللغة، مثل: قصة الشاعرة التي مدحت الحجاج الثقفي، فقال: اقطعوا لسانها، فظن الحارس أن القطع هو القطع المعروف، فلما هم بقطعه قالت بأنه ليس هذا هو مقصد الحجاج، بل يقصد أن أجيزوها أي أعطوها مالا مقابل ما قالت، فلما عاد الحارس لسؤال الحجاج، وبخه وقال كيف تريد قطع لسانها! ألا تعرف اللغة! وكذلك مثل كلمة "عين" فإن لها أكثر من معنى، يتضح المعنى المراد بحسب السياق والقرائن؛ عين الماء والعين التي نرى بها وعين تعني جاسوس وهكذا.

وفي قوله تعالى: (**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به**) إذا كان الراسخون يقولون آمنا به، فغير الراسخين ماذا يقولون؟ أليس الأقل درجات من الراسخين يؤمنون به أيضا؟ إذن: الصحيح هو الوقف على لفظة العلم.

فريق ثالث قال بالتفصيل: قال ابن كثير: ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: **(ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا)** يوسف: ١٠٠، وقوله **(هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله)** الأعراف: ٥٣، أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة، لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: **(والراسخون في العلم)** مبتدأ و **(يقولون آمنا به)** خبره.

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: **(نبئنا بتأويله)** يوسف: ٣٦، أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: (والراسخون في العلم) لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: (يقولون آمنا به) حالا منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: **(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم)** إلى قوله: (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) الحشر: ٨ - ١٠، وكقوله تعالى: ﴿**وجاء ربك والملك صفاً صفاً**﴾ الفجر : ٢٢، أي: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخبارا عنهم أنهم **(يقولون آمنا به)** أي: بالمتشابه **(كل من عند ربنا)** أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد لقوله: **(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)** النساء: ٨٢، ولهذا قال

تعالى: (وما يذكر إلا أولو الألباب) أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.

(كل من عند ربنا): كل المحكم من الكتاب والمتشابه منه من عند ربنا، وهو تنزيله ووحيه إلى نبيه محمد ﷺ.

قال ابن عباس: يعني ما نسخ منه وما لم ينسخ. وقال قتادة: آمنوا بمتشابهه وعملوا بمحكمه. وقال الربيع: المحكم والمتشابه من عند ربنا.

وأيضا عن ابن عباس: يؤمن بالمحكم ويدين به، ويؤمن بالمتشابه ولا يدين به، وهو من عند الله كله. وقال الضحاك: يعملون به يقولون: نعمل بالمحكم ونؤمن به، ونؤمن بالمتشابه ولا نعمل به، وكل من عند ربنا.

(وما يذكر إلا أولوا الألباب): قال الإمام الطبري: وما يتذكر ويتعظ وينزجر عن أن يقول في متشابه آي كتاب الله ما لا علم له به إلا أولو العقول والنهى.

وعن محمد بن جعفر بن الزبير: (وما يذكر إلا أولوا الألباب): وما يتذكر في مثل هذا، يعني في رد تأويل المتشابه إلى ما قد عرف من تأويل المحكم حتى يتسقا على معنى واحد، إلا أولو الألباب.

- **الحكمة من المتشابه**:

لا شك أنه ما من كلمة أو معنى أو أسلوب في القرآن إلا ومن ورائه حكمة ربانية، ولوجود المتشابه في القرآن أكثر من حكمة ربانية؛ منها أنه لا تساوي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالعلماء هم الذين يميزون المتشابه من المحكم، وهم من يقومون على رد المتشابه إلى المحكم، وهم من يقومون بالاستنباط من المحكم حتى لا

يقع الناس في حيرة أو مشقة، فالمتشابه في مسائل الفقه مما يحتمل أكثر من معنى يعطي سعة للفهم ومساحة للاجتهاد، فيكون رحمة الناس في كل زمان ومكان.

قال ابن عاشور: (ثم إنّ العلوم التي تعرّض لها القرآن هي من العلوم العليا: وهي علوم فيما بعد الطبيعة، وعلوم مراتب النفوس، وعلوم النظام العمراني، والحكمة، وعلوم الحقوق.

وفي ضيق اللغة الموضوعة عن الإيفاء بغايات المرادات في هاته العلوم، وقصور حالة استعداد أفهام عموم المخاطبين لها، مَا أوجب تشابهاً في مدلولات الآيات الدالة عليها. وإعجازُ القرآن: منه إعجاز نظمي ومنه إعجاز علمي، وهو فنّ جليل من الإعجاز بيّنته في المقدمة العاشرة من مقدّمات هذا التفسير. فلمّا تعرض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها، فيما تعرّض إليه، جاء به محكياً بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربّما كان إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولاً لأقوام، فيعدّون تلك الآيات الدالة عليه من المتشابه فإذا جاء من بَعْدهم علموا أنّ ما عدّه الذين قبلهم متشابهاً ما هو إلاّ محكم.

على أنّ من مقاصد القرآن أمرين آخرين: أحدَهما كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لِختلِف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين.

وثانيهما تعويد حَمَلة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كلّ زمان لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بينَ أنظارهم في المطالعة الواحدة. من أجل هذا كانت صلوحية عباراته

لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلّفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور).

ويقول الشيخ الشعراوي: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون محكما، لجاء به من المُحكَم، إذن فإرادة الله أن تكون هناك آيات المتشابه ومهمتها أن تحرك العقول، وذلك حتى لا تأتي الأمور بمنتهى الرتابة التي يجمد بها عقل الإنسان عن التفكير والإبداع، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط. وعندما يتحرك العقل في الاستنباط تتكون عند الإنسان الرياضة على الابتكار، والرياضة على البحث، وليجرب كل واحد منا أن يستنبط المتشابه إلى المحكم ولسوف يمتلك بالرياضة ناصية الابتكار والبحث، والحاجة هي التي تفتق الحيلة.

إن الحق يريد أن يعطي الإنسان دربة حتى لا يأخذ المسألة برتابة بليدة ويتناولها تناول الخامل ويأخذها من الطريق الأسهل، بل عليه أن يستقبلها باستقبالٍ واع وبفكر وتدبر.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤]

كل ذلك حتى يأخذ العقل القدر الكافي من النشاط ليستقبل العقل العقائد بما يريده الله، ويستقبل الأحكام بما يريده الله، فيريد منك في العقائد أن تؤمن، وفي الأحكام أن تفعل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ ٱللَّهُ﴾. والذين في قلوبهم زيغ يحاولون التأويل وتحكمهم أهواؤهم، فلا يصلون إلى الحقيقة. والتأويل الحقيقي لا يعلمه إلا الله.

طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم:

قال ابن عاشور: (وفي قوله: **(وما يذكر إلا أولوا الألباب)** إشعار بأنّ الراسخين يعلمون تأويل المتشابه واحتجّ أصحاب الرأي الثاني، وهو رأي الوقف على اسم الجلالة: بأنّ الظاهر أن يكون جملة **(والراسخون)** مستأنفة لتكون معادِلاً لجملة: **(فأما الذين في قلوبهم زيغ)**، والتقدير: وأمّا الراسخون في العلم. وأجاب التفتازاني بأنّ المعادِل لا يلزم أن يكون مذكوراً، بل قد يحذف لدلالة الكلام عليه. واحتجّوا أيضاً بقوله تعالى: **(يقولون آمنا به كل من عند ربنا)** قال الفخر: لو كانوا عالمين بتأويله لم يكن لهذا الكلام فائدة؛ إذ الإيمان بما ظهر معناه أمر غير غريب وسنجيب عن هذا عند الكلام على هذه الجملة. وذكر الفخر حججاً أخر غير مستقيمة.

ولا يخفى أنّ أهل القول الأول لا يثبتون متشابهاً غير ما خفي المراد منه، وأنّ خفاء المراد متفاوت، وأنّ أهل القول الثاني يثبتون متشابهاً استأثر الله بعلمه، وهو أيضاً متفاوت؛ لأنّ منه ما يقبل تأويلات قريبَة، وهو ممّا ينبغي ألاّ يعدّ من المتشابه في اصطلاحهم، لكنّ صنيعهم في الإمساك عن تأويل آيات كثيرة سَهْلٍ تأويلُها مثل **(فإنّك بأعيننا)** الطور: ٤٨ دلّ على أنّهم يسدّون باب التأويل في المتشابه، قال الشيخ ابن عطية: "إنّ تأويل ما يمكن تأويله لا يَعلم تأويلَه على الاستيفاء إلاّ الله تعالى فمَن قالَ، من العلماء الحذّاق: بأنّ الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه، فإنّما أراد هذا النوع، وخافوا أن يظنّ أحد أنّ الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال" وعلى الاختلاف في محمل العطف في قوله تعالى: **(والراسخون في العلم)** انبنى اختلاف بين علماء الأمة في تأويل ما كان متشابهاً: من آيات القرآن، ومن صحاح الأخبار، عن النبي ﷺ.

فكان رأي فريق منهم الإيمانَ بها، على إبهامها وإجمالها، وتفويضَ العلم بكنه المراد منها إلى الله تعالى، وهذه طريقة سلَف علمائنا، قبل ظهور شكوك الملحدين أو المتعلِّمين، وذلك في عصر الصحابة والتابعين وبعض عصر تابعيهم، ويُعبّر عنها بطريقة السلف، ويقولون: طريقة السلف أَسْلَمُ، أي أشدُّ سلامة لهم من أن يَتأوّلوا تأويلات لا يدرَى مدى ما تفضِي إليه من أمور لا تليق بجلال الله تعالى ولا تتّسق مع ما شرعه للناس من الشرائع، **مع ما رأوا من اقتناع أهل عصرهم بطريقتهم**، وانصرافهم عن التعمّق في طلب التأويل.

وكان رأي جمهور من جاء بعد عصر السلف تأويلها بمعانٍ من طرائق استعمال الكلام العربي البليغ من مجاز واستعارة وتمثيل، مع وجود الدّاعي إلى التأويل، وهو تعطّش العلماء الذين اعتادوا التفكر والنظر وفهم الجمع بين أدلّة القرآن والسنة، ويعبّر عن هذه الطريقة بطريقة الخلف، ويقولون: طريقة الخلف أعام، أي أنسب بقواعد العلم وأقوى في تحصيل العلم القاطع لِجدال الملحدين، والمقنع لمن يتطلّبون الحقائق من المتعلّمين، وقد يصفونها بأنّها أَحْكَمُ أي أشدّ إحكاماً؛ لأنّها تقنع أصحاب الأغراض كلّهم. وقد وقع هذان الوصفان في كلام المفسّرين وعلماءِ الأصول، ولم أقف على تعيين أوّلِ من صدَرا عنه، وقد تعرّض الشيخ ابن تيمية في «العقيدة الحموية» إلى ردّ هذين الوصفين ولم ينسبهما إلى قائل. والموصوف بأَسْلَم وبأعلَم الطريقةُ لا أهلُها؛ فإنّ أهل الطريقتين من أئمة العلم، وممّن سلموا في دينهم من الفِتن وليس في وصف هذه الطريقة، بأنّها أَعْلَمُ أَوْ أَحْكَمُ، غضاضة من الطريقة الأولى؛ لأنّ العصور الذين درجوا على الطريقة الأولى، فيهم من لا تخفى عليهم محاملها بسبب ذوقهم العربي، وهديهم النبوي، وفيهم من لا يُعير البحثَ عنها جانباً من همّته، مثل سائر العامة. فلا جرم كان طَيّ البحث عن تفصيلها أسلم للعموم، وكان تفصيلها بعد ذلك

أعْلَم لمن جاء بعدهم، بحيث لو لم يؤوِّلوها به لأوسعوا، للمتطلّعين إلى بيانها، مجالاً للشك أو الإلحاد، أو ضيقِ الصدر في الاعتقاد).

- فتنة الخوض في المتشابه بين الماضي والحاضر:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ: **(هو الذي أنزل عليك الكتاب)** إلى قوله: **﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾** فقال: **(فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم)**[1].

وفي رواية قال: **(فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه) أو قال: (ويتجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم)**. قال مطر عن أيوب أنه قال: **(فلا تجالسوهم فهم الذين عنى الله فاحذروهم)**.

وفي رواية: **(إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله أولئك الذين قال الله: فلا تجالسوهم**. وفي رواية: **قد حذركم الله، فإذا رأيتموهم فاعرفوهم)**.

وفي رواية: **(إذا رأيتموهم فاحذروهم) ثم نزع: {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه} ولا يعلمون بمحكمه.**

قال الطبري في: **(فيتّبعون ما تشابه منه)**: يتمسكون بالمجادلة والخوض في المتشابه، ويلازمونه كما يلازم التابع متبوعَهُ. وقال ابن كثير: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دامغ لهم وحجة عليهم.

---

[1] رواه البخاري وأحمد ومسلم وأبو داود.

وفيها عدة مسائل:

أولا: **نماذج عن فساد التأويل**: **ومن هؤلاء**:

(الخوارج – الباطنية – المنافقون – الملحدون والزنادقة – أهل الكتاب)، وسوف نتناول كل واحدة من هذه الطوائف، لنتعرف كيف مالوا وزاغوا عن الحق:

- **الخوارج**:

قال الإمام الطبري: فمعنى الكلام إذا: فأما الذين في قلوبهم ميل عن الحق وحيف عنه، فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه، واحتمل صرفه في وجوه التأويلات، باحتماله المعاني المختلفة إرادة اللبس على نفسه وعلى غيره، احتجاجا به على باطله الذي مال إليه قلبه دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من آي كتابه.

وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معني بها كل مبتدع في دين الله بدعة، فمال قلبه إليها، تأويلا منه لبعض متشابه آي القرآن، ثم حاج به وجادل به أهل الحق، وعدل عن الواضح من أدلة آي المحكمات إرادة منه بذلك اللبس على أهل الحق من المؤمنين، وطلبا لعلم تأويل ما تشابه عليه من ذلك كائنا من كان، وأي أصناف البدعة كان من أهل النصرانية كان أو اليهودية أو المجوسية أو كان سبئياً أو حرورياً أو قدرياً أو جهمياً، كالذي قال ﷺ: فإذا رأيتم الذين يجادلون به فهم الذين عنى الله فاحذروهم.

فعن أبي غالب قال: سمعت أبا أمامة يحدث، عن النبي ﷺ في قوله: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قال: هم الخوارج، وفي قوله: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) آل عمران: ١٠٦، قال: هم الخوارج. رواه الإمام أحمد. قال ابن

كثير: وقد رواه ابن مردويه من غير وجه، عن أبي غالب، عن أبي أمامة مرفوعا، فذكره، وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفا من كلام الصحابي، ومعناه صحيح.

فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم رسول الله ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة، ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم – وهو ذو الخويصرة – بقر الله خاصرته – اعدل فإنك لم تعدل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني. فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب – وفي رواية: خالد بن الوليد – رسول الله في قتله، فقال: دعه فإنه يخرج من ضئضئ هذا –أي: من جنسه– قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرا لمن قتلهم.

ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم نبعت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق في قوله: **(وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: من كان على ما أنا عليه وأصحابي). أخرجه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.**

وروى الحافظ أبو يعلى بسنده عن جندب بن عبد الله أنه بلغه، عن حذيفة – أو سمعه منه – يحدث عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: (**إن في أمتي قوما يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل، يتأولونه على غير تأويله**).

وروى الحافظ أبو القاسم في المعجم الكبير: بسنده عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله، **(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)**، وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يبالون عليه. قال ابن كثير غريب جدا.

وعن ابن عباس: وذكر عنده الخوارج، وما يلقون عند الفرار، فقال: يؤمنون بمحكمه، ويهلكون عند متشابهه. وقرأ ابن عباس: (وما يعلم تأويله إلا الله) الآية. وإنما قلنا: القول الذي ذكرنا أنه أولى التأويلين بقوله: (ابتغاء الفتنة). لأن الذين نزلت فيهم هذه الآية كانوا أهل شرك، وإنما أرادوا بطلب تأويل ما طلبوا تأويله اللبس على المسلمين والاحتجاج به عليهم ليصدوهم عما هم عليه من الحق، فلا معنى لأن يقال: فعلوا ذلك إرادة الشرك، وهم قد كانوا مشركين.

وعن قتادة: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري من هم. ولعمري لقد كان في أهل بدر والحديبية الذين شهدوا مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار، خبر لمن استخبر، وعبرة لمن استعبر لمن كان يعقل أو يبصر. إن الخوارج خرجوا وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير بالمدينة والشام والعراق وأزواجه يومئذ أحياء، والله إن خرج منهم ذكر ولا أنثى حروريا قط، ولا رضوا الذي هم عليه ولا مالؤوهم فيه، بل كانوا يحدثون بعيب رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه ونعته الذي نعتهم به، وكانوا يبغضونهم بقلوبهم ويعادونهم بألسنتهم وتشتد والله عليهم أيديهم إذا لقوهم. **ولعمري لو كان أمر الخوارج هدى لاجتمع،** ولكنه كان ضلالا فتفرق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدت فيه اختلافا كثيرا، فقد ألاصوا هذا الأمر منذ زمان طويل، فهل أفلحوا فيه يوما أو أنجحوا؟ يا

سبحان الله كيف لا يعتبر آخر هؤلاء القوم بأولهم؟ لو كانوا على هدى قد أظهره الله وأفلجه ونصره. ولكنهم كانوا على باطل أكذبه الله وأدحضه، فهم كما رأيتهم كلما خرج لهم قرن أدحض الله حجتهم، وأكذب أحدوثتهم، وأهرق دماءهم، وإن كتموا كان قرحا في قلوبهم وغما عليهم، وإن أظهروه أهرق الله دماءهم، ذاكم والله دين سوء فاجتنبوه. والله إن اليهود لبدعة، وإن النصرانية لبدعة، وإن الحرورية لبدعة، وإن السبئية لبدعة، ما نزل بهن كتاب ولا سنهن نبي.

وقال قتادة: **(فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله)** طلب القوم التأويل فأخطؤوا التأويل، وأصابوا الفتنة، فاتبعوا ما تشابه منه فهلكوا من ذلك.

الباطنية والظاهرية:

قال ابن عاشور: (قال ابن العربي في "العواصم من القواصم": من الكائدين للإسلام الباطنية والظاهرية". قلت "أي ابن عاشور": أمَّا الباطنية فقد جعلوا معظم القرآن متشابهاً، وتأوّلوه بحسب أهوائهم، وأمّا الظاهريون فقد أكثروا في متشابهه، واعتقدوا سبب التشابه واقعاً، فالأوّلون دخلوا في قوله: (وابتغاء تأويله)، والأخيرون خرجوا من قوله: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) أو (وما يعلم تأويله إلا الله)، فخالفوا الخلف والسلف. قال ابن العربي "في العواصم": "وأصل الظاهريين الخوارج الذين قالوا: لا حُكْم إلاّ لله". يعني أنّهم أخذوا بظاهر قوله تعالى: (إنِ الحُكْمُ إلا لله) ولم يتأولوه بما هو المراد من الحكم.

- المنافقون:

روى الطبري عن ابن جريج (الذين في قلوبهم زيغ): المنافقون، فيتبعون ما تشابه منه.

- **أهل الكتاب**:

قال الطبري: قال بعضهم: عني به الوفد من نصارى نجران الذين قدموا على رسول الله ﷺ، فحاجوه بما حاجوه به، وخاصموه بأن قالوا: ألست تزعم أن عيسى روح الله وكلمته؟ وتأولوا في ذلك ما يقولون فيه من الكفر. ذكر من قال ذلك:

الربيع: عمدوا – يعني الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من نصارى نجران – فخاصموا النبي ﷺ قالوا: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا! فأنزل الله عز وجل: (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ثم إن الله جل ثناؤه أنزل: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم).

وقال آخرون: بل أنزلت هذه الآية في أبي ياسر بن أخطب وأخيه حيي بن أخطب والنفر الذين ناظروا رسول الله ﷺ في قدر مدة أكله وأكل أمته، وأرادوا علم ذلك من قبل قوله: (الم، والمص والمر، والر) فقال الله جل ثناؤه فيهم: (فأما الذين في قلوبهم زيغ) يعني هؤلاء اليهود الذين قلوبهم مائلة عن الهدى والحق (فيتبعون ما تشابه منه) يعني معاني هذه الحروف المقطعة المحتملة التصريف في الوجوه المختلفة التأويلات ابتغاء الفتنة.

قال أبو جعفر: والذي يدل عليه ظاهر هذه الآية أنها نزلت في الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتشابه ما أنزل إليه من كتاب الله إما في أمر عيسى، وإما في مدة أكله وأكل أمته، وهو بأن تكون في الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمتشابهه في مدته ومدة أمته أشبه، لأن قوله: (وما يعلم تأويله إلا الله) دال على أن ذلك إخبار عن المدة التي أرادوا علمها من قبل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله. فأما أمر عيسى وأسبابه، فقد أعلم الله ذلك نبيه محمداً ﷺ وأمته وبينه لهم فمعلوم أنه لم يعن إلا ما كان خفياً عن الآحاد.

قال ابن عاشور: (وأخرج البخاري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله هذه الآية إلى قوله: (**أولوا الألباب**)، قالت قال رسول الله: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم. ويقصد من قوله تعالى: (**فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه**) التعريض بنصارى نجران، إذ ألزموا المسلمين بأنّ القرآن يشهد لكون الله ثالث ثلاثة بما يقع في القرآن من ضمير المتكلم ومعه غيره من نحو خلقنا وأمرنا وقضينا، وزعموا أنّ ذلك الضمير له وعيسى ومريم ولا شك أنّ هذا إن صح عنهم هو تمويه؛ إذ من المعروف أنّ في ذلك الضمير طريقتين مشهورتين إما إرادة التشريك أو إرادة التعظيم فما أرادوا من استدلالهم هذا إلا التمويه على عامة الناس).

قال الطبري: قال بعضهم معنى ذلك: الأجل الذي أرادت اليهود أن تعرفه من انقضاء مدة أمر محمد ﷺ وأمر أمته من قبل الحروف المقطعة من حساب الجمل (الم، والمص، والر، والمر)، وما أشبه ذلك من الآجال.

- المشركون والزنادقة:

قال ابن عاشور: وليس طلبُ تأويله في ذاته بمذمّة، وإنّما محلّ الذم أنّهم يطلبون تأويلاً ليسوا أهلاً له فيؤوّلونه بما يُوافق أهواءهم. وهذا ديدن الملاحِدة وأهلِ الأهواء: الذين يتعمّدون حمل الناس على متابعتهم تكثيراً لسوادهم.

فالذين اتّبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله المنافقون، والزنادقة، والمشركون.

مثال تأويل المشركين: قصةُ العاصي بن وائل من المشركين إذْ جاءه خباب بن الأرت من المسلمين يتقاضاه أجراً، فقال العاصي متهكّما به «وإنِّي لمبعوثٌ بعد الموت أي حَسْب اعتقادكم فسوفَ أقضيك إذا رجعتُ إلى مال وولد» فالعاصي توهّم، أو أراد

الإيهام، أنّ البعث بعد الموت رجوع إلى الدنيا، أو أراد أن يوهم دهماء المشركين ذلك ليكون أدْعَى إلى تكذيب الخبر بالبعث، بمشاهدة عدم رجوع أحد من الأموات، ولذلك كانوا يقولون: **(فأْتُوا بآبائنا إن كُنتم صادقين)** الدخان: ٣٦.

ومثال تأويل الزنادقة: ما حكاه محمد بن علي بن رزام الطائي الكوفي قال: كنت بمكة حين كان الجَنَّابي زعيم القرامطة بمكة، وهم يقتلون الحجاج، ويقولون: أليس قد قال لكم محمد المكي «ومن دخله كان آمناً فأيُّ أمْن هنا؟» قال: فقلت له: هذا خرج في صورة الخبر، والمراد به الأمرُ أي ومن دخله فأمِّنُوه، كقوله: **(والمطلقات يترّبصن)** البقرة: ٢٢٨. والذين شابهوهم في ذلك كلّ قوم يجعلون البحث في المتشابه ديدنهم، ويفضون بذلك إلى خلافات وتعصّبات. وكلّ من يتأوّل المتشابه على هواه، بغير دليل على تأويله مستند إلى دليل واستعمال عربي.

وقد فُهم أنّ المراد: التأويل بحسب الهوى، أو التأويل المُلْقِي في الفتنة، بقرينة قوله تعالى: **(وما يعلم تأْويله إلا اللّه والراسخون في العلم يقولون ءامنّا به)** الآية، كما فهم من قوله: **(فيتّبعون)** أنّهم يهْتَمُّون بذلك، ويستهترون به، وهذا ملاك التفرقة بين حال من يتبع المتشابه للإيقاع في الشك والإلحاد، وبين حال من يفسّر المتشابه ويؤوّله إذا دعاه داع إلى ذلك.

قال ﷺ: (**لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا، وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله**)[١].

قال ﷺ: (**إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به**)[١].

[١] رواه الطبراني في الكبير.

وعن ابن مسعود، عن النبي صلى ﷺ قال: (**كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فأَحِّلوا حلاله، وحرِّموا حرامه وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عما نُهِيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا**)[2].

وأخرج ابن جرير، عن ابن عباس مرفوعاً: (أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب). ثم أخرجه من وجه آخر عن ابن عباس موقوفاً بنحوه.

ثانيا- ثمرة الأحاديث:

لقد كثر الحديث في المتشابهات، حتى اتخذ البعض منها طريقا لامتحان الناس في دينهم وإيمانهم، ثم يقيمونهم بحسب أهوائهم: أمن الفرقة الناجية أنتم أم لا؟ أمن أهل السنة والجماعة أنتم أم من أهل البدع؟

وهكذا، ابتلت الأمة بهذه الفرقة التي اتبعت في عصرنا الحالي، منهج الخوارج في امتحان الناس وتصنيفهم، وكل من خالفهم فهو من الفرق الهالكة.

فتسلطت هذه الفرقة من أتباع الخوارج على الناس، فيسألونهم عن مسائل لم تخطر لهم على بال، ولم يشغلوا تفكيرهم بها، عملا بما أمر به المولى عز وجل، بعدم الخوض بالمتشابهات من الآيات.

---

[1] أخرجه ابن مردويه.

[2] أرجه الحاكم، والبيهقي في الشعب بنحوه.

فيسألون العوام ليمتحنوهم: أين الله؟ كيف استوى على العرش؟ ما تقول في آية كذا وآية كذا؟ ويذكرون لهم الآيات المتشابهات، فمن أجاب بعدم المعرفة بثوا فيه بدعهم، ومن أجاب بغير ما يريدون بدّعوه وفسّقوه. ومنهم من يجلس الساعات الطوال في مثل هذه المهاترات فيفوتون على أنفسهم الصلوات والواجبات والأعمال، وهم مستغرقون في الجدال والمراء، بضللون عباد الله.

ليس هذا فحسب، بل لقد أدخلوا الريب والشبهات على قلوب العامة، وضيعوا على أنفسهم ومن تبعهم؛ الثمرات الحقيقية التي جاءت في الأحاديث التي فيها ذكر ما يوهم بالتشبيه عند أصحاب الشبهات، فمثلا، عندما قال رسول الله ﷺ: **(إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتى ينفجر الصبح)**[1].

فإنهم فوتوا على أنفسهم ثمرة هذا الحديث والغاية منه وهي اغتنام فضل الثلث الأخير من الليل بالدعاء وسؤال الله تعالى، فشغلوا أنفسهم والناس بمعنى النزول، وألهوهم عن الفائدة من الحديث وهي اغتنام ساعة الاجابة.

وقال رسول الله ﷺ: **(إن الله يمهل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع حتى ينفجر الفجر)**[2].

[1] رواه البخاري ومسلم.
[2] رواه مسلم.

وهذه الأحاديث المباركة تدور حول معنى الحديث الذي جاء في صحيح مسلم: (**إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا الا اعطاه اياه وذلك كل ليلة**).

قال النووي: (فيه إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها).

فعلينا استثمار هذا الوقت في طلب المغفرة منه تعالى، والدعاء بيقين، كأن نسأله تعالى رضاه والجنة، ونسأله النصر للأمة وتوحيد الصفوف ورفع البلاء، نسأله حاجاتنا، نسأله العفو والعافية والشفاء والرزق والفلاح والنجاح، نسأله السداد والتوفيق وتيسير الامور، نسأله موقنين بالإجابة، مغتنمين ساعة إجابة، لا أن ننشغل بحرفية كل كلمة من الأحاديث ونترك العمل به وبما حث عليه.

فتنة صرف الناس عن دينهم

وفيه سبع آيات:

١- قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ [١٩٠] وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ [١٩١] فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيم [١٩٢] وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِين [١٩٣]﴾ البقرة ١٩٠ - ١٩٣

قال القرطبي: هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: (ادفع بالتي هي أحسن)، وقوله: (فاعف عنهم واصفح).

وقوله: (واهجرهم هجرا جميلا) وقوله: (لست عليهم بمسيطر) وما كان مثله مما نزل بمكة، فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم)، قاله الربيع بن أنس وغيره، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال: (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا)، والأول أكثر، وأن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين.

وقال ابن العربي في "أحكام القرآن": (إن الله سبحانه بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بالبيان والحجة، وأوعز إلى عباده على لسانه بالمعجزة والتذكرة، وفسح لهم في

المهل، وأرخى لهم في الطيل ما شاء من المدة بما اقتضته المقادير التي أنفذها، واستمرت به الحكمة، والكفار يقابلونه بالجحود والإنكار، ويتعمدونه وأصحابه بالعداوة والإذاية، والبارئ سبحانه يأمر نبيه عليه السلام وأصحابه باحتمال الأذى والصبر على المكروه، ويأمرهم بالإعراض تارة وبالعفو والصفح أخرى، حتى يأتي الله بأمره، إلى أن أذن الله تعالى لهم في القتال. فقيل: إنه أنزل على رسوله: ﴿**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا**﴾ وهي أول آية نزلت، وإن لم يكن أحد قاتل، ولكن معناه أذن للذين يعلمون أن الكفار يعتقدون قتالهم وقتلهم بأن يقاتلوهم على اختلاف القراءتين، ثم صار بعد ذلك فرضا، فقال تعالى: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**﴾. ثم أمر بقتال الكل، فقال: ﴿**فاقتلوا المشركين**﴾ الآية، وقيل: إن هذه الآية أول آية نزلت. والصحيح ما رتبناه؛ لأن آية الإذن في القتال مكية، وهذه الآية مدنية متأخرة).

أسباب النزول:

عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صد عن البيت هو وأصحابه نحر الهدي بالحديبية، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه ثم يأتي القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء وصالحهم رسول الله ﷺ فلما كان العام المقبل تجهز رسول الله ﷺ هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله تعالى: (**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**). يعني قريشا.

التفسير:

(وقاتلوا في سبيل الله): هو الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدين، وليس في سبيل عصبية وأغراض دنيوية.

(الذين يقاتلونكم): أي إن قاتلوكم فقاتلوهم، وفيه تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله.

وقال الزمخشري وغيره: **(الذين يقاتلونكم)** الذين يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخا بقوله: **(وقاتلوا المشركين كافة)** التوبة: ٣٦.

واختلف العلماء في كونها منسوخة، فعن ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وأبي حنيفة ومالك والراجح عند أحمد وقول عند الشافعي؛ أنها محكمة ولم تنسخ، لأن المراد ب**(الذين يقاتلونكم)** هم المتهيئون لقتالكم، فالقيد لإخراج الشيوخ والنساء والأطفال، ولأن الجهاد شرع لرد الحرابة والعدوان وليس للإجبار بدخول الإسلام.

والإسلام حدد طرق التعامل مع غير المسلمين بثلاثة عناوين رئيسة:

الجهاد والدعوة – البر والقسط – عدم الموالاة:

١- فالأصل هو دعوتهم للإسلام بالحجة والبرهان والموعظة الحسنة:

قال تعالى: **﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]**

قال ابن كثير: يقول تعالى آمرا رسوله محمدا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله **(بالحكمة)**. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة **(والموعظة الحسنة)** أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: (وجادلهم بالتي هي أحسن) أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: **(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم)** العنكبوت: ٤٦، فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فقال: **(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)** طه: ٤٤.

فالإسلام أمر بالتدرج في دعوة الآخرين حتى يدخلوا في الدين عن قناعة وفهم وإرادة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن معاذا رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله ﷺ قال: **إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**). رواه مسلم.

٢- رفع راية الجهاد بشروطه المعتبرة لصد العدوان:

قال القرطبي: روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم): أهل الحديبية أمروا بقتال من قاتلهم، والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين، أمر كل أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه. ألا تراه كيف بينها في سورة "براءة" بقوله: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وذلك أن المقصود أولا كان أهل مكة فتعينت البداءة بهم، فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلي ممن كان يؤذي

حتى تعم الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة، وذلك باق متماد إلى يوم القيامة، ممتد إلى غاية هي قوله عليه السلام: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم، وقيل: غايته نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو موافق للحديث الذي قبله، لأن نزوله من أشراط الساعة.

٣- **البر والعدل مع من لم يقاتل أهل الإسلام**: وهو الكافر المسالم غير المحارب، وهذا أمر الإسلام بالبر إليه والقسط معه، كالمعاهد والذمي والمستأمن، قال تعالى:

﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [٨] إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [٩] ﴾ الممتحنة.

(ولا تعتدوا) أي: بابتداء القتال. أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان وأصحاب الصوامع، والذين بينكم وبينهم عهد. أو بالمثلة، أو بالمفاجأة من غير دعوة، وقيل: المعنى لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر

(إن الله لا يحب المعتدين) أي: المتجاوزين حكمه في هذا وغيره.

(حيث ثقفتموهم): الثقف: وجود على وجه الأخذ والغلبة، أي حيث وجدتموهم في حل أو حرم.

(من حيث أخرجوكم) أي: من حيث أخرجوا المهاجرين من مكة وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن لم يسلم منهم يوم الفتح.

قال ابن عاشور: (وفي هذا تهديد للمشركين ووعد بفتح مكة، فيكون هذا اللقاء لهذه البشرى في نفوس المؤمنين ليسعوا إليه حتى يدركوه وقد أدركوه بعد سنتين، وفيه وعد

من الله تعالى لهم بالنصر كما قال تعالى: **(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام)** الآية).

(والفتنة أشد من القتل): وهذا تقرير بأن الفتنة في الدين أشد من القتل، أي أن ما لاقيتموه أيها المؤمنون من في مكة من أصناف الأذى والعذاب والسخرية والتهجير من دياركم لصدكن عن دينكم؛ لهو أكبر من قتلهم إياكم، فالقتل أخف وطأة من الفتنة، لأن ألم القتل لا يتكرر كألم وضرر الفتن، فإذا قاتلتموهم لمنع تكرر الفتنة التي حدثت معكم سابقا؛ فأنتم معذورون، وإن بدؤوكم بالقتال فقاتلوهم وإن كان عند المسجد الحرام لأن الفتنة أكبر.

مسألة: ناسب في هذا الموضع ذكر لفظ (شدة) في وصف الفتنة، والشدة تحمل معاني تزايد القوة والقسوة لبلوغ درجة الاكتمال؛ (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) الأحقاف: ١٥، أي بلغ درجة اكتمال قوته وأعظمها، لأن سياق الآيات تحمل معاني شدة ما لقيه المؤمنون من أذى وعذاب وإخراج من ديارهم.

وفي هذا المعنى، أي قسوة الإخراج من الديار؛ قال تعالى: **﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[النساء:٦٦]**

فَقَرَنَ بين أن يقتل المرء نفسه وبين الخروج من الديار؛ لما فيهما من شدة وقسوة على النفس البشرية.

وكما أن في القتل اعتداء على جسد الإنسان ككتلة واحدة، فإن في الفتنة اعتداء على قلب الإنسان وعقله وفكره وحريته وكرامته واعتقاداته وإيمانه، فهو

اعتداء متعدد الجوانب، تتعدد به الآلام والأوجاع، وتكون أشد تأثيرا وعمقا في النفس، لذا كانت الفتنة أشد من القتل، وأكبر من القتل كما في الآية القادمة.

قيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت، ومنه قول القائل:

لقتل بحد السيف أهون موقعا   على النفس من قتل بحد فراق

(فإن انتهوا): عن فتنهم وقتالهم لكم، كقوله تعالى: **(إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)** الأنفال: ٣٨

(حتى لا تكون فتنة): أي قاتلوهم حتى لا تزداد قوتهم فيفتنوكم عن دينكم ويصدوكم عنه كما أخرجوكم حينما هاجرتم في أصقاع الأرض وآذوكم وأخذوا أموالكم ودوركم يريدون بذلك أن يعيدوكم في الكفر، فقاتلوهم حتى تضمنوا بذلك أمنكم الإيماني الذي في قلوبكم، وأمنكم الدعوي الذي أنتم مكلفون فيه بنشر دين الإسلام.

وجاءت كلمة (فتنة) نكرة في سياق النفي؛ وهي تفيد عموم الفتن التي تعرفونها والتي قد لا تتوقعون حدوثها لكم إن لم تقاتلوهم.

وفي هذه المعاني قريب منها أشار إليه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما حين قال: (قاتلناهم حتى لا تكون فتنة).

قال نافع: جاء رجل إلى ابن عمر في فتنة ابن الزبير فقال: ما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله تعالى قد حرم دم أخي، قال: ألا تسمع ما ذكره الله عز وجل **(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)** الحجرات: ٩، قال: يا ابن أخي لأن أعير بهذه الآية

ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل فيها: **(ومن يقتل مؤمنا متعمدا)** النساء: ٩٣، قال: ألم يقل الله: **(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة)**؟ قال: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما يقتلونه أو يعذبونه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

(فإن انتهوا): عن الكفر وأسلموا.

(فلا عدوان) فلا سبيل (إلا على الظالمين) قاله ابن عباس.

وقال أهل المعاني: العدوان: الظلم، أي فإن أسلموا فلا نهب ولا أسر ولا قتل (إلا على الظالمين) الذين بقوا على الشرك وما يفعل بأهل الشرك من هذه الأشياء لا يكون ظلما وسماه عدوانا على طريق المجازاة، والمقابلة كما قال: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه)، وكقوله تعالى: (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، ٤٠الشورى، وسمي الكافر ظالما لأنه يضع العبادة في غير موضعها.

(ويكون الدين لله): خالصا ليس للشيطان فيه نصيب.

(فإن انتهوا): عن الشرك.

(فلا عدوان إلا على الظالمين): فلا تعدوا على المنتهين، لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم، فوضع قوله: إلا على الظالمين موضع على المنتهين، أو فلا تظلموا إلا الظالمين غير المنتهين، سمي جزاء الظالمين ظلما للمشاكلة، كقوله تعالى: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) أو أريد أنكم إن تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فيسلط عليكم من يعدو عليكم.

٢- قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ [البقرة:٢١٧]

سبب النزول:

قال الشيخ محمد سيد طنطاوي في الوسيط: (ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير في سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها: أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين، وأعطاه كتابا مختوما وأمره ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحدا من أصحابه. فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيرا لقريش وتعلم لنا من أخبارهم.

فقال عبد الله: سمعا وطاعة!! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهض! فنهضوا جميعا، فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما يعتقبانه. فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش في طريقها لمكة وكانت في حراسة عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب. لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن في الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في

الشهر الحرام!! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى «واقد بن عبد الله» عمرو بن الحضرمي يسهم فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم.

وقيل كان ذلك في أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ.

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه وقال لهم: (**ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام**) وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا. وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام، واشتد ذلك على المسلمين، حتى أنزل الله تعالى قوله: ﴿**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ**﴾).

التفسير:

ثم أجمل الشيخ سيد طنطاوي المعنى فقال:

(والمعنى: يسألونك يا محمد عن حكم القتال في الشهر الحرام، قل لهم: القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقبح، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاكاً لمحارم الله تعالى.

والسائلون قيل هم المؤمنون وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والتماس المخرج لما حصل منهم. وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعيير للنبي ﷺ وأصحابه، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به... إلخ أكبر من ذلك بكثير.

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين. وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجرا.

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.
وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، فأل في الشهر للجنس. وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه. وقوله «قتال فيه» بدل اشتمال من الشهر الحرام، وقِتالٌ مبتدأ وكَبِيرٌ خبر وفِيهِ ظرف صفة لقتال مخصصة له.

ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجهلهم بالميقات فقال تعالى: **(وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَكُفْرٌ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ)**.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال في الشهر الحرام كبير، ثم قل لهم أيضا على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه، ومن شرككم بالله في بيته، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزرا عند الله من القتال في الشهر الحرام.

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه، وتبكيت المشركين على جرائمهم التي أولها

يتمثل في قوله تعالى: (وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) أي: منع من يريد الإسلام من دخوله، وابتدأ سبحانه ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته.

وثانيها قوله: وَكُفْرٌ بِهِ أي: كفر بالله تعالى وهو معطوف على ما قبله.

وثالثها قوله: وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ وهو معطوف على سبيل الله أي: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار.

ورابعها قوله: وَإِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أى: وإخراج النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه، كل ذلك «أكبر» جرما، وأعظم إثما «عند الله» من القتال في الشهر الحرام.

قال الجمل: فقوله {أكبر} خبر عن الثلاثة أعنى: صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان: أحدهما: أن يكون خبرا عن المجموع.

وثانيهما: أن يكون خبرا عنها باعتبار كل واحد كما تقول: زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أي: كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد، وهذا هو الظاهر. والمفضل عليه محذوف أي: أكبر مما فعلته السرية.

ثم أضاف سبحانه إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال: **"وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ"** أي: ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتل في الشهر الحرام، لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة.

وقيل: المراد بالفتنة هنا الكفر. أي: كفركم بالله أكبر من القتل في الشهر الحرام.

(وَلا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا): بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها. أي: ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا ذلك وقدروا عليه.

والتعبير بقوله {ولا يزالون} المفيد للدوام والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع، وأنهم لن يكفوا عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن الدفاع عن أنفسهم.

وحَتَّى للتعليل أي: لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم أو بمعنى إلى، أي: إلى أن يردوكم عن دينكم. والرد: الصرف عن الشيء والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك: فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد إيمانهم كافرين.

وقوله: إِنِ اسْتَطاعُوا يدل- كما يقول الزمخشري- على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم، وذلك كقول الرجل لعدوه: إن ظفرت بي فلا تبق على. وهو واثق من أنه لن يظفر به. ويشهد لذلك التعبير بإن المفيدة للشك.

وفائدة التقييد بالشرط «إن» التنبيه على سخافة عقول المشركين، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدى إلى النتيجة التي يتمنونها وهي رد المسلمين عن دينهم، لأن لهذا الدين ربا يحميه، وأتباعه يفضلون الموت على الرجوع عنه.

ثم بين سبحانه سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال: **(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ، فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ)**. ويرتدد: يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر.

(وحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ) أي: بطلت وفسدت وأصله من الحبط، بفتح الباء- وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيرا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع بها أكلت ويفسد حالها وربها تموت من ذلك. شبه- سبحانه- حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه، بحال الدابة التي أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها.

والمعنى: ومن يرتدد منكم عن دين الإسلام، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة، وصارت غير نافعة لهم لا في الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين، ولا في الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا كسائر الكفرة، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئا.

وجيء بصيغة الافتعال من الردة وهي مؤذنة بالتكلف، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه، فهذا المرتد لم يكن مستقرا على هذا الدين الحق وإنما كان قلقا مضطربا غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول في الدين الحق دون الثبات عليه.

وفي قوله: مِنْكُمْ إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهي أن يردوا المسلمين جميعا عن دينهم. بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم، فيكون الله- تعالى- قد نفى خبثه عن هذا الدين، إذ لا خير في هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد إليهم بعد إيمانه، والكل مأواهم النار وبئس القرار.

قال الجمل: ومن شرطية في محل رفع بالابتداء، يرتدد فعل الشرط، ومنكم متعلق بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن في يرتدد ومن للتبعيض، والتقدير: ومن يرتدد في حال كونه كائنا منكم أي بعضكم، وعن دينه متعلق ب"يرتدد"، وقوله

فيمت وهو كافر عطف على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب، وقوله: وَهُوَ كَافِرٌ جملة حالية من ضمير يمت. وقوله:

فأولئك جواب الشرط. وقوله: وأولئك أصحاب النار مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط...

وفي الإتيان باسم الإشارة «أولئك» في الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر.

وفي التنصيص على حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم، فهم في الدنيا- بسبب ردتهم- تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت، والدفن في مقابر المسلمين، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين، أما في الآخرة فشأنهم شأن الكافرين في ملازمتهم للنار).

٣- قال تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٠١]

التفسير الإجمالي:

قال الطبري: أي: وإذا سرتم أيها المؤمنون في الأرض، فليس عليكم حرج ولا إثم. أن تقصروا من عددها، فتصلوا ما كان لكم عدده منها في الحضر وأنتم مقيمون أربعًا، اثنتين، في قول بعضهم. وقيل معناه: لا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إلى أقلِّ عددها في حال ضربكم في الأرض، أشار إلى واحدة، في قولِ آخرين. وقال آخرون: معنى ذلك: لا جناح عليكم أن تقصروا من حدود الصلاة.

(إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا): إن خشيتم أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم. وفتنتهم إياهم فيها حملهم عليهم وهم فيها ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامتها وأدائها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له.

(إن الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبينًا): ثم أخبرهم جل ثناؤه عما عليه أهل الكفر لهم، أن هؤلاء الجاحدين وحدانية الله، عدوٌّ قد أبانوا لكم عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله وبرسوله، وترككم عبادة ما يعبدون من الأوثان والأصنام، ومخالفتكم ما هم عليه من الضلالة.

ثم ساق الطبري بسنده إلى يعلى بن منية قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: (فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم)، وقد أمن الناس!

فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه، حتى سألت النبي ﷺ عن ذلك فقال: **(صدقة تصدَّق الله بها عليكم، فاقبلوا صدَقته).**

وعن أبي العالية قال: سافرت إلى مكة، فكنت أصلّي ركعتين، فلقيني قُرَّاء من أهل هذه الناحية، فقالوا: كيف تصلي؟ قلت ركعتين. قالوا: أسنة أو قرآن؟ قلت: كلٌّ، سنة وقرآن، فقد صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين. قالوا: إنه كان في حرب! قلت: قال الله: **(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ)** الفتح: ٢٧، وقال: **(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة)**، فقرأ حتى بلغ: **(فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ)** .

وعن علي رضي الله عنه قال: سأل قومٌ من التجار رسولَ الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنـزل الله: " وإذا ضربتم في الأرض فليس

عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة "، ثم انقطع الوحي. فلما كان بعد ذلك بِحَوْلٍ، غزا النبي ﷺ فصلى الظُّهر، فقال المشركون: لقد أمْكَنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إنّ لهم أخرى مثلها في إِثرها! فأنـزل الله تبارك وتعالى بين الصلاتين: **﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ إلى قوله: إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾**، فنـزلت صلاة الخوف.

قال أبو جعفر: وهذا تأويل للآية حسن، لو لم يكن في الكلام "إذا"، و "إذا" تؤذن بانقطاع ما بعدها عن معنى ما قبلها. ولو لم يكن في الكلام "إذا"، كان معنى الكلام – على هذا التأويل الذي رواه سيف عن أبي روق: إن خفتم، أيها المؤمنون، أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم، وكنت فيهم، يا محمد، فأقمت لهم الصلاة،" فلتقم طائفة منهم معك " الآية.

والمراد بالفتنة هنا: قال الشيخ محمد سيد طنطاوي: إنزال الأذى بالمؤمنين.

أي: إن خفتم أن يتعرض لكم المشركون بما تكرهونه من القتال أو غيره حين سفركم فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة.

وقوله **﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً﴾** تعليل لتأكيد أخذ الحذر من الكفار دائما، لأن عداوتهم للمؤمنين ظاهرة، وكراهتهم لهم شديدة. أي: إن الكافرين كانوا وما زالوا بالنسبة لكم- أيها المؤمنون- يظهرون العداوة، وما تخفيه صدورهم لكم من أحقاد وكراهية أشد وأكبر. وقد أكد سبحانه هذه العداوة بإن الدالة على التوكيد، وبكان المفيدة للدوام والاستمرار، وبوصف هذه العداوة بالسفور والظهور، لكي يحترس المسلمون منهم أشد الاحتراس.

وقال الفخر الرازي: (أما قوله: **(إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا)**، ففي تفسير هذه الفتنة قولان: الأول: خفتم أن يفتنوكم عن إتمام الركوع والسجود في جميعها.

الثاني: إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا بعداوتهم، والحاصل أن كل محنة وبلية وشدة فهي فتنة).

ثم قال تعالى: **(إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا)** والمعنى: أن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة، والآن قد أظهرتم خلافهم في الدين وازدادت عداوتهم، وبسبب شدة العداوة أقدموا على محاربتكم وقصد إتلافكم إن قدروا، فإن طالت صلاتكم فربما وجدوا الفرصة في قتلكم، فعلى هذا رخصت لكم في قصر الصلاة، وإنما قال: (عدوا) ولم يقل: أعداء؛ لأن العدو يستوي فيه الواحد والجمع، قال تعالى: {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} الشعراء: ٧٧.

٤- قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِير (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِير﴾ [الأنفال:٣٩-٤٠]

عن هشام بن عروة عن أبيه: أن عبد الملك بن مروان كتبَ إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة، وكان ملخص ما كتبه:

(سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، ... وإنه لما دعا رسول الله ﷺ قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنـزل عليه، لم يَبْعُدوا منه أوّلَ ما دعاهم إليه وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف

من قريش، لهم أموال، أنكر ذلك ناسٌ، واشتدّوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل.

فمكث بذلك ما قدّر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم فكانت فتنةً شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء منهم. فلما فُعِل ذلك بالمسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة. وكان بالحبشة ملك صالح يقال له "النجاشي"، لا يُظلم أحد بأرضه، وكان يُثْنَى عليه مع ذلك، ... فذهب إليها عامتهم لما قُهِروا بمكة، وخاف عليهم الفتن.

ومكث هو فلم يبرح، فمكث ذلك سنوات يشتدُّون على من أسلم منهم، ...وكانت الفتنة الأولى هي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قِبَل أرض الحبشة، مخافتَها، وفرارًا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال. ... وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير، وفشا بالمدينة الإسلام، وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة. فلما رأت ذلك قريش، تذامرَتْ على أن يفتنوهم ويشتدّوا عليهم، فأخذوهم، وحرصوا على أن يفتنوهم، فأصابهم جَهْدٌ شديد. وكانت الفتنة الآخرة.

فكانت ثنتين: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة، حين أمرهم رسول الله ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها.

وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة. ثم إنه جاء رسولَ الله ﷺ من المدينة سبعون نقيبًا، رؤوس الذين أسلموا فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم على أنّا منك وأنت منا وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا، فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا. فاشتدت عليهم قريش عند ذلك. فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن

يخرجوا إلى المدينة وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو وهي التي أنـزل الله فيها: ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾).

التفسير:

(وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِّ) أي وقاتلهم أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب وضروب الإيذاء لأجل تركه كما فعلوا ذلك حين كانت لهم القوة والبطش في مكة، إذ أخرجوكم منها لأجل دينكم ثم أتوا لقتالكم في دار الهجرة، وحتى يكون الدين كله لله فلا يستطيع أحد أن يفتن أحدا عن دينه ويكرهه على تركه إلى دين المكره تقيّة وخوفا.

وخلاصة ذلك - قاتلوهم حتى يكون الناس أحرارا في عقائدهم لا يكره أحد أحدا على ترك عقيدته إكراها ولا يؤذى ويعذب لأجلها كما قال تعالى: {لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} والمسلمون إنما يقاتلون لحرية دينهم ولا يكرهون عليه أحدا من دونهم.

وروي عن ابن عباس تفسير الفتنة بالشرك، وعن الحسن: حتى لا يكون بلاء. وعن ابن جريج: أي لا يفتن مؤمن عن دينه ويكون التوحيد لله خالصًا ليس فيه شرك ويُخلع ما دونه من الأنداد.

والمعنى عليه: قاتلوهم حتى لا يبقى شرك وتزول الأديان الباطلة فلا يبقى إلا الإسلام.

ويؤيد الرأي الأول أنه جاء رجلان في فتنة ابن الزبير إلى عبد الله بن عمر فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني أن الله حرم عليّ دم أخي المسلم. قالا: أولم

يقل الله {وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِّ} قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

(فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَّ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ): فإن انتهوا عن الفتنة وعن قتالكم فإن الله يجازيهم على ما فعلوا بحسب علمه.

(وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ مَوْلاكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ): وإن أعرضوا عن سماع تبليغكم ولم ينتهوا عن كفرهم وفتنتهم وقتالهم لكم فأيقنوا بنصر الله ومعونته لكم وهو متولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخشوا بطشهم، وهو نعم المولى ونعم النصير فلا يضيع من تولاه ولا يغلب من نصره.

وما غلب المسلمون في العصور الأخيرة وذهب أكثر ملكهم إلا لأنهم تركوا الاهتداء بهدى دينهم وتركوا الاستعداد المادي والحربي الذي طلبه الله بقوله: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ} واتكلوا على خوارق العادات وقراءة الأحاديث والدعوات، وذلك ما لم يشرعه الله ولم يعمل به رسوله - إلى أنهم تركوا العدل والفضائل وسنن الله في الاجتماع التي انتصر بها السلف الصالح، وأنفقوا أموال الأمة والدولة فيما حرم الله عليهم من الإسراف في شهواتهم.

وعلى العكس من ذلك اتبع الإفرنج تعاليم الإسلام فاستعدوا للحرب واتبعوا سنن الله في العمران فرجحت كفّتهم، ولله الأمر.

وما مكّن الله لسلف المسلمين من فتح بلاد كسرى وقيصر وغيرهما من البلاد إلا لما أصاب أهلها من الشرك وفساد العقائد في الآداب ومساوئ الأخلاق والعادات

والانغماس في الشهوات واتباع سلطان البدع والخرافات - فجاء الإسلام وأزال كل هذا واستبدل التوحيد والفضائل بها، ومن ثم نصر الله أهله على الأمم كلها.

ولما أضاع جمهرة المسلمين هذه الفضائل واتبعوا سنن من قبلهم في اتباع البدع والرذائل وقد حذرهم الإسلام من ذلك، ثم قصروا في الاستعداد المادي والحربي للنصر في الحرب عاد الغلب عليهم لغيرهم ومكنّ لسواهم في الأرض: {وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ} أي الصالحون لاستعمارها والانتفاع بما أودع فيها من كنوز وخيرات.[1]

٥- قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠]

يبين الله تعالى حال الذين فتنوا، ممن استضعفهم المشركون وآذوهم، ثم هاجروا من ديارهم مرغمين، ثم جاهدوا وصبروا على جهادهم، أن الله تعالى غفور لما صدر من بعضهم من مسايرة المشركين بأن قالوا بألسنتهم كلمة الكفر، ولكن قلوبهم مطمئنة بالإسلام وللإسلام، وذلك كما حدث مع عمار بن ياسر رضي الله عنه.

روى الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم وقُتِل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا فاستغفروا لهم، فنـزلت: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْملائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ...) إلى آخر الآية؛ قال: وكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين هذه الآية لا عذر لهم، قال: فخرجوا

[1] من تفسير الشيخ المراغي، مع تصرف وزيادة يسيرة.

فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة، فنـزلت هذه الآية: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وأيسوا من كلّ خير، ثم نـزلت فيهم **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾** فكتبوا إليهم بذلك: إن الله قد جعل لكم مخرجا، فخرجوا، فأدركهم المشركون فقاتلوهم، ثم نجا من نجا، وقُتِل من قُتِل.

عن ابن إسحاق قال: نـزلت هذه الآية في عمَّار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾**.

وعن عكرمة والحسن البصري، قالا في سورة النحل **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**، ثم نسخ واستثنى من ذلك، فقال: **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** وهو عبد الله بن أبي سرح الذي كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأزلَّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يُقتل يوم فتح مكة، فاستجار له أبو عمرو فأجاره النبيّ صلى الله عليه وسلم.

التفسير:

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا من ديارهم ومساكنهم وعشائرهم من المشركين، وانتقلوا عنهم إلى ديار أهل الإسلام ومساكنهم وأهل ولايتهم، من بعد ما فتنهم المشركون الذين كانوا بين أظهرهم قبل

هجرتهم عن دينهم، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف وبألسنتهم بالبراءة منهم، ومما يعبدون من دون الله، وصبروا على جهادهم).

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) يقول: إن ربك من بعد فعلتهم هذه لهم لغفور، يقول: لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم، وهم لغيرها مضمرون، وللإيمان معتقدون، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إلى الله وتوبتهم.

وذكر عن بعض أهل التأويل أن هذه الآية نـزلت في قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا تخلَّفوا بمكة بعد هجرة النبيّ ﷺ، فاشتدّ المشركون عليهم حتى فتنوهم عن دينهم، فأيسوا من التوبة، فأنـزل الله فيهم هذه الآية: فهاجروا ولحقوا برسول الله ﷺ.

عن مجاهد: **(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ)** قال ناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض أصحاب النبيّ ﷺ بالمدينة، أن هاجروا، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق، ففتنوهم وكفروا مكرهين، ففيهم نـزلت هذه الآية.

وعن قتادة **قوله (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)** ذكر لنا أنه لما أنـزل الله أن أهل مكة لا يُقبل منهم إسلام حتى يهاجروا، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة؛ فلما جاءهم ذلك تبايعوا بينهم على أن يخرجوا، فإن لحق بهم المشركون، من أهل مكة قاتلوهم حتى ينجوا أو يلحقوا بالله ، فخرجوا فأدركهم المشركون، فقاتلوهم، فمنهم من قُتِل، ومنهم من نجا ، فأنـزل الله تعالى **(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا)** الآية.

٦- **قال تعالى:**

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]

قال المفسرون:

والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات، هم مشركو قريش، وليس أصحاب الأخدود، لأن قوله: (ثم لم يتوبوا): فيه تعريض وتحفيز للتوبة، فكان منهم من آمن وتاب بعد ذلك، ومع ذلك فإن الآية الكريمة عامة في كل من يفتن المؤمنين والمؤمنات ولم يتب عن فتنته.

فأما من لم يتب عن فتنة المسلمين ولم يبالِ بعذاب الله تعالى، فله عذاب جهنم يوم الحساب، و(لهم عذاب الحريق): قيل: هو نار أخرى زائدة الإحراق؛ نكالاً وجزاء لأعمالهم في إفتان المسلمين. وقيل: إن عذاب جهنم وعذاب الحريق هو واحد؛ على أن العذاب هو محض الحريق وذكر ذلك للمبالغة فيه.

قال ابن عاشور: (وجملة: (ولهم عذاب الحريق) عطف في معنى التوكيد اللفظي لجملة: (لهم عذاب جهنم. واقترانُها بواو العطف للمبالغة في التأكيد بإيهام أن من يريد زيادة تهديدهم بوعيد آخر فلا يُوجد أعظم من الوعيد الأول. مع ما بين عذاب جهنم وعذاب الحريق من اختلاف في المدلول وإن كان مآل المدلولين واحداً. وهذا ضرب من المغايرة يحسن عطف التأكيد. على أن الزج بهم في عذاب جهنم قبل أن يذوقوا حريقها لما فيه من الخزي والدفع بهم في طريقهم قال تعالى: (يوم يدعون إلى نار جهنم دعّاً) الطور: ١٣، فحصل بذلك اختلاف ما بين الجملتين.

ويجوز أن يراد بالثاني مضاعفة العذاب لهم كقوله تعالى: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾** . النحل: ٨٨.

ويجوز أن يراد بعذاب الحريق حريق بغير جهنم وهو ما يضرم عليهم من نار تعذيب قبل يوم الحساب كما جاء في الحديث: (**القبر حفرة من حفر جهنم، أو روضة من رياض الجنة**)[1].

وقد عُدّ من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأسُ الفتنة ومِسْعَرها، وأميةُ بن خلف وصفوانُ بن أمية، والأسودُ بن عبد يغوث، والوليدُ بن المغيرة، وأمُّ أنْمار، ورجل من بني تَيْم.

والمفتونون: عد منهم بلالُ بن رباح كان عبداً لأمية بن خلف فكان يعذبه، وأبو فُكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، وخَبَّابُ بن الأرتِّ كان عبداً لأمّ أنمار، وعَمّار بن ياسر، وأبوه ياسِر، وأخوه عبد الله كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة فوكَل بهم أبا جهل، وعامرُ بن فُهيرة كان عبداً لرجل من بني تَيْم.

والمؤمنات المفتونات منهنّ: حَمَامَةُ أمُّ بلال أمَةُ أمية بن خلف. وزِنِّيرَة، وأمُّ عنَيْس كانت أمة للأسود بن عبد يغوث والنهدية. وابنتها كانتا للوليد بن المغيرة، ولطيفةُ، ولبينةُ بنت فهيرة كانت لعُمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يَضربها، وسُمية أمُّ عمار بن ياسر كانت لعمّ أبي جهل.

وفُتِن ورجَع إلى الشرك: الحارثُ بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعليُّ بن أمية بن خلف، والعاصي بن المنبه بن الحجاج).

[1] رواه البيهقي في سننه.

وقال الشيخ الشنقيطي: (يحتمل أن يكون مرادا به أصحاب الأخدود، و"فتنوا" بمعنى أحرقوا؟ ويحتمل أن يكون عاما في كل من آذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب.

وقد رجح الأخير أبو حيان، وحمله على العموم أولى؛ ليشمل كفار قريش بالوعيد والتهديد، وتوجيههم إلى التوبة مما أوقعوه بضعفة المؤمنين: كعمار وبلال وصهيب وغيرهم،

ويرجح هذا العموم، العموم الآخر الذي يقابله في قوله: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير**﴾ . فهذا عام بلا خلاف في كل من اتصف بهذه الصفات).

فتنة صد المؤمنين عن دينهم بين الماضي والحاضر:

قال تعالى:

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]

بدأ الصد للمسلمين عن دينهم منذ أول يوم من الدعوة الإسلامية، حين قال المشركون: ألهذا جمعتنا؟!

ثم اتخذ صوراً من التكذيب والاستهزاء بصاحب الدعوة ﷺ، ولكنه صبر واستعان بالله واستمر بالدعوة، ثم مع دخول الناس إلى الإسلام، اتخذت محاولات صدهم صورا وأشكالا من التعذيب والأذى وإخراج المسلمين من ديارهم.

وهكذا في كل زمان ومكان، حتى وصل إلى ذروته في العصور المتأخرة، فتوسعت أشكال الصد والعداء للإسلام والمسلمين؛ فاستغلت كل ما يمكن استغلاله من أفكار ووسائل، وغدت منظمة تنظيماً له تمويله وخططه ودسائسه، المعلنة تارةً والمخفية تارة أخرى.

وليس الاحتلال العسكري والحروب المفتعلة على المسلمين إلا إحدى هذه الصور والأشكال، ولكن الأخطر منها ما اتخذوه من حروب ثقافية واقتصادية ونفسية وإعلامية، تهدف إلى زعزعة الإسلام في صدور المسلمين، بكافة الإمكانات المتاحة، فكانت ما يسمى بالإرساليات والتبشير والاستشراق، والتي أصبحت تسمى فيما بعد بمراكز البحث والتنوير والدراسات الاجتماعية، وما شابه ذلك.

وقد عقدوا لأهدافهم المؤتمرات وطبعوا المطبوعات، والتي لا تخفى على متابع، كمؤتمرات: القاهرة عام ١٩٠٦، ومؤتمر بيروت ١٩١١، ومؤتمر القدس ١٩٢٤، و١٩٣٥، ومؤتمر دلهي ١٩٦١، وغيرها إلى اليوم.

ثم جاء الدور الأكبر والأخطر من كل ما سبق، وهو تجنيد من يقوم بتنفيذ أهدافهم من أبناء جلدتنا من عرب ومسلمين، مكررين ذات الشبهات التي ابتدعها أسلافهم وأساتذتهم الغربيون من قبل.

فإن كان مثلا: "صاموئيل زويمر"، هذا الذي كان رئيس مؤتمر القاهرة ١٩٠٦، وصاحب كتاب "الهداية" المطبوع في القاهرة عام ١٨٩٥، والذي جمع فيه من كل الأفكار الخبيثة والشبهات، ما أصبح فيما بعد كتيبات مستقلة وموسعة، شبهات حول الإسلام والقرآن والأحكام الشرعية والسيرة النبوية والحديث الشريف ورواته ورجاله.

فإذا كان زويمر نموذجاً للمستشرق التبشيري الضلالي في بث الشبهات، فإن أتباعه من أبناء جلدتنا الذي أكملوا مسيرته الخبيثة في بث الشبهات من داخل المجتمع الإسلامي، لهُم أكثر خطراً من سلفهم نفسه، لأن المسلم قد يحذر من الغريب ولكنه قد يركن لابن جلدته وملته، ولن يتوقع منه الخبث والفساد، خاصة إذا كان هذا الخبيث عليم اللسان ساحر البيان يعرف أساليب المكر والخداع والتدليس.

والحقيقة أن شبهات هؤلاء المخادعين، مكررة هي ذاتها في كل زمان ومكان منذ فجر الإسلام كما ذكرت آنفا، بل لقد ذكر لنا القرآن الكريم ذلك ورد عليهم، ولكن لغبائهم وجهلهم لم يتنبهوا إلى أنهم مفضوحون حتى من قبل أن يظهروا، ونجد ذلك في كتاب الله تعالى، فعلى سبيل المثال في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ

عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:١٤٢]

وفي قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُون [١٤٨] قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين [١٤٩] قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون [١٥٠] قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون [١٥١] ﴾ الأنعام.

فقال القرآن إنهم سيقولون كذا وكذا، وقد قالوا فعلا، ورد الله عليهم. فنقول لهؤلاء الجدد الذين يحملون أفكار وشبهات أعداء الإسلام؛ اخسؤوا فإنكم لم تأتوا بجديد، وما أنتم إلا مرددون لما قيل لكم، فلن تعلوا قدركم.

فإذا كان من الأفضل ألا أذكر الشبهات التي ذكروها حتى لا أكون مساعداً على نشرها، ولأن مقامنا في كتابنا هذا "الفتن الواردة في القرآن الكريم" لا يسمح لذكرها والرد عليها حتى لا نطيل ونخرج عن أصل المراد من الكتاب، فلا بأس أن أشير على عجالة إلى تلميح على أبرز هذه الشبهات ومن رد عليها: ككتاب الإسلام والحضارة الغربية وكتاب حصوننا مهددة من الداخل، للدكتور محمد محمد حسين، وكتاب شبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب.

فتنة التكذيب بالغيب

وفيها أربعة مواضع:

١- فتنة التكذيب بحقيقة الإسراء: قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٦٠]

أسباب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال: هي رؤيا عين أريها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به إلى بيت المقدس. قال: والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم. رواه البخاري والترمذي وقال: هذا حديث صحيح.

قال القرطبي: وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والضحاك وابن أبي نجيح وابن زيد.

وعن الحسن قال: أُسري به عشاء إلى بيت المقدس، فصلى فيه، وأراه الله ما أراه من الآيات، ثم أصبح بمكة، فأخبرهم أنه أُسري به إلى بيت المقدس، فقالوا له: يا محمد ما شأنك، أمسيت فيه، ثم أصبحت فينا تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس، فعجبوا من ذلك حتى ارتدّ بعضهم عن الإسلام.

وقال: قال كفار مكة: أليس من كذب ابن أبي كبشة – حاشاه ﷺ – أنه يزعم أنه سار مسيرة شهرين في ليلة. رواه الطبري.

وعن ابن زيد قال: هذا حين أُسري به إلى بيت المقدس، افتتن فيها ناس، فقالوا: يذهب إلى بيت المقدس ويرجع في ليلة؟! ... وقالوا: ما كان محمد لينتهي حتى يأتي بكذبة تخرج من أقطارها، فأتوا أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: هذا صاحبك يقول كذا وكذا، فقال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: إن كان قد قال ذلك فقد صدق، فقالوا: تصدّقه إن قال ذهب إلى بيت المقدس ورجع في ليلة؟ فقال أبو بكر: إي، نـزع الله عقولكم، أصدّقه بخبر السماء، والسماء أبعد من بيت المقدس، ولا أصدّقه بخبر بيت المقدس؟ قالوا للنبيّ ﷺ: إنا قد جئنا بيت المقدس فصفه لنا، فلما قالوا ذلك، رفعه الله تبارك وتعالى ومثله بين عينيه، فجعل يقول: هو كذا، وفيه كذا، فقال بعضهم: وأبيكم إن أخطأ منه حرفا، فقالوا: هذا رجل ساحر. فكان فتنة لهم. رواه الطبري.

التفسير:

ومن أسباب النزول المذكورة آنفا؛ يتضح معنى الآية الكريمة، فمن أركان الإيمان: الإيمان بالغيب وبالرسل وما أكرمهم به من معجزات، ومنها معجزة الاسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حقيقة بجسده وروحه في توقف زمني، ولا يستطيع ايقاف الزمن إلا خالق الزمن سبحانه وتعالى، فالتصديق بالحدث هو إيمان بقدرة القادر سبحانه وتصديق لمن أخبر ﷺ، وهو الصادق المصدوق، وهذا هو الفرق العظيم بين سرعة التصديق والإيمان كما فعل أبو بكر رضي الله عنه، وبين المضطربة قلوبهم من أهل النفاق.

(إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ): قال قتادة: الرؤيا التي أريناك في بيت المقدس حين أُسري به، فكانت تلك فتنة الكافر. وقال القرطبي: وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسري به.

(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ): وهي شجرة الزقوم، وسنتحدث عنها بعد قليل إن شاء الله.

قال الطبري: لما ذكرها زادهم افتتانا وطغيانا، قال الله تبارك وتعالى: (وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا): أي نخوف الكفار بالوعيد والعذاب، فما يزدادون إلا تماديا في الكفر والضلال.

٢- **فتنة "شجرة الزقوم"، قال تعالى**:

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ(69) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ(70)). الصافات.

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى ثواب أهل الجنة وما أعد لهم فيها من ضيافة وعطاء كريم، وأن ذلك هو الفوز العظيم الذي ينبغي العمل لأجله، ذكر جزاء أهل النار، وطعامهم وشرابهم ومأواهم، فقال بأسلوب التهكم أذلك الذي أعطيته لأهل الجنة خير أم شجرة الزقوم التي كانوا يتهكمون عند ذكرها؟

وذلك لأنهم حين سمعوا أن شجرة تخرج في النار، لم تستوعبها عقولهم لأنهم لم يؤمنوا بأن الله هو القادر على كل شيء، وأن ما أعده في الجنة والنار للناس يختلف كل الاختلاف عما هو موجود في الدنيا، فقالوا كيف تنبت شجرة في النار والنار تحرق الشجر؟ وقال أبو جهل: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه، فهذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد.

ثم وصفها الله تعالى لهم بأنها تنبت في قعر جهنم وتنتشر أغصانها فيها، وبأن ثمارها قبيحة بشعة تشبه رؤوس الشياطين، لما يتخيل الناس من بشاعة الشيطان وقبحه، وأن هذه الشجرة القبيحة هي طعامهم الذي يملؤون منها بطونهم مضطرين ليس لهم طعام غيره، قال ﷺ: ({**اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون**}، **لو أن قطرة من الزقوم قُطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟**)[1].

ثم إنهم عندما يعطشون من حرارتها ومذاقها، يشربون مزجاً من الحميم والصديد والغساق. والعياذ بالله. ثم إن مصيرهم ومقيلهم بعد هذا الطعام والشراب إلى نار الجحيم وسعيرها، كما قال تعالى: (**هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن**) الرحمن: ٤٤، وذلك لأنهم اتبعوا ضلال آباءهم بلا دليل وبرهان وأسرعوا في تقليدهم بلا تفكير ولا تدبر.

والحاصل؛ أنه لما سمع المشركون هذه الآيات الكريمة، لم يوجلوا منها بل لقد افتتنوا فسخروا واستهزؤوا بها، فلم يزدهم هذا التخويف إلا عناداً وتمرداً وعتواً.

والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين، أحدهما: أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجرة.

والثاني أن عبد الله بن الزبعرى قال: إن محمدا يخوفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر. وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد فقال: يا قوم تزقموا فإن هذا ما يخوفكم به محمد فوصفها الله تعالى في الصافات.

---

[1] رواه الإمام أحمد برقم (٢٦٣٢)، وابن ماجة (٤٣٢٤)، والترمذي (٢٥٢٧) وقال: حسن صحيح.

وعن الآية السابقة من سورة الإسراء؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾ قال: شجرة الزَّقُّوم.

وعن قتادة، قوله: (**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا**) : وهي شجرة الزقوم، خوّف الله بها عباده، فافتتنوا بذلك، حتى قال قائلهم أبو جهل بن هشام: زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد، فتزقموا، فأنـزل الله تبارك وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجرة: (**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**)، إني خلقتها من النار، وعذّبت بها من شئت من عبادي.

فتأويل الكلام إذن: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك، والشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فكانت فتنتهم في الرؤيا ما ذكرت من ارتداد من ارتدّ، وتمادِي أهل الشرك في شركهم، حين أخبرهم رسول الله ﷺ بما أراه الله في مسيره إلى بيت المقدس ليلة أُسري به، وكانت فتنهم في الشجرة الملعونة ما ذكرنا من قول أبي جهل والمشركين معه: يخبرنا محمد أن في النار شجرة نابتة، والنار تأكل الشجر فكيف تنبت فيها؟

٣- فتنة "ناقة صالح"، قال تعالى:

﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾ [الإسراء:٥٩]

وقال تعالى:

﴿**كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**

(٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾. القمر.

قال الفخر الرازي: (واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة خمس قصص، وجعل القصة المتوسطة مذكورة على أتم وجه؛ لأن حال صالح ﷺ كان أكثر مشابهة بحال محمد ﷺ؛ لأنه أتى بأمر عجيب أرضي كان أعجب مما جاء به الأنبياء؛ لأن عيسى عليه السلام أحيا الميت، لكن الميت كان محلا للحياة فأثبت بإذن الله الحياة في محل كان قابلا لها، وموسى ﷺ انقلبت عصاه ثعبانا فأثبت الله له في الخشبة الحياة، لكن الخشبة نبات كان له قوة في النماء يشبه الحيوان في النمو فهو أعجب، وصالح ﷺ كان الظاهر في يده خروج الناقة من الحجر، جماد لا محل للحياة ولا محل للنمو فيه، والنبي ﷺ أتى بأعجب من الكل وهو التصرف في جرم السماء الذي يقول المشرك لا وصول لأحد إلى السماء ولا إمكان لشقه وخرقه، وأما الأرضيات فقالوا: إنها أجسام مشتركة المواد يقبل كل واحد منها صورة الأخرى، والسماوات لا تقبل ذلك فلما أتى بما عرفوا فيه أنه لا يقدر على مثله آدمي كان أتم وأبلغ من معجزة صالح ﷺ، التي هي أتم معجزة من معجزات من كان من الأنبياء غير محمد ﷺ).

أسباب النزول:

- آيات سورة الإسراء:

عن ابن عباس، قال: سأل أهل مكة النبيّ ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم لعلنا نجتني منهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: بل تستأني

بهم، فأنـزل الله ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً**﴾.

قال الطبري: (يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك، إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذّبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما آتاهم ما سألوا منه كذّبوا رسلهم، فلم يصدّقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنّا لو أرسلنا بها إليها، فكذّبوا بها، سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها).

- تفسير آيات سورة القمر:

أرسل الله تعالى رسوله صالحاً ﷺ إلى قوم ثمود داعياً وهادياً ومبشراً ومنذراً، فما كان منهم إلا أن رفضوا دعوته وقالوا كيف يرسل علينا رجل منا بشر مثلنا؟! إنا إذا خبنا وخسرنا إن اتبعناه وسلمناه قيادتنا، واتهموه – زوراً وبهتاناً – بالكذب، فرد الله عليهم: **(سيعلمون غداً من هو الكذاب الأشر)**.

فطلبوا منه آية لكي يصدقوه ويتبعوه، وتحكي لنا سورة الشعراء هذه القصة، قال تعالى مخبراً عنهم:

﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِين [١٥٣] مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين [١٥٤] قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُوم [١٥٥] وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيم [١٥٦] فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِين [١٥٧] فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِين [١٥٨] وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم ١٥٩**﴾ الشعراء.

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ): قال الفخر: ("فتنة": مفعول له فتكون الفتنة هي المقصودة من الإرسال، لكن المقصود منه تصديق النبي ﷺ، وهو صالح ﷺ؛ لأنه معجزة فما التحقيق في تفسيره؟ نقول: فيه وجهان:

أحدهما: أن المعجزة فتنة؛ لأن بها يتميز حال من يثاب ممن يعذب؛ لأن الله تعالى بالمعجزة لا يعذب الكفار إلا إذا كان ينبئهم بصدقه من حيث نبوته، فالمعجزة ابتلاء لأنها تصديق وبعد التصديق يتميز المصدق عن المكذب.

وثانيهما: وهو أدق، أن إخراج الناقة من الصخرة كان معجزة، وإرسالها إليهم ودورانها فيها بينهم، وقسمة الماء كان فتنة؛ ولهذا قال: {**إنا مرسلو الناقة فتنة**} ولم يقل: إنا مخرجو الناقة فتنة، والتحقيق في الفتنة والابتلاء والامتحان قد تقدم مرارا، وإليه إشارة خفية وهي أن الله تعالى يهدي من يشاء وللهداية طرق، منها ما يكون على وجه يكون للإنسان مدخل فيه بالكسب، مثاله يخلق شيئا دالا، ويقع تفكر الإنسان فيه ونظره إليه على وجه يترجح عنده الحق فيتبعه، وتارة يلجئه إليه ابتداء، ويصونه عن الخطأ من صغره فإظهار المعجز على يد الرسول أمر يهدي به من يشاء اهتداء مع الكسب وهداية الأنبياء من غير كسب منهم، بل يخلق فيهم علوما غير كسبية، فقوله: {**إنا مرسلو الناقة فتنة**} إشارة إليهم، ولهذا قال لهم: ومعناه على وجه يصلح لأن يكون فتنة وعلى هذا كل من كانت معجزته أظهر يكون ثواب قومه أقل).

(فارتقبهم): أي فارتقبهم بالعذاب، ولم يقل: فارتقب العذاب إشارة إلى حسن الأدب والاجتناب عن طلب الشر.

(واصطبر) يؤيد ذلك بمعنى إن كانوا يؤذونك فلا تستعجل لهم العذاب، ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى قرب الوقت إلى أمرهما، والأمر بحيث يعجز عن الصبر.

(ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) أي: يوم لهم ويوم للناقة كقوله: ﴿**قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم**﴾ الشعراء: ١٥٥.

(كل شرب محتضر) قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.
(فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قدار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: **(إذ انبعث أشقاها)** الشمس: ١٢.

(فتعاطى): فجسر.

(فعقر فكيف كان عذابي ونذر) أي: فعاقبتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي؟

(إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أي: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين: والمحتظر، قال السدي: هو المرعى بالصحراء حين يبس وتحرق ونسفته الريح، وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظارا على الإبل والمواشي من يبيس الشوك، فهو المراد من قوله: (كهشيم المحتظر).

٤- فتنة "عدد الملائكة" قال تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٦-٣١]

أسباب النزول:

عن البراء: أن رهطا من اليهود سألوا بعض أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: الله ورسوله أعلم، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ فنزل عليه ساعتئذ {**عليها تسعة عشر**}[1].

وروى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس: أن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿**عليها تسعة عشر**﴾ قال لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع أن ابن أبي كبشة، (يعنى محمدا ﷺ): يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدّهم «الشجعان» أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، فقال له أبو الأشد بن كلدة الجمحي – وكان شديد البطش – أيهولنّكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر التسعة، ثم تمرون إلى الجنة – يقول ذلك مستهزئا.

وفي رواية أن الحرث بن كلدة قال: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله: ﴿**وَمَا جَعَلْنا أَصْحابَ النّارِ إِلّا مَلائِكَةً**﴾ أي لم يجعلهم رجالا فيتعاطون مغالبتهم.

التفسير:

(عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ): تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها، زبانيةٌ غلاظٌ شدادٌ.

(وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً): وما جعلنا المدبّرين لأمر النار القائمين بعذاب من فيها إلا ملائكة، شديدين لا يغالبون، من غير جنس المعذّبين حتى لا يرقّوا لهم ويرحموهم.

(وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا): وما جعلنا هذا العدد إلا اختبارا للكافرين، حتى يكون جوابهم حجة عليهم يوم القيامة وأنهم عاجزون عن مقاومة واحد منهم.

---

[1] رواه البيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ): لكي يتيقن أهل الكتاب بنبوة محمد ﷺ لمطابقة ما في القرآن لكتبهم السماوية.

(وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً): فالمؤمنون لن يفتنهم هذا العدد، بل يزدادون إيماناً.

(وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ): ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون في حقيقة ذلك العدد.

(وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللهُ بِهذا مَثَلًا): ليتساءل المنافقون بحيرة ما الحكمة من ذكر هذا العدد؟

(كَذلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ): فبهذه الاختبارات والفتن يظهر حقيقة أهل الضلال والنفاق والشك، ويثبت أهل الإيمان والتصديق، فيضل هؤلاء ويزيد هؤلاء إيماناً لتسليمهم وتصديقهم بكل خبر ينزل من السماء.

(وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ): ردا على سخريتهم وجهلهم، فليس العدد هو تسعة عشر فقط، بل له سبحانه الجنود الذين لا يعلم عددهم ولا صفاتهم إلا الله تعالى وحده.

قال مقاتل: هو جواب لقول أبى جهل: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر.

(وَما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ) أي وما سقر وصفتها إلا تذكرة للبشر.

فتنة تكذيب الغيب بين الماضي والحاضر:

الإيمان بالغيبيات جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم، وواجب على المسلم الإيمان والتسليم والإذعان بكل ما أخبر به الخالق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبكل ما صح عن النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ البقرة: ٢٨٥.

ويقول سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا) النساء:١٣٦.

وإنكار الغيبيات ليس بالشيء الجديد عند من لا يؤمن بالله تعالى وبملائكته وبكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

فقد أنكر قوم ثمود ناقة صالح ﷺ، وأنكر المشركون شجرة الزقوم، وأنكروا الملائكة وخاضوا فيها، كما أخبر عن ذلك كتاب الله تعالى.

واليوم لايزال هذا الإنكار موجودا، ولا أقصد غير المسلمين، فليس بعد الكفر ذنب، ولكني أتحدث عن بعض أبناء جلدتنا ممن اعتنق الأفكار والمذاهب والفلسفات التي صدّرها لنا أعداء الإسلام. فكان هذا الإنكار الذي أخذ شكلا جديدا، ألبسوه رداء مما صنعه لهم الغرب من خيوط الفلسفة الغربية.

فإذا كان "كانط" يرى أن الدين يجب أن يكون مطابقا للعقل وأن: "دينا ما يعلن الحرب على العقل سوف يصبح مع مرور الزمن غير قادر على مواجهته".

ويرى سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧ م.) في: "الرسالة في اللاهوت والسياسة" أن: "الايمان بالمعجزات يجعلنا نشك في كل شيء ويدفعنا إلى الإلحاد"، فهذا لأنهم لم يعلموا أن الإيمان بالغيبيات ليس من اختصاص العقل، لأن العقل لا يستطيع إدراك كثيرا من الأمور التي توجد فينا نحن البشر، فكيف يستطيع إدراك الغيب؟!

فالعقل إلى اليوم، بله إلى قيام الساعة لم ولن يدرك حقيقة النفس البشرية، ولا ماهية الروح، ولم يدرك حقيقة كيف للإنسان أن ينام فينقطع عن الوعي ثم هو مع ذلك يرى أشياء لا يمكن أن يراها خارج إطار المنام والأحلام والرؤى، فقد يرى أناساً ماتوا ويخاطبهم ويؤاكلهم، ويرى أنه سافر إلى كوكبٍ آخر خارج الكرة الأرضية، كل ذلك في لحظات من النوم، ثم يحتاج إلى شرح ما رآه بساعة أو أكثر؟!

فهل أدرك العقل حقيقة هذه المسألة؟! أليست أدوات الإدراك الأخرى لدى الإنسان محدودة؟ أليس للعين حدود للنظر، وللأذن حدود للسمع؟! لا شك أن لها حدودا لا تستطيع أن تبلغها، وكذلك هو العقل، فهو أداة إدراك يعجز عن تجاوز حدوده.

وبما أن المعجزات هي من الخوارق، ولكنها من صنع الخالق القادر على كل شيء، الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، لهذا علينا التصديق والإيمان والتسليم بالمعجزات من غير إعمال العقل العاجز المحدود الإدراكات.

فمثلا: حين نقرأ قوله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾، نعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أسرى بسيدنا محمد ﷺ، وليس النبي هو الذي أسرى بنفسه، وبما أن الله هو خالق المكان والزمان، فإنه قادر على أن يفعل ما يريد خارج حدود ما خلق، أي خارج حدود الزمان والمكان، وعليه فإن الإيمان بمعجزة الإسراء هي محض تصديق بقدرة الله تعالى، بلا أي ريب، وبلا داع لوجود ما يدعو إلى أي شك في إمكان حدوث هذا الخبر.

وإذا كان هذا الأمر – أي الإيمان بالمعجزات – هو أحد ما يميز المسلم – أي مسلم، مهما كان مستواه العلمي والثقافي ضئيلا –، عن أي شخص من غير المسلمين،

مهما كانت درجته العلمية والثقافية متقدمة – في عرف الناس، كالفيلسوف مثلا – فإن هذا المسلم هو المتقدم حقيقة على ذلك الفيلسوف، لأنه سلم بأن الأمر ليس من أعمال العقول، بل هو من أعمال القلوب والفطرة السوية، ولأنه يؤمن بأن خالق هذا الكون المنظور المعجز في دقة نظامه ونسقه، هو قادر على أن يفعل ما يشاء وأنه فعّال لما يريد.

وبهذا، فإننا لسنا بحاجة أبدا لأن نقلد ذلك الذي أنكر معجزة لأن عقله لم يستوعبها، فالمشكلة إذن في عقله هو وليس في المعجزة ذاتها والتصديق بها، فكل ما يهمنا هو صدق الخبر فقط، ومن أصدق من الله قيلا؟! لا أحد قطعاً، ولهذا كان جواب أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين أخبروه أن النبي يقول إنه أسري به من مكة إلى بيت المقدس وعاد ومازال فراشه دافئاً قال: (إن كان قال فقد صدق). وهذا محض الإيمان وصريحه.

لذا فإننا نجد الحيرة والاضطراب واضحا في أقوال فلاسفة الغرب ومن سلك دربهم من أبناء جلدتنا، في انكار المعجزات.

فمثلا؛ عندما يقول الفيلسوف اليهودي سبينوزا: "أن الطبيعة لا يمكن أن تُنتهَك.. إنها تحافظ على حالة من الثبات وعدم التغير. في الحقيقة إذا أكد أحدهم أن الله يعمل بشكل مخالف لقوانين الطبيعة، فإنه سيضطر إلى التأكيد بأن الله يعمل ضد طبيعته هو، وهذا أمر سخيف ومناف للعقل بشكل واضح".

وفي الحقيقة أن فلسفته هي السخيفة والمنافية للمنطق والعقل، فما علاقة الايمان بالمعجزات بمخالفة طبيعة البشر؟!

وربما شكه واضطرابه هذا هو ما حداه إلى القول: "لسنا ملزمين بالإيمان بالأنبياء إلا فيما يتعلق بغاية الوحي، أما فيما عدا ذلك فيستطيع كل فرد أن يؤمن بما يشاء وبحرية".

إذاً هو لديه إشكال في تصديق كل ما جاء به الأنبياء من شرائع وبما يؤيدها من معجزات، فنراه يفرز ويختار ما يناسب عقله وهواه، وهذا بحسب ادعائه.

بل وعندما نعلم أيضا أن سبينوزا لديه شك واضطراب آخر، وهو في اثبات صحة ما بين يديه من كتاب يؤمن به، "أي التوراة"، وهذا واضح من قوله: "يجب أن نتأكد بصورة كاملة أن كل حدث مذكور في الكتاب المقدَّس، قد حدث بالضرورة، مثل أي حدث آخر بحسب نواميس الطبيعة".

فإننا نعلم حينها، أنه مشكك في أصل مصدر الخبر أيضا، خاصة وأنه قد أعلن أنه يكفر بكون الكتاب الذي بين يديه بأنه الذي أنزل على موسى ﷺ، بل لقد تعرض لمحاولة اغتيال من أهل ملته بسبب هذا الإنكار، لولا أن هرب ونجا بنفسه.

فمن هذا الأصل الخبيث، خرجت شبهات المسوخ من النسخ المعاد تصنيعها في الأمة؛ فقالوا بإنكار الغيبيات، وأضافوا عليها خبلهم وترهاتهم، فاستهجنوا انشقاق البحر لموسى ﷺ، وفهم سليمان ﷺ لحديث النملة، والصخرة التي خرجت منها ناقة صالح ﷺ، وتسائلوا بتهكم وغباء: لماذا لم يفتتح عيسى ﷺ مشفى لتعليم الطب، ولماذا لم يترك لنا نبينا ﷺ نسخاً من البراق حتى نستغني عن طائرات أعداء الإسلام؟!! وغيرها من التساؤلات التي لا تدل على أي شيء سوى الانحطاط الفكري والأخلاقي لهؤلاء المسوخ.

القصد مما سبق، أننا كمسلمين ملزمون بتصديق كل ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بما صح لدينا من مصادرنا، كالقرآن وما صح من الحديث النبوي، كما أننا ليس لدينا ما لديه من شك بثبوت صحة الكتاب الذي عنده، بل نحن بفضل الله تعالى نؤمن أن كتابنا قد تكفل الله تعالى بحفظه، فهو صحيح ثابت بكل ما يحتويه بلا أدنى ريب أو شك.

والسؤال الآن: ما هي دواعي مقلدي هؤلاء المنكرين للغيب وللمعجزات، بعدما عرفنا أصل مشكلتهم التي ليس لها وجود عندنا بفضل الله تعالى؟!!

فهل هو حب التقليد والانبهار والشغف بكل فكرة غربية؟ أم أنه العمل لنيل مرضاتهم وأموالهم والشهرة الزائفة المبنية على "خالف تعرف"؟

لن نخوض بالنوايا، فيكفينا ما صرحوا به على الملأ بلا خوف ولا وجل، حتى نرد عليهم.

وبما يصرحون به من دوافع وذرائع أوهن من بيت العنكبوت، وذلك كقولهم بوجوب الخروج من الجمود وإعمال العقول بكل شيء، وإعادة النظر في التراث – كما يسمونه – والتخلص من تحجر الفقهاء وكهنوتهم؛ على حد زعمهم بتسمية الأشياء.

إذاً؛ من الواضح أن أفكار هؤلاء المستغربين – أي المتأثرين بالفلسفات الغربية – ما هي في حقيقتها إلا تخبط وخليط من مبادئ وفلسفات منتقاة من الماركسية والاشتراكية والإلحادية واللاأدرية، وربما أيضا من مخلفات المذاهب البائدة من تاريخنا.

فها نحن اليوم عدنا لنسمع الأفكار البالية ذاتها التي رددها أسلافهم، كالقول بإنكار وجود عذاب القبر وإنكار عودة نزول السيد المسيح ﷺ، والخوض في جنس الملائكة وطبيعتهم.. وغيرها من المسائل الغيبية.

ومن فضائح ما يقولونه، أنهم بعد أن روجوا لفكرة عدم وجود عذاب في القبر، انتقلوا إلى ترويج فكرة أن المسلمين ليس لهم عذاب في الآخرة أيضا، فأنكروا الأحاديث الصحيحة بحجة أنها آحاد ظنية، وتأولوا الآيات المحكمة القطعية الدلالة التي أنزلها الله تعالى في كتابه العزيز، حتى يصلوا في نهاية مطافهم إلى ترسيخ مفهوم خبيث، وهو إنكار كل ما يردع المسلم ويزجره عن ارتكاب المحرمات والنواهي، من خلال إلغاء وجود العقوبات الإلهية، و انكار وجود العذاب في الدنيا والقبر والآخرة، فبان حقيقة ما يرمون إليه من أهداف منحطة في الدعوة إلى الانفلات والإباحية والحرية المطلقة للإنسان في عمل ما يشاء من المحرمات والنواهي، وبالتالي إفساد الفرد والأسرة والمجتمع، وتحقيق ما لم يستطع الغرب نفسه من تحقيقه رغم ما يتكبده من سعي وتمويل وإعلام، إلا بحدود ضيقة وحالات قليلة.

وتستبين لنا حقيقة أهداف هؤلاء الدعاة من الدجاجلة من عدة وجوه، بالإضافة إلى ما ذكرنا، فإننا نجد أن مصادر هؤلاء الدجاجلة من كتب يستشهدون بها، ويثيرون ما فيها من شبهات، ما هي إلا مؤلفات القوم التي لا تخفى على أقل مطلع على فتن المستشرقين، فنجدهم يجترون من كتبهم ذات الشبهات ويجددون الترويج لها، ككتاب الهداية لزويمر، وكتاب تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، وكتاب العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد زيهر، وغيرها من المصادر التي تبث الفتن والشبهات، مما رد عليهم علماء الأمة في كل زمان ومكان.

فتن المنافقين

وفيها خمسة مواضع، فالأربعة الأولى منها تتحدث عن صور من النفاق، وفئات من المنافقين، ثم الآية الخامسة تتحدث عن نتيجة النفاق وجزاء المنافقين:

١- قال تعالى:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلا (٨٨) وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُونَكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ <u>كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا</u> فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾[النساء:٨٨-٩١]

أسباب النزول:

روى الطبري عن ابن عباس أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين، فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية.

قال الفراء: أركسهم وركسهم: أي ردهم إلى الكفر ونكسهم؛ وقاله النضر بن شميل والكسائي: والركس والنكس قلب الشيء على رأسه، أو رد أوله على آخره،

والمركوس: المنكوس، وقال ابن رواحة: أركسوا في فتنة مظلمة كسواد الليل يتلوها فتن أي نكسوا.

التفسير:

(فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ) أي فما لكم صرتم في المنافقين فئتين واختلفتم في كفرهم مع تظاهر الأدلة عليه، فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم، بل عليكم أن تقطعوا بثبوته.

(وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا) أي كيف تفترقون في شأنهم والله قد صرفهم عن الحق الذي أنتم عليه بما كسبوا من أعمال الشرك واجترحوا من المعاصي، حتى إنهم لا ينظرون إليكم نظرة المودة والإخاء، بل نظرة العداوة والبغضاء، ويتربصون بكم الدوائر.

وقد جعلهم الله مركسين كأنهم قد نكسوا على رءوسهم وصاروا يمشون على وجوههم كما قال تعالى {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} لأنهم قد فسدت فطرتهم وأحاطت بهم خطيئاتهم، فأوغلوا في الضلال، وبعدوا عن الحق، حتى لم يعد يجول في أذهانهم إلا الثبات على ما هم فيه ومقاومة ما عداه.

وقد نسبه الله تعالى إليه لأنه ما كان سببا إلا بسنته في تأثير الأعمال الاختيارية في نفوس العالمين.

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ؟) أي إنه ليس في استطاعتكم أن تبدلوا سنن الله في نفوس الناس فتريدوا أن تحصلوا على مقاصد وغايات ضد ما انطبع فيها من الأخلاق والصفات، بتأثير ما كسبته طوال عمرها من الأعمال.

(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) أي ومن قضت سننه في خلقه أن يكون ضالا عن طريق الحق فلن تجد له سبيلا يصل بسلوكها إليه، فإن للحق سبيلا واحدة هي صراط

الفطرة المستقيم، وللباطل سبلا كثيرة عن يمين سبيل الحق وعن شمالها، كل من سلك منها سبيلا بعد عن سبيل الحق بقدر إيغاله في السبيل التي سلكها كما قال تعالى ﴿**وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ وقد أوضح النبي ﷺ معنى الآية بالخطوط الحسية، فخط في الأرض خطا وجعله مثالا لسبيل الله، وخط على جانبيه خطوطا لسبل الشيطان، وهذه الخطوط المستقيمة لا تلتقى مع الخط الأول بحال.

وسبيل الفطرة تقتضي أن يعرض الإنسان جميع أعماله على سنن العقل ويتّبع ما يظهر له أنه الحق الذي فيه منفعته عاجلا وآجلا، وفيه كماله الإنساني.

وأكثر ما يصده عن هذه السبيل التقليد والغرور وظنه أنه ليس هناك ما هو أكمل مما هو فيه، وبهذا يقطع على نفسه طريق العقل والنظر في النفع والضر والحق والباطل.

وشبهته في ترك صراط الفطرة أن عقله قاصر عن التمييز بين الحق والباطل والخير والشر، فعليه أن يتبع ما وجد عليه الآباء والأجداد من زعماء عصره ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

ثم ذكر سبحانه ما يجول في صدور أولئك المنافقين من أماني فقال:

(وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً) أي إن هؤلاء لا يقنعون بما هم عليه من الضلال والغواية، بل يطمعون أن تكونوا أمثالهم وتحذوا حذوهم حتى يقضى على الإسلام الذي أنتم عليه، وهذا منتهى ما يكون من الغلوّ والتمادي في الكفر، حيث لا يكتفون بضلالهم بل يرجون إضلال غيرهم.

ثم حذر المؤمنين من غوائل نفاقهم فقال:

(فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) أي وإذا كانت هذه حالهم فلا تتخذوا منهم أنصارا يساعدونكم على المشركين حتى يؤمنوا ويهاجروا ويشاركوكم في سائر شؤونكم، فإن الصادقين في إيمانهم لا يدعون النبي ﷺ ومن معه عرضة للخطر، ولا يتركون الهجرة إلا إذا عجزوا عنها، وإذا فتركهم لها علامة على نفاقهم الذي اختلفتم فيه.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا) أي فإن أعرضوا عن الهجرة في سبيل الله ولزموا مواضعهم في خارج المدينة فخذوهم إذا قدرتم عليهم واقتلوهم أينما وجدتموهم في الحلّ أو في الحرم، ولا تتخذوا منهم وليا يتولى شيئا من مهامّ أموركم ولا نصيرا ينصركم على أعدائكم.

وقد استثنى منهم من تؤمن غائلتهم بأحد أمرين:

(إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ) أي إلا الذين يتصلون بقوم معاهدين للمسلمين فيدخلون في عهدهم ويرضون بحكمهم فيمتنع قتالهم مثلهم.

(أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ) أي أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن قتالكم وعن قتال قومهم فلا تنشرح لأحد الأمرين.

وخلاصة ذلك - أن يجيئوا المسلمين مسالمين لا يقاتلونهم ولا يقاتلون قومهم معهم بل يكونون على الحياد، فهم لا يقاتلون المسلمين حفظا للعهد ولا يقاتلون قومهم، لأنهم قومهم، وقبول معذرة الفريقين موافق لما بُني عليه الإسلام من التسامح والسماحة وعدم الاعتداء كما قال: {وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا}.

(وَلَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ) أي إن الله تعالى رحمكم بأن كف بأس هاتين الفئتين وصرفهم عن قتالكم وقذف الرعب في قلوبهم، ولو شاء لسلطهم عليكم بأن يلهمهم من الآراء ويسوق إليهم من الأخبار ما به يرجحون ذلك فيقاتلوكم، ولكنه بتوفيقه ونظامه في الأسباب والمسببات، وسننه في الأفراد والجماعات، جعل الناس في ذلك العصر أصنافا ثلاثة:

١) سليمو الفطرة الذين حصفت آراؤهم فسارعوا إلى الإيمان واستناروا بنور الإسلام.

٢) المسالمون الذين رجحوا أن يكونوا على الحياد لا مع المشركين ولا مع المؤمنين.

٣) الموغلون في الضلال والشرك والمحافظون على القديم وهم المحاربون.

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا) أي فإن اعتزلتكم إحدى هاتين الفئتين ولم تقاتلكم بل ألقت إليكم السلم وأعطتكم زمام أمرها، فما جعل الله لكم من سبيل تسلكونها للاعتداء عليها، إذ من قواعد ديننا ألا نعتدي إلا على من يعتدي علينا ولا نقاتل إلا من قاتلنا.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال: (لما ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقة بلغني أنه ﷺ يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي من بنى مدلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة، فقالوا مه، فقال دعوه، ما تريد؟ قلت بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا، وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال (اذهب معه فافعل ما يريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم،

ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم، فأنزل الله تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ – حتى بلغ – إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ) فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم).

وقال الرازي: إن النبي ﷺ وادع وقت خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن كل من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل ما لهلال.

ثم بين سبحانه حال جماعة آخرين وبالغ في ذمهم فقال:

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ) هؤلاء فريق ممن لم يهتدوا بالإسلام ولم يتصدوا إلى مجالدة أهله وقتالهم فكانوا مذبذبين بين المؤمنين والكافرين، فهم قد غلت عليهم أرواحهم، ورخصت عليهم عقولهم، يظهرون لكل من الفئتين أنهم منهم أو معهم وقد روي عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا.

(كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها) أي كلما دعوا إلى الشرك (كما روى عن السدي) أركسوا فيه وتحولوا إليه أقبح تحول، فهم يريدون أن يأمنوا جانب المسلمين.

إما بإظهار الإسلام، وإما بالعهد على السلم وترك القتال ثم يفتنهم المشركون أي: يحملونهم على الشرك أو على مساعدتهم على قتال المسلمين، فيرتكسون ويتحولون شر التحول معهم، وهكذا يفعلون ذلك المرة بعد المرة، فهم قد مردوا على النفاق.

وقد بين الله حكمهم بقوله:

(فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) أي فإن لم يعتزلوكم ويتركوكم وشأنكم ويلتزموا الحياد ويلقوا إليكم السلم: أي زمام المسالمة

على الطريق التي ترونها نافعة لكم، ويكفوا أيديهم عن القتال مع المشركين أو عن الدسائس - فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم فلا علاج لهم غير ذلك كما ثبت بالتجارب والاختبار.

(وَأُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطانًا مُبِينًا): أي وأولئكم جعلنا لكم عليهم حجة واضحة، وبرهانا ظاهرا على قتالهم.

قال الرازي: قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم.

ونظيره قوله {وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا} إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا)[1].

---

[1] تفسير جميع هذه الآيات السابقة من تفسير المراغي رحمه الله.

٢- وفيها تكرر لفظ الفتنة أربع مرات في ثلاث آيات:

قال تعالى:

﴿لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِين [٤٤] إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُون [٤٥] وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِين [٤٦] لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِين [٤٧] لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُون [٤٨] وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِين ٤٩﴾ التوبة.

سورة التوبة تسمى الفاضحة، لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شئونهم بهذا التفصيل حتى نزلت.

التفسير:

(لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...): ليس من عادة وشأن المؤمنين بالله واليوم الآخر أن يختلقوا الأعذار ليتخلفوا عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل يقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، بل ما يشق عليهم هو القعود عن الجهاد، كما شق ذلك على علي رضي الله عنه حين طلب منه النبي ﷺ البقاء

في المدينة؛ ولم يطمئن حتى قال له: (**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**)[1].

(إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ...): فكان الجهاد أحد علامات كشف المنافق، لأن المؤمن لا يتخلف عن الجهاد، أما المنافقون فكانوا يتذرعون بالعلل والأعذار ليمتنعوا عن الخروج متسترين بنفاقهم خلف هذه الأعذار الواهنة، لما في قلوبهم من شك وريب وتردد، فالقلب هو محل ثبات الإيمان، وهو محل التردد في الريبة، فالشك هو اعتدال الطرفين، أما الظن فهو ترجيح على آخر ويكون المرجوح هو الوهم. وقد جاء في بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان تسعة وثلاثين رجلا. والله أعلم.

(وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا له...): ولو صحت نيتهم للخروج لتأهبوا واستعدوا له وتزودوا بما يحتاج إليه في مثل هذه الحالات، كما يقول العرب: لو صح منك العزم لهديت للحيل، ولكن قدر الله تعالى وعلمه الأزلي بهم أبغض خروجهم معك، لسابق علمه بجبنهم وإضمار التخذيل والإفساد بين المسلمين فثبطهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف التي هي مقتضى سننه من تأثير النفاق فيها، وقال لهم الرسول ﷺ ذلك بعبارة تدل على السخط لا على الرضا، أي اقعدوا مع الأطفال والزّمنى والعجزة والنساء وهم قد حملوه على ظاهره لموافقته لما يريدون.

(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالًا ...): الخبال: الاضطراب في الرأي والفساد في العمل، يقال للمجنون مخبول لفساد عقله.

وفي قوله تعالى (فيكم) و (خلالكم) فإن فيهما اشارة إلى التغلغل والتداخل بين صفوف المسلمين، فلو خرجوا فيكم وانتشروا في صفوفكم؛ لكان نتيجة ذلك:

[1] رواه البخاري برقم (٤٠٨٩)، ومسلم (٤٤٢٥).

أولا: ما زادوكم عدداً ولا عُدّة، ولكن فساداً واضطراباً، وسعياً في شقّ الصفوف.

ثانيا: لسارعوا في نشر الفتنة بينكم بالنميمة والبغض والتخذيل، وتخويفكم من الأعداء وتثبيط عزائمكم.

ثالثا: فإن فيكم من يستمع لهم ويستحسن حديثهم من غير أن يعرفوا حقيقتهم.

والله عليم بحقائقهم وظواهرهم وبواطنهم، فيعلمكم ويربيكم على اتباع الحق والحذر من المنافقين.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ . . .﴾:

روى الطبري بسنده عن بعض السلف: أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان عُسْرةٍ من الناس، وشدة من الحرّ، وجَدْبٍ من البلاد وحين طاب الثمار، وأُحِبَّتِ الظلال، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها، على الحال من الزمان الذي هم عليه. وكان رسول الله ﷺ قلَّما يخرج في غزوةٍ إلا كَنَى عنها، وأخبر أنه يريد غير الذي يَصْمِدُ له إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس، لبعد الشُّقَّة، وشدة الزمان وكثرة العدوّ الذي صَمَد له، ليتأهَّب الناس لذلك أُهْبَتَه. فأمر الناس بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم. فتجهز الناسُ على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه، لما فيه مع ما عظَّموا من ذكر الروم وغزوهم. ثم إن رسول الله ﷺ جَدَّ في سفره فأمر الناس بالجهازِ والانكماش وحضَّ أهل الغنى على النفقة والحُمْلان في سبيل الله.

فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أبي ابن سلول عسكره على حِدَةٍ أسفلَ منه بحذاء "ذباب" جبل بالجبانة أسفل من ثنية الوداع وكان فيما يزعمون، ليس بأقل المعسكرين.

فلما سار رَسول الله ﷺ، تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلَّف من المنافقين وأهل الريب. وكان عبد الله بن أبي، أخا بني عوف بن الخزرج وعبد الله بن نبتل، أخا بني عمرو بن عوف ورفاعة بن زيد بن التابوت، أخا بني قينقاع وكانوا من عظماء المنافقين وكانوا ممن يكيد للإسلام وأهله. ولقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة في المسلمين وتفريق شملهم من قبل هذه الغزوة في غزوة أحد حين اعتزلهم عبد الله بن أبي ابن سلول زعيم المنافقين بثلث الجيش في موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد، وطفق يقول للناس: أطاع النبي الولدان ومن لا رأى له، فعلام نقتل أنفسنا؟ وكان من رأيه عدم الخروج إلى أحد فرجع بمن اتبعه من المنافقين، وكاد يتبعه بنو سلمة وبنو حارثة فيرجعون ولكن عصمهما الله من الفتنة.

وهنا يقول تعالى: لقد التمس هؤلاء المنافقون من قبل محاولاتهم في صد المسلمين وتخذيلهم عن الجهاد، كما فعل ابن أبي بن سلول يوم غزوة أحد، حين انصرف بمن تبعه وحاولوا جهدهم في تصريف وترديد آرائهم ليصادفوا رأيا يعطيهم فيه أكبر الشر من غير مؤونة منهم، بتدبير المكائد والدسائس، حتى نصركم الله وأظهر دينه رغم كره المنافقين لذلك وغيظهم وبغضهم.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا): ومن المنافقين من طلب الإذن في التخلف عن الجهاد حتى لا يفتتن بنساء الروم، فسقط في شر أكبر منه، فالاستئذان والتعلل بالكذب لعدم الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد امتحان يظهر حقيقة ما في الصدور من صدق أو كذب وزور.

روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس (يا جدّ هل لك في جلاد بنى الأصفر؟ قال جدّ، وكان من شيوخ المنافقين: أتأذن لي يا رسول الله فإني رجل أحب النساء وإني

أخشى إن أنا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن، فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه: (قد أذنت لك) فنزلت الآية.

لذا قال تعالى: (أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) فبمقالتهم هذه سقطوا وتردّوا في هاوية الفتنة، يقول الشيخ طنطاوي في تفسيره: وعبر سبحانه عن قول هذا المنافق بالفعل المضارع، لاستحضار تلك الحال لغرابتها، فإن مثله في نفاقه وفجوره لا يخشى إثم الافتتان بالنساء إذ لا يجد من دينه مانعا من غشيان الشهوات الحرام.

وقوله: {أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} رد عليه فيما قال، وذم له على ما تفوه به. أي: ألا إن هذا وأمثاله في ذات الفتنة قد سقطوا، لا في أي شيء آخر مغاير لها. وبدأ سبحانه الجملة الكريمة بأداة التنبيه «ألا»، لتأكيد الخبر، وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ لهؤلاء المنافقين. وقدم الجار والمجرور على عامله للدلالة على الحصر. أي فيها لا في غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق.

قال الألوسي: وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردى أسفل سافلين.

وقال الفخر الرازي ما ملخصه: «وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة، فالله- تعالى- بيّن أنهم في عين الفتنة واقعون، لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله، والتمرد على قبول التكاليف التي كلفنا الله بها..».

وقوله: (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ): وعيد وتهديد لهم على أقوالهم وأفعالهم. أي: وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند الله، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر. وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل الدال على الحال، لإفادة تحقيق ذلك حتى

لكأنه واقع مشاهد. قالوا: ويحتمل أنها محيطة بهم الآن، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر والنفاق وغير ذلك من الرذائل التي سقطوا فيها.

٣- قال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١٠-١١]

وهذه الآيات الكريمة تظهر أيضا حقيقة المنافقين وتفضح ما في صدورهم، وتبين هذا الصنف من الناس ممن في قلوبهم ريب وتردد، حتى يقف المؤمن على صورة جديدة من صور النفاق فيحذر من أن يكون منهم.

يقول الشيخ المراغي: (الناس في الدين أقسام ثلاثة: مؤمن حسن الاعتقاد والعمل، وكافر مجاهر بالكفر والعناد، ومذبذب بينهما، يظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر في فؤاده، وقد بين القسمين الأولين بقوله: **(فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)** وبين أحوالهما بقوله: **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)** إلى قوله: **(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)** ثم أردف ذلك ذكر القسم الثالث بقوله: **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ)** إلخ.

سبب النزول:

روي أن الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة أسلم وهاجر، ثم أوذى وضرب فارتدّ وقد كان عذبه أبو جهل والحارث، وكانا أخويه لأمه، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه.

التفسير:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ): فهذا صنف من المنافقين يقولون بألسنتهم آمنا بالله، ولكن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، فإذا أصابهم أذى أو محنة من المشركين – اختبارا لهم – بسبب قولهم إنهم آمنوا، اعتقدوا أن هذا الأذى وهذه المحن نقمة من الله تعالى عليهم، فارتدوا عن الإسلام وسقطوا في الفتنة، قال ابن عباس: يعني فتنته؛ أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله. وهذا كقوله تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ) الحج: ١١.

قال المراغي: فجعل فتنة الناس له في الدنيا كعذاب الله في الآخرة، فارتد عن إيمانه، ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب الله ليس له دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده العقاب الأليم، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدّها عذابا.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال ﷺ: **(لقد أُوذيت في الله وما يُؤذى أحد، ولقد أُخِفتُ في الله، وما يُخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثالثة (وفي رواية: ثلاثون من بين يوم وليلة)، ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ما وارى إبط بلال)**[1].

[1] رواه الإمام أحمد رقم (١١٩٨٧)، وابن ماجه (١٤٨)، والترمذي (٢٤٠٩).

وخلاصة ذلك: إن من الناس من يدّعون الإيمان بألسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم، فارتدّوا عن الإسلام، ورجعوا إلى الكفر الذي كان متغلغلا في حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم.

(وَلَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ): أي ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولنّ هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم إخوانا في الدين ننصركم على أعدائكم، وهم كاذبون فيما يدّعون.

ونحو الآية قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ، فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم توعدهم وذكر أنه عليم بما في صدورهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم فقال:

(أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ؟) أي أوليس الله أعلم بما في قلوب المنافقين وما تكنّه صدورهم، وإن أظهروا لكم الموافقة على الإيمان، فكيف يخادعون من لا تخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سر؟

ثم ذكر أن هذه الفتنة إنما هي ابتلاء واختبار من الله، ليستبين صادق الإيمان من المنافق، الذي لا يتجاوز الإيمان طرف لسانه، ولا يعدوه إلى قلبه فقال:

(وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ) أي وليختبرن الله عباده بالسراء والضراء، ليميز صادق الإيمان من المنافق، من يطيع الله في كل حال فيصبر على اللأواء إذا مسته، ويعدّها اختبارا له، وأنه سيثاب عليها إذا هو فوّض الأمر فيها إليه، ومن يعصيه إذا حزبه الأمر، واشتد به الخطب، ولا يجد الصبر إلى قلبه سبيلا.

ونحو الآية قوله: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ} وقوله: {ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}.

٤- قال تعالى:

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَلَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلًا (٢٠). }
الأحزاب.

وهذه أيضا صورة جديدة من صور المنافقين، ظهر معدنهم في غزوة الخندق، وكانت في شوال من السنة الخامسة للهجرة، حين نزلت الأحزاب حول المدينة، والمسلمون محاصرون داخلها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، فابتلوا ابتلاء عظيما حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالا شديدا.

فظهر حينئذ أهل الإيمان والثبات، المصدّقون لوعد الله تعالى بنصره، ليجزيهم بتصديقهم خير الجزاء. وظهر أهل النفاق، ممن سقط في الفتنة، وأخلفوا بعهدهم الذي كانوا عاهدوا الله عليه بالثبات وألا يولوا الأدبار خوفا على حياتهم.

أما الأحزاب هم: قريش يقودهم أبو سفيان، وبنو أسد يقودهم طليحة، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطّفيل، وبنو سليم يقودهم أبو الأعور السّلمى، وبنو النّضير من اليهود، ورؤساؤهم حيي ابن أخطب، وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد.

وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فنبذه كعب بسعي حيي، وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك.

ملخص غزوة الأحزاب كما ذكر الإمام ابن كثير:

(أن نفرا من اليهود على رأسهم حيي بن أخطب- خرجوا إلى مكة، واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب المسلمين، فأجابوهم إلى ذلك. ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب المسلمين، فاستجابوا لهم- ايضا-. وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، والجميع في جيش قريب من عشرة آلاف رجل. وعند ما علم الرسول صلّى الله عليه وسلم بمقدمهم، أمر بحفر خندق حول المدينة.

ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف المدينة، فوجدوا الخندق قد حفر، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها. كما أن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد.

وخلال هذه الفترة العصيبة، نقض يهود بنى قريظة عهودهم مع المسلمين، وانضموا إلى جيوش الأحزاب، فزاد الخطب على المسلمين. ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر. ثم جاء نصر الله- تعالى-، بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة، وجنودا من عنده، فتصدعت جبهات الأحزاب، وانكفأت خيامهم، وملأ الرعب قلوبهم، (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ).

وقد ابتدأ الله تعالى الحديث عن هذه الغزوة، بنداء وجهه إلى المؤمنين، ذكرهم فيه بفضله عليهم، وبرحمته بهم فقال:

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ): يا من آمنتم بالله حق الإيمان، اذْكُرُوا على سبيل الشكر والاعتبار نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ورحمته بكم.

(إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ كثيرة) هي جنود جيوش الأحزاب (فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً) شديدة زلزلتهم، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع.

كما أرسلنا عليهم جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وهم الملائكة، الذين ألقوا الرعب في قلوب أعدائكم.

قالوا: رُوي أن الله تعالى بعث عليهم ريحاً باردة في ليلة باردة، فألقت التراب في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم، وأطفأت نيرانهم وقذفت في قلوبهم الرعب، فقال كل سيد قوم لقومه: يا بني فلان: النجاء النجاء.

(وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً): تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله تعالى عليهم. أي: جاءتكم تلك الجنود الكثيرة. فأرسلنا عليهم ريحا شديدة، وأرسلنا عليهم من عندنا جنودا لم تروها، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر الخندق وغيره وسامعين لدعائكم، وقد أجبناه لكم، حيث رددنا أعداءكم عنكم دون أن ينالوا خيرا.

(إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ) أي حين جاءتكم الأحزاب من أعلى الوادي من جهة المشرق، وكانوا من غطفان، ومن تابعهم من أهل نجد، ومن بني قريظة والنضير من اليهود، ومن أسفله من قبل المغرب، وكانوا من قريش، ومن شايعهم من الأحابيش، وبني كنانة وأهل تهامة.

(وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ): وحين عدلت الأبصار عن مقرّها، وشخصت طامحة.

(وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ): نبت القلوب عن أماكنها من الرعب والخوف، فبلغت إلى الحناجر.

(وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا): وتظنون بالله الظنونَ الكاذبة، وذلك كظنّ من ظنّ منهم أن رسول الله ﷺ يُغلب، وأن ما وعده الله من النصر ألا يكون.

قال الحسن: ظنونا مختلفة: ظنّ المنافقون أن محمدا وأصحابه يُستأصلون، وأيقن المؤمنون أن ما وعدهم الله حقّ، أنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ثم ذكر أن هذه الشدائد محّصت المؤمنين، وأظهرت المنافقين.

(هُنالكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ): عند ذلك اختبر إيمان المؤمنين، ومُحِّصَ القوم وعرف المؤمن من المنافق.

(وَزُلْزِلُوا زِلْزَالا شَدِيدًا) وحرّكوا بالفتنة تحريكا شديدا، وابتلوا وفتنوا، واضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو.

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...): قال قتادة: قال ذلك أُناس من المنافقين: قد كان محمد يعدنا فتح فارس والروم، وقد حصرنا هاهنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا.

(وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا): قالت جماعة من المنافقين كعبد الله بن أبي وأصحابه: يا أهل المدينة ليس هذا المقام بمقام لكم – يقصد مقام المرابطة عند النبي صلى الله عليه وسلم – فارجعوا إلى منازلكم ليكون ذلك أسلم لكم من القتل.

(وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ): قال ابن عباس: هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السرّق، يتعذرون بأن بيوتهم عورة، ليس دونها ما يحجبها عن العدو، والحقيقة أنهم كاذبون فيما يقولون، فكشف الله كذبهم فقال: (وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ): ليست كما يزعمون، بل السبب الحقيقي أنهم:

(إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرارًا) أي الفرار من الزحف والهروب من القتال مع رسول الله ﷺ.

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيرًا): ولو دخل عليهم الأحزاب من جوانب بيوتهم، ثم طلبوا إليهم أن يرتدوا عن دينهم ويرجعوا إلى شركهم بربهم لفعلوا ذلك مسرعين من شدة الهلع والجزع.

وهذا ذم شديد لهم لأنهم قدموا الخوف والفزع من العدو على الإيمان بالله تعالى وبوعده بالنصر وبأن الأعمار إنما هي بيد الله تعالى، فكشف الله حقيقتهم بأنهم كانوا مستعدين للخوض في فتنة يفسدون بها على المسلمين.

قال ابن عاشور: (أي أنهم مع ذلك يأتون الفتنة، والفتنة هي أن يفتنوا المسلمين، أي الكيد لهم وإلقاء التخاذل في جيش المسلمين. ومن المفسرين من فسر الفتنة بالشرك ولا وجه له ومنهم من فسرها بالقتال وهو بعيد).

والإتيان: القدوم إلى مكان. وقد أشعر هذا الفعل بأنهم يخرجون من المدينة التي كانوا فيها ليفتنوا المسلمين. وضمير النصب في (أتوها) عائد إلى الفتنة والمراد مكانها وهو مكان المسلمين، أي لأتوا مكانها ومظنتها. وضمير بها للفتنة، والباء للتعدية.

وجملة وما تلبثوا بها عطف على جملة (لأتوها)، والتلبث: اللبث، أي الاستقرار في المكان وهو هنا مستعار للإبطاء، أي ما أبطؤوا بالسعي في الفتنة ولا خافوا أن تؤخذ بيوتهم.

والمعنى: لو دخلت جيوش الأحزاب المدينة وبقي جيش المسلمين خارجها (أي مثلا لأن الكلام على الفرض والتقدير) وسأل الجيش الداخل الفريق المستأذنين أن يلقوا الفتنة في المسلمين بالتفريق والتخذيل لخرجوا لذلك القصد مسرعين ولم يثبطهم الخوف على بيوتهم أن يدخلها اللصوص أو ينهبها الجيش: إما لأنهم آمنون من أن يلقوا سوءا من الجيش الداخل لأنهم أولياء له ومعاونون، فهم منهم وإليهم، وإما لأن كراهتهم الإسلام تجعلهم لا يكترثون بنهب بيوتهم.

والاستثناء في قوله (إلا يسيرا) يظهر أنه تهكم بهم فيكون المقصود تأكيد النفي بصورة الاستثناء. ويحتمل أنه على ظاهره، أي إلا ريثما يتأملون فلا يطيلون التأمل فيكون المقصود من ذكره تأكيد قلة التلبث، فهذا هو التفسير المنسجم مع نظم القرآن أحسن انسجام.

(وَلَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ) أي ولقد كان هؤلاء المستأذنون وهم بنو حارثة قد هربوا يوم أحد وفرّوا من لقاء عدوهم، ثم تابوا وعاهدوا الله ألا يعودوا إلى مثلها وألا ينكصوا على أعقابهم حين قتالهم مع رسول الله ﷺ.

(وَكانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا) أي وعهد الله يسأل عن الوفاء به يوم القيامة ويجازى عليه.

(قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ) أي قل لهؤلاء المستأذنين الفارّين من قتال العدو ومنازلته في الميدان: لن ينفعكم الهرب ولا يدفع عنكم ما أبرم في الأزل من موت أحدكم حتف أنفه، أو قتله بسيف ونحوه فإن المقدّر كائن لا محالة والأجل إن حضر لم يتأخر بالفرار، وكان علي يقول عند اللقاء: دهم الأمر، وتوقّد الجمر.

أي يومي من الموت أفرّ   يوم لا يقدر أم يوم قدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ومن   المقدور لا ينجو الحذر

(وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) أي وإن نفعكم الفرار بأن دفع عنكم الموت فمتّعتم لم يكن ذلك التمتع إلا قليلا، فإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة، فعمر تأكله الدقائق قليل وإن كثر، ولله درّ أحمد شوقى إذ يقول: دقات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوانٍ

ولما كانوا ربما يقولون: بل ينفعنا لأنا طالما رأينا من هرب فسلم، ومن ثبت فاصطلم، أمره الله بالجواب عن هذا، فقال:

(قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً) أي قل لهم: لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم شرا من قتل أو بلاء قدره الله عليكم، أو يؤتيكم خيرا إن لم يكن أراده لكم.

والخلاصة: هل احترزتم في جميع أعمالكم عن سوء فنفعكم الاحتراز، أو اجتهد غيركم في منع الخير عنكم فتمّ له ما أراد؟

وإجمال القول: إن النفع والضر بيده سبحانه، وليس لغيره في ذلك تصريف ولا تبديل.

ثم أكد هذا بقوله: **(وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا)** أي ولا يجد هؤلاء المنافقون وليا ينفعهم غير الله، ولا نصيرا يدفع السوء عنهم.

وبعد أن أخبر سبحانه رسوله ﷺ بمقالة المنافقين لأهل المدينة، وأمره بوعظهم - حذّرهم بدوام علمه بمن يخون الله ورسوله بقوله:

٥- قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيم [١٢] يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَاب [١٣] يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور [١٤] فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِير ١٥﴾ الحديد.

وبعد أن رأينا صوراً من حالات النفاق، وكيف أنهم لم يصبروا على ابتلاءات الدنيا وفتنها، وآثروا متاع الحياة الدنيا على نعيم الآخرة، سنرى الآن نتيجة كل ما سبق يوم القيامة، يوم الخلود، يوم يعطي الله المؤمنين نورا فهو يسعى بين أيديهم، ويقول المنافقون للمؤمنين: ألم نكن معكم! أعطونا نقتبس من نوركم.

يقول الشيخ المراغي: بعد أن أمر بالإيمان والإنفاق في سبيل الله، وحث على كل منهما بوجود موجباته فحث على الإيمان بوجود الأسباب التي تساعد عليه وهي وجود الرسول بين أظهرهم، وكتابه الذي يتلى بين أيديهم، وحث على الإنفاق فأبان أن المال مال الله وهو عارية بين أيديهم ثم يردّ إليه، وأنهم ينالون على إنفاقه الأجر العظيم في جنات النعيم، ثم ذكر أن المنفقين أول الإسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين - ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة، وأنهم يبشرون بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك، وأنهم يطلبون من المؤمنين شيئا من الضوء يستنيرون به ليهديهم سواء السبيل.

التفسير:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم): قال الطبري: اختلف أهل التأويل؛ فقال بعضهم: معنى ذلك: يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يضيء نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

وقال آخرون بل معنى ذلك: يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى إيمانهم وهداهم بين أيديهم، وبأيمانهم كتبهم. ثم روى عن الضحاك قوله: (يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم): أي كتبهم، يقول الله: (فأما من أوتي كتابه بيمينه)، وأما نورهم فهداهم.

ثم رجح الطبري القول الثاني فقال: وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك، وذلك أنه لو عنى بذلك النور الضوء المعروف لم يخص عنه الخبر بالسعي بين الأيدي والأيمان دون الشمائل؛ لأن ضياء المؤمنين الذي يؤتونه في الآخرة يضيء لهم جميع ما حولهم. وفي خصوص الله جل ثناؤه الخبر عن سعيه بين

أيديهم وبأيمانهم دون الشمائل ما يدل على أنه معني به غير الضياء، وإن كانوا لا يخلون من الضياء.

فتأويل الكلام - إذ كان الأمر على ما وصفنا -: وكلا وعد الله الحسنى، يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعى ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم تتطاير.

وعن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورا على إبهامه يطفأ مرة ويوقد مرة.

(بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها): بشراكم اليوم - أيها المؤمنون - التي تبشرون بها جنات تجري من تحتها الأنهار، ماكثين فيها، لا تنتقلون عنها ولا تتحولون، خالدين فيها، وهو النجاح العظيم الذي كنتم تطلبونه بعد النجاة من عقاب الله.

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ... إلى قوله: وَبِئْسَ الْمَصِيرُ): قال ابن عباس: بينما الناس في ظلمة، إذ بعث الله نورا، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة؛ فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا، تبعوهم، فأظلم الله على المنافقين، فقالوا حينئذ: انظرونا نقتبس من نوركم، فإنا كنا معكم في الدنيا؛ قال المؤمنون: ارجعوا من حيث جئتم من الظلمة، فالتمسوا هنالك النور.

(فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ): فضرب الله بين المؤمنين والمنافقين بسُور، وهو حاجز بين أهل الجنة وأهل النار.

(لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ): لذلك السور باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبل ذلك الظاهر العذاب: يعني النار.

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى): ينادي المنافقون المؤمنين حين حُجز بينهم بالسور، فبقوا في الظلمة والعذاب، وصار المؤمنون في الجنة، ألم نكن معكم في الدنيا نصلي ونصوم، ونناكحكم ونوارثكم؟ قالوا: بلى، يقول: قال المؤمنون: بلى، بل كنتم كذلك، ولكنكم فَتَنْتمْ أنفسكم، فنافقتم، وفِتْنَتهم أنفسَهم في هذا الموضع كانت النفاق.

وعن مجاهد، قوله: (فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) قال: النفاق، وكان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم، ويغشَوْنهم، ويعاشرونهم، وكانوا معهم أمواتًا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، فيطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز بينهم حينئذ.

(وَتَرَبَّصْتُمْ): وتلبثتم بالإيمان، ودافعتم بالإقرار بالله ورسوله.

(وَارْتَبْتُمْ): وشككتم في توحيد الله، وفي نبوّة محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم.

(وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ): وخدعتكم أمانيّ نفوسكم، فصدتكم عن سبيل الله، وأضلتكم.

(حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِّ): حتى جاء قضاء الله بمناياكم، فاجتاحتكم.

(وَغَرَّكُمْ بِاللهِّ الْغَرُورُ): وخدعكم بالله الشيطان، فأطمعكم بالنجاة من عقوبته، والسلامة من عذابه.

ثم أيأسوهم من عاقبة أمرهم، وأنهم هالكون لا محالة ولا سبيل إلى الخلاص من النار فقال:

(فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ...): لو جاء أحدكم بملء الأرض ذهبا ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه، فمصيركم إلى النار، وإليها متقلبكم ومثواكم، وهي أولى بكم من كل منزل آخر، لكفركم وارتيابكم، وساءت مصيرا ومآلا.

قال ابن عاشور: (وهذه الأربعة هي أصول الخصال المتفرعة على النفاق:

الأول: فتنتهم أنفسهم، أي: عدم قرار ضمائرهم على الإسلام، فهم في ريبهم يترددون، فكأن الاضطراب وعدم الاستقرار خلق لهم فإذا خطرت في أنفسهم خواطر خير من إيمان ومحبة للمؤمنين نقضوها بخواطر الكفر والبغضاء، وهذا من صنع أنفسهم فإسناد الفتن إليهم إسناد حقيقي، وكذلك الحال في أعمالهم من صلاة وصدقة.

وهذا ينشأ عن الكذب والخداع والاستهزاء والطعن في المسلمين، قال تعالى (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به).

الثاني: التربص، والتربص: انتظار شيء، ويتعدى فعله إلى المفعول بنفسه ويتعلق به ما زاد على المفعول بالباء. وحذف هنا مفعوله ومتعلقه ليشمل عدة الأمور التي ينتظرها المنافقون في شأن المؤمنين وهي كثيرة مرجعها إلى أذى المؤمنين والإضرار بهم فيتربصون هزيمة المسلمين في الغزوات ونحوها من الأحداث، قال تعالى في بعضهم: (ويتربص بكم الدوائر) ويتربصون انقسام المؤمنين فقد قالوا لفريق من الأنصار يندمونهم على من قتل من قومهم في بعض الغزوات: لو أطاعونا ما قتلوا.

الثالث: الارتياب في الدين وهو الشك في الاعتماد على أهل الإسلام أو على الكافرين وينشأ عنه القعود عن الجهاد قال تعالى فهم في ريبهم يترددون ولذلك كانوا لا يؤمنون بالآجال، وقالوا لإخوانهم لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا.

الرابع: الغرور بالأماني، وهي جمع أمنية وهي اسم التمني. والمراد بها ما كانوا يمنون به أنفسهم من أنهم على الحق وأن انتصار المؤمنين عرض زائل، وأن الحوادث تجري على رغبتهم وهواهم، ومن ذلك قولهم ليخرجن الأعز منها الأذل وقولهم لو نعلم قتالا لاتبعناكم ولذلك يحسبون أن العاقبة لهم هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا.

والمقصود من الغاية بـ (حتى جاء أمر الله): التنديد عليهم بأنهم لم يرعووا عن غيهم مع طول مدة أعمارهم وتعاقب السنين عليهم وهم لم يتدبروا في العواقب، كما قال تعالى: (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) وإسناد التغيير إلى الأماني مجاز عقلي لأن الأماني والطمع في حصولها سبب غرورهم وملابسه.

ومجيء أمر الله هو الموت، أي حتى يتم على تلك الحالة السيئة ولم تقلعوا عنها بالإيمان الحق.

والغاية معترضة بين الجملتين المتعاطفتين، ومن حق المؤمن أن يعتبر بها تضمنه قوله تعالى: (وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله) الآية، فلا يماطل التوبة ولا يقول: غداً غداً).

فتن المنافقين بين الماضي والحاضر:

قال تعالى:

﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتّخِذوا بطانةً مِن دُونِكُم لا يألونَكُم خبَالاً ودّوا ما عَنِتّم قَد بدتِ البغضَاءُ من أفواههم وما تُخفى صدُورُهُم أكبرُ قد بيّنّا لكمُ الآياتِ إن كنتُم تعقلون﴾. آل عمران: ١١٨.

قال الراغب: النِّفَاقُ، هو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نبَّه بقوله: **﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾** التوبة: ٦٧ أي: الخارجون من الشَّرْعِ، وجعل اللهٌ المنافقين شرّاً من الكافرين.

فقال: **﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾** النساء: ١٤٥.

وجاء في الموسوعة الفقهية الكويتية: قال ابن رجب: النفاق في الشرع ينقسم قسمين: الأول: النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه. وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار.

والثاني: النفاق الأصغر، أو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك.

ومن هنا فإن كل ما ذكر في القرآن من وعيد للكافرين يدخل فيه أهل النفاق الأكبر، لأن كفرهم اعتقادي حقيقي، ليس معه من الإيمان شيء. وحيث قرن الكفار

بالمنافقين في وعيد، يراد بالكفار من كان كفرهم معلنا ظاهرا، وبالمنافقين أهل الكفر الباطن.

أما أهل النفاق العملي- الذي ليس معه نفاق اعتقاد - فلا يدخلون في وعيد الكافرين، وإنما هم من عصاة أهل الملة. وقد يطلق اسم النفاق من هذا النوع على من يرتكب خصلة من خصال النفاق الآتي بيانها.

وفتن المنافقين هي من أشد الفتن على المسلمين، وهل باع أمن الأوطان وتسبب في هتك الأعراض وسلب الأموال ودمار البلاد وفساد العباد إلا المنافقون؟!

المنافق الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، فيطمئن له الناس فيستأمنونه على أسرارهم ويعطونه ثقتهم، فيخونهم.

المنافق الذي دخل قلوب الناس بلسانه وهيئته ومظهره؛ فيزين لهم الشر ويقلب المفاهيم فيخدعهم وهو مسلط عليهم من أعداء الأمة. قال ﷺ: (**أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**).

لقد كان في كل زمان رؤوس من أهل النفاق، سجّل لنا التاريخ أسماءهم وخياناتهم. ومن أول هؤلاء؛ رأس النفاق في الزمن النبوي: عبد الله بن أبي بن سلول.

لقد عمل المنافقون منذ صدر الدعوة الإسلامية على إشعال الفتن والقلاقل بين المسلمين، يناصرون أعداء الإسلام ويكيدون للمسلمين المكائد والدسائس، يظهرون لهم الإيمان ويخفون في صدورهم الغدر والمؤامرات، وكم سعوا لإيذاء رسول الله ﷺ، وكان الله تعالى يخيب كيدهم ودسائسهم ويفضح أعمالهم، وكان النبي ﷺ يصبر على أذاهم ويترفق بهم ويرجو صلاحهم.

عن جابر رضي الله عنه قال: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال: **ما بال دعوى جاهلية،** قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال: **دعوها فإنها منتنة،** فسمع بذلك عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأس المنافقين فقال: فعلوها، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.**

وأتى عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

ولم ينقطع حبل النفاق، حتى ظهر في أواخر خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وفي زمن خلافة سيدنا علي بن إبي طالب رضي الله عنه.

فكان رأس النفاق عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي تسبب في العديد من الفتن.

ومن أبرز المنافقين أيضا في زمن الدولة العباسية: ابن العلقمي، الذي ساعد التتار على دخول بغداد واسقاط الدولة العباسية عام ٦٥٦ هـ. وهكذا هم المنافقون كانوا سبباً للفتن في كل زمان ومكان.

أما في العصر الحديث، فحدث عن أهل النفاق ولا حرج، وقد انتشروا في جميع الميادين، وساعدهم الإعلام على بث شرورهم وإفسادهم. فتجدهم في ميادين الإعلام والسياسة والفن والأدب والشعر والثقافة، ومنهم علماء يحملون الإجازات والشهادات الشرعية.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن صفاتهم وعن ظهورهم في آخر الزمان وتوليهم المناصب، فأما صفاتهم:

فعن عبد الله بن عمرٍو قال: قال رسول الله ﷺ: (**أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَلَّةٌ منهن كانت فيه خَلةٌ من نفاقٍ حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصَم فجَر**)[1].

وقال ﷺ: (**آية المنافق ثلاثٌ: إذا حدث كذب، وإذا وعَد أخلف، وإذا ائتمن خان**)[2].
وفي زيادة عند لمسلم: (**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلمٌ**).

ومن هذين الحديثين نستخلص صفات المنافق وهي أنه: يكذب ويغدر ويخلف الوعد ويفجر على خصمه ويخون الأمانة، وهو مع ذلك قد يصلي ويصوم.

والمنافقون شر في كل زمان ومكان، وشرهم في ازدياد مطّرد، فإذا قال سيدنا حذيفة رضي الله عنه عن زمانه: المنافقون اليوم شر منهم في عهد رسول الله ﷺ فسألوه فقال: إن المنافقين كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء اليوم قد أظهروه وكلما بعد العهد كثروا في طوائف أهل البدع.

فكيف نقول نحن في هذا الزمان؟!

---

[1] رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.
[2] رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

قال ﷺ: **(إن بين يدي الساعة كذابين فاحذروهم)**. رواه مسلم.

وقال ﷺ: (**لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي كنفه ما لم يمالئ قراؤها أمراءها، وما لم يزك صلحاؤها فجارها، وما لم يُهن أشرارها خيارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر**)[1].

وعن عمر بن الخطاب: (توشك القرى أن تخرب وهي عامرة، قيل وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها)، رواه أحمد.

وقال ﷺ فيما ذكره الأوزاعي عن حسان بن عطية: (**سيظهر شرار أمتي على خيارها، حتى يستخفي المؤمن فيها كما يستخفي المنافق فينا اليوم**)؟ رواه الداني في سنن الفتن

[1] رواه ابن المبارك في الزهد، والداني والعراقي وقال مرسل.

فتنة عبادة الأوثان

وفيها موضعان:

الأول- قال تعالى:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)) الأنعام.

التفسير:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ): ومن أشد اعتداء، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا "ممن افترى على الله كذبا" يعني: ممن اختلق على الله قيل باطل، واخترق من نفسه عليه كذبا، فزعم أن له شريكا من خلقه، وإلها يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادعى له ولدا أو صاحبة كما قالته النصارى "أو كذب بآياته" يقول: أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذبت بها اليهود. ثم بين سبحانه سوء عاقبة الظالمين فقال:

(إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ): إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاء في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه.

(ثم نقول للذين أشركوا): ثم نقول إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب بادعائهم له في سلطانه شريكا، والمكذبين بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة:

(أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون): أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبا، وتدعونهم من دونه أربابا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين.

(ثم لم يكن قولهم) إذ قلنا لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون إجابة منهم لنا عن سؤالنا إياهم ذلك إذ فتناهم فاختبرناهم، (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين): كذبا منهم في أيمانهم على قيلهم ذلك.

معناه: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذارا مما سلف منهم من الشرك بالله (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فوضعت "الفتنة" موضع "القول" لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما "الفتنة" الاختبار والابتلاء ولكن لما كان الجواب من القوم غير واقع هنالك إلا عند الاختبار وضعت "الفتنة" التي هي الاختبار موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم.

عن سعيد بن جبير قال: أتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: (والله ربنا ما كنا مشركين) وقال في آية أخرى: (ولا يكتمون الله حديثا) سورة النساء:٤٢؟ قال ابن عباس: أما قوله: (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنه لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام: قالوا: "تعالوا نجحد" فقالوا: (والله ربنا ما كنا مشركين) فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم، (ولا يكتمون الله حديثا).

وروى القرطبي قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثا، فذلك

قوله: (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا).

وقال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جدا، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك، ونظير هذا في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا فإذا وقع في هلكة تبرأ منه، فيقال: ما كانت محبتك إياه إلا أن تبرأت منه. وقال الحسن: هذا خاص بالمنافقين جروا على عادتهم في الدنيا، ومعنى (فتنتهم) عاقبة فتنتهم أي: كفرهم. وقال قتادة: معناه معذرتهم.

وقال القاسمي في تفسيره: أي: جواب ما اعترض به على فتنتهم التي هي شهادة أن مع الله آلهة أخرى. وعبر عن جوابهم بالفتنة؛ لأنه كذب. إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين اعتذروا عن أصنامهم بنفيها مؤكدا بالقسم بالاسم الجامع، مع نسبة الربوبية إليه تعالى، لا إلى ما سواه، مبالغة في التبرؤ من الإشراك. فكان هذا العذر ذنبا آخر مؤكدا لافترائهم بالإشراك الذي نفوه.

(انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون): يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: انظر يا محمد، فاعلم كيف كذب هؤلاء المشركون العادلون بربهم الأوثان والأصنام في الآخرة عند لقاء الله على أنفسهم بقيلهم: (والله يا ربنا ما كنا مشركين) واستعملوا هنالك الأخلاق التي كانوا بها يتخلقون في الدنيا من الكذب والفرية.

ومعنى"النظر" في هذا الموضع، النظر بالقلب، لا النظر بالبصر. وإنما معناه: تبين فاعلم كيف كذبوا في الآخرة.

وقال: (كذبوا) ومعناه: يكذبون، لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها، صار كالشيء الذي قد كان ووجد.

(وضل عنهم ما كانوا يفترون): وفارقهم الأنداد والأصنام، وتبرؤوا منها، فسلكوا غير سبيلها، لأنها هلكت، [وأعيد الذين كانوا يعبدونها اجتراء]، ثم أخذوا بما كانوا يفترونه من قيلهم فيها على الله، وعبادتهم إياها، وإشراكهم إياها في سلطان الله، فضلت عنهم، وعوقب عابدوها بفريتهم.

الثاني- لا يقع في فتنة عبادة الأوثان إلا أهل النار:

قال تعالى:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثًا وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)) الصافات.

التفسير:

لما ذكر الله أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها، ومن جملة أقوالهم الباطلة أنهم أثبتوا الأولاد لله سبحانه وتعالى، ثم زعموا أنها من جنس الإناث لا من جنس الذكور، فقال:

(فاستفتهم): سل يا محمد مشركي قومك من قريش:

(ألربك البنات ولهم البنون): ذكر أن مشركي قريش كانوا يقولون: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونها، فقال الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: سلهم، وقل لهم: ألربي البنات ولكم البنون؟ وهو سؤال توبيخ، وذلك أن جهينة وبني سلمة بن عبد الدار زعموا أن الملائكة بنات الله يقول: جعلوا لله البنات ولأنفسهم البنين.

(أم خلقنا الملائكة إناثا): أخلقنا الملائكة إناثا!؟

(وهم شاهدون): حاضرون خلقنا إياهم؟ نظيره قوله: (أشهدوا خلقهم) الزخرف

(ألا إنهم من إفكهم) من كذبهم، (ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون).

(أصطفى البنات على البنين): توبيخا لهؤلاء القائلين لله البنات من مشركي قريش: (أصطفى) الله أيها القوم (البنات على البنين)؟ بئس الحكم تحكمون أيها القوم أن يكون لله البنات ولكم البنون، وأنتم لا ترضون البنات لأنفسكم، فتجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم؟

(ما لكم كيف تحكمون): لله بالبنات ولكم بالبنين.

(أفلا تذكرون): أفلا تتعظون، أفلا تتدبرون ما تقولون، فتعرفوا خطأه فتنتهوا عن قيله؟

(أم لكم سلطان مبين): ألكم حجة وبرهان تبين صحتها لمن سمعها، بحقيقة ما تقولون؟

(فأتوا بكتابكم): فأتوا بحجتكم من كتاب جاءكم من عند الله بأن الذي تقولون من أن له البنات ولكم البنين كما تقولون.

(إن كنتم صادقين): إن كنتم صادقين أن لكم بذلك حجة.

(وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا): وجعل هؤلاء المشركون بين الله وبين الجنة نسبا.

قال الطبري: واختلف أهل التأويل في معنى النسب الذي أخبر الله عنهم أنهم جعلوه لله تعالى، فقال بعضهم: هو أنهم قالوا أعداء الله: إن الله وإبليس أخوان:

فعن ابن عباس قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى وإبليس أخوان.

وقال آخرون: هو أنهم قالوا: الملائكة بنات الله، وقالوا: الجنة هي الملائكة.

فعن مجاهد قال: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، فسأل أبو بكر: من أمهاتهن؟

فقالوا: بنات سروات الجن، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس.

وعن قتادة قال: قالت اليهود : إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن، فخرج منهما الملائكة، قال: سبحانه سبح نفسه.

(ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون): اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معناه: ولقد علمت الجنة إنهم لمشهدون الحساب. فعن مجاهد قال: إنها ستحضر الحساب.

وقال آخرون معناه: إن قائلي هذا القول سيحضرون العذاب في النار. فعن السدي: إن هؤلاء الذين قالوا هذا لمحضرون: لمعذبون.

ثم رجح الطبري فقال: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: إنهم لمحضرون العذاب، لأن سائر الآيات التي ذكر فيها الإحضار في هذه السورة، إنما عني به الإحضار في العذاب، فكذلك في هذا الموضع.

(سبحان الله عما يصفون): تنزيها لله، وتبرئة له مما يضيف إليه هؤلاء المشركون به، ويفترون عليه، ويصفونه من أن له بنات، وأن له صاحبة.

(إلا عباد الله المخلصين): ولقد علمت الجنة أن الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله لمحضرون العذاب، إلا عباد الله الذين أخلصهم لرحمته، وخلقهم لجنته.

قال الفخر: قيل: استثناء من المحضرين، يعني: أنهم ناجون، وقيل هو استثناء من قوله تعالى: (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) وقيل: هو استثناء منقطع من المحضرين، ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك، والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله، وبفتحها من أخلصه الله بلطفه. والله أعلم.

(فإنكم وما تعبدون): فإنكم أيها المشركون بالله، (وما تعبدون) من الآلهة والأوثان.

(ما أنتم عليه بفاتنين): ما أنتم على ما تعبدون من دون الله بفاتنين: أي بمضلين أحدا.

(إلا من هو صال الجحيم): إلا أحدا سبق في علمي أنه صال الجحيم. وقد قيل: إن معنى (عليه) في قوله: (ما أنتم عليه بفاتنين) بمعنى: به.

فعن ابن عباس قوله: (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) يقول: لا تضلون أنتم ولا أضل منكم إلا من قد قضيت أنه صال الجحيم.

وعن ابن عباس أيضا: ما أنتم بفاتنين على أوثانكم أحدا، إلا من قد سبق له أنه صال الجحيم. وعن الحسن: إلا من أوجب الله عليه أن يصلى الجحيم.

وعنه أيضا قال: ما أنتم عليه بمضلين إلا من كان في علم الله أنه سيصلى الجحيم.

وعن إبراهيم: إلا من قدر عليه أنه يصلى الجحيم. وعن قتادة: ما أنتم بمضلين أحدا من عبادي بباطلكم هذا، إلا من تولاكم بعمل النار. وعن الضحاك: لا تضلون بآلهتكم أحدا إلا من سبقت له الشقاوة، ومن هو صال الجحيم.

فتنة عبادة الأوثان بين الماضي والحاضر:

لكل زمان أوثانه وأصنامه، وأوثان هذا الزمان كثيرة، فمن الناس من اتخذ المال وثنا له، لا يعرف في دنياه غيره، بعمل الليل والنهار لأجله، المال همه الأول والأخير، يبيع دينه بعرض قليل من المال، بئس عبد الدينار هو.

ومنهم من اتخذ من الطواغيت أوثاناً وأصناماً له، يُعظّمهم ويُمجّدهم، ويسعى لإرضائهم والفوز بفُتات موائدهم، يتقرب إليهم بالكذب والنفاق ويتزلف إليهم على حساب دينه، فبئس عبد الطواغيت هو.

ومن الناس من اتخذ من هواه ورأيه وفكره وثناً له، معجبٌ برأيه، مُعظّمٌ لأفكاره، يؤول النصوص على هواه، بئس عبد الهوى.

ومنهم من اتخذ من عمله وثنا له، فهو لا يعرف في الدنيا سوى العمل، لا يعطي لدينه وأهله وجسمه حقوقهم، فبئس عبد العمل هو.

الإسلام دين التوازن والاعتدال، يأمر المسلم أن يعطي لكل ذي حق حقه، فلدينه عليه حق، ولأهله عليه حق، ولجاره وصديقه عليه حق، ولعمله عليه حق، ولصحته حق.

فتنة تحريف الأحكام الشرعية

١- قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٤٨] وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ [٤٩] أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ المائدة.

سبب التنزيل:

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وعبد الله ابن صوريا وشاس بن قيس من اليهود: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلّنا نفتنه عن دينه فأتوه، فقالوا: يا محمد إنك عرفت أنّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنخاصمهم إليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك، وأنزل الله عز وجل فيهم: (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ – إلى قوله: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) اهـ. يريد أن الحكمة في إنزال هذه الآية إقرار النبي ﷺ على ما فعل والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود.

التفسير:

هذا خطابٌ من الله تعالى لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم. يقول تعالى: أنـزلنا إليك، يا محمد القرآن بالصدق ولا كذب فيه، ولا شك أنه من عند الله، أنـزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنـزلها إلى أنبيائه.

(ومهيمنًا عليه): مصدّقًا للكتب قبله، وشهيدًا عليها أنها حق من عند الله، أمينًا عليها، حافظا لها.

(لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا): لكل قوم منكم جعلنا شرعةً. و "الشرعة" هي"الشريعة "بعينها، تجمع شِرَعًا، والشريعة: شرائع، ومنه سميت شرائع الإسلام "شرائع"، لشروع أهله فيها. وأما"المنهاج"، فإنّ أصله: الطريقُ البيِّن الواضح، يقال منه: هو طريق نَهْجٌ، وَمنهْجٌ"، بيِّنٌ. فمعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقًا إلى الحق يؤمُّه، وسبيلا واضحًا يعمل به.

عن قتادة قوله: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا): سبيلا وسُنّة، والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاءً، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل. وقال: الدينُ واحد، والشريعةُ مختلفة.

وعن علي رضي الله عنه: الإيمان منذُ بَعث الله تعالى آدم ﷺ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء من عند الله، لكلّ قوم ما جاءَهم من شرعة أو منهاج، فلا يكون المقرُّ تاركًا، ولكنه مُطِيع. وعن ابن عباس: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا) قال: سنةً وسبيلا.

(وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ): ولو شاء ربُّكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعةً ومنهاجًا غيرَ شرائع الأمم الأخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمة واحدةً لا تختلف شرائعكم ومنهاجكم، ولكنه تعالى يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصي، والعاملَ بما أمره في الكتاب الذي أنـزله إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم من المخالف.

(في ما آتاكم): فيما أنـزل عليكم من الكتب. قال عبد الله بن كثير: لا أعلمه إلا قال، ليبلوكم فيما آتاكم من الكتب.

والخطاب وإن كان لنبينا ﷺ: فإنه قد أريد به الخبر عن الأنبياء قبله وأممهم. والعرب من شأنها إذا خاطبت إنسانًا وضمَّت إليه غائبًا، فأرادت الخبر عنه، أن تغلِّب المخاطب، فيخرج الخبرُ عنهما على وجه الخطاب، فلذلك قال تعالى ذكره: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا).

(فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ): فبادروا أيها الناس، إلى الصالحات من الأعمال، والقُرَب إلى ربكم، بإدمان العمل بما في كتابكم الذي أنـزله إلى نبيكم، فإنه إنما أنـزله امتحانًا لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم من المسيء، فيجازي جميعكم على عمله جزاءَه عند مصيركم إليه، فإن إليه مصيركم جميعًا، فيخبر كلَّ فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرقَ الأخرى، فيفْصَل بينهم بفصل القضاء، وتُبِينُ المحقَّ مجازاته إياه بجناته، من المسيء بعقابه إياه بالنار، فيتبين حينئذ كل حزب عيانًا، المحقَّ منهم من المبطل.

فإن قال قائل: أو لم ينبئنا ربُّنا في الدنيا قبل مرجعنا إليه ما نحن فيه مختلفون؟ قيل: إنه بيَّن ذلك في الدنيا بالرسل والأدلة والحجج، دون الثواب والعقاب عيانًا، فمصدق بذلك ومكذِّب. وأما عند المرجع إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاة التي لا

يشكُّون معها في معرفة المحق والمبطل، ولا يقدرون على إدخال اللبس معها على أنفسهم. فكذلك خبرُه تعالى ذكره أنه ينبئنا عند المرجع إليه بما كنَّا فيه نختلف في الدنيا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعًا، فتعرفون المحقَّ حينئذ من المبطل منكم.

(وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ): وأنِ احكم بينهم بالتنزيل، بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه.

(ولا تتبع أهواءهم): فإنه نهيٌ من الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يتّبع أهواء اليهود الذين احتكموا إليه في قتيلهم وفاجِرَيْهم، وأمرٌ منه له بلزوم العمل بكتابه الذي أنزله إليه.

(واحذرهم أن يفتِنُوك عن بعض ما أنزل الله إليك): واحذر، يا محمد، هؤلاء اليهود الذين جاءوك محتكمين إليك أن يفتنوك، فيصدُّوك عن بعض ما أنزل إليك، فاحكم بينهم بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه.

(فإن تولوا): فإن تولى هؤلاء اليهود الذين اختصموا إليك عنك، فتركوا العمل بما حكمت به عليهم وقضيت فيهم.

(فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم): فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمك وقد قضيت بالحقّ، إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجّل عقوبتهم في عاجل الدنيا ببعض ما قد سلف من ذنوبهم.

(وإن كثيرًا من الناس لفاسقون): وإن كثيرًا من اليهود لتاركُو العمل بكتاب الله، ولخارجون عن طاعته إلى معصيته.

عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا وشأس بن قيس، بعضُهم لبعضٍ: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلّنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنَّا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنَّا إن اتّبعناك اتّبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومِنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنـزل الله فيهم: (وأنِ احكم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتِنُوك عن بعض ما أنـزل الله إليك)، إلى قوله: لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ): أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، فلم يرضوا بحكمك، إذ حكمت فيهم بالقسط.

و(حكم الجاهلية): أحكام عبَدة الأوثان من أهل الشرك، وعندهم كتاب الله فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوزُ خلافه.

ثم قال تعالى ذكره موبِّخا لهؤلاء الذين أبوا قَبُول حكم رسول الله ﷺ عليهم ولهم من اليهود، ومستجهلا فعلَهم ذلك منهم:

(وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ): ومَنْ هذا الذي هو أحسن حكمًا، أيها اليهود، من الله تعالى ذكره عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقرُّ بربوبيته؟ يقول تعالى ذكره: أيّ حكم أحسن من حكم الله، إن كنتم موقنين أن لكم ربًّا، وكنتم أهل توحيدٍ وإقرار به؟

وخلاصة ذلك - توبيخهم والتعجيب من حالهم بأنهم أهل كتاب وعلم، ومع ذلك كانوا يبغون حكم الجاهلية الذي يجيء به محض الجهل وصريح الهوى.

والخلاصة - إن مما ينبغي التعجب منه من أحوالهم أنهم يطلبون حكم الجاهلية الجائر، ويؤثرونه على حكم الله العادل، وفى الأول تفضيل القوي على الضعيف واستذلاله واستئصال شأفته، وفى الثاني العدل الذي يستقيم به أمر الخلق، وبه يستتب الأمن والرضا والطمأنينة بين الناس ويشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير.

٢- قال تعالى:

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)) الإسراء.

أسباب النزول:

ذكر ابن الجوزي في "زاد المسير" الروايات التي جاءت كسبب للنزول ثم قال: وهذا باطل، لا يجوز أن يظن برسول الله ﷺ، ولا ما ذكرنا عن عطية من أنه هم أن ينظرهم سنة، وكل ذلك محال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رووا عنه.

قال الالوسي: (وفي ذلك روايات أخر مختلفة أيضا وفي بعضها ما لا يصح نسبته إلى الرسول ﷺ ولا يكاد يؤول، وذلك يدل على الوضع، والتفسير لا يتوقف على شيء من ذلك).

التفسير الإجمالي:

قال ابن عاشور: (حكاية فن من أفانين ضلالهم وعماهم في الدنيا، فالجملة عطف على جملة ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى، وهو انتقال من وصف حالهم، وإبطال مقالهم في تكذيب النبي ﷺ إلى ذكر حال آخر من حال معارضتهم

وإعراضهم، وهي حال طمعهم في أن يستنزلوا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يقول قولا فيه حسن ذكر لآلهتهم ليتنازلوا إلى مصالحته وموافقته إذا وافقهم في بعض ما سألوه.

وعُدّي (يفتنونك) بحرف (عن) لتضمينه معنى فعل كان الفتن لأجله، وهو ما فيه معنى يصرفونك. و(الذي أوحي إليك): هو القرآن. هذا هو الوجه في تفسير الآية بما تعطيه معاني تراكيبها مع ملاحظة ما تقتضيه أدلة عصمة الرسول ﷺ من أن تتطرق إليه خواطر إجابة المشركين لما يطمعون.

وللمفسرين بضعة محامل أخرى لهذه الآية استقصاها القرطبي، فمنها ما ليس له حظ من القبول لوهن سنده، وعدم انطباقه على معاني الآية، ومنها ما هو ضعيف السند، وتتحمله الآية بتكلف).

وقال الشيخ الشعراوي: ومعنى (كَادُواْ) أي قاربوا، والمقاربة غير الفعل، فالمقاربة مشروع فعل وتخطيط له، لكنه لم يحدث، إنهم قاربوا أنْ يفتنوك عن الذي أُنزِل إليك لكن لم يحدث؛ لأن محاولاتهم كانت من بعيد، فهي تحوم حول فتنتك عن الدين، كما قالوا مثلاً: نعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة.

ومعنى: (لَيَفْتِنُونَكَ) لَيُحوّلونك ويَصْرِفونك عما أنزل الله إليك، لماذا؟ (لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ..) الإسراء: ٧٣ كما حكى القرآن عنهم في آية أخرى: (ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ..) يونس: ١٥، فيكون الجواب من الحق سبحانه:

(قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) يونس: ١٥

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يونس: ١٦

ونلاحظ في مثل هذا الموقف أن الحق سبحانه يتحمل العنت عن رسوله، وينقل المسألة من ساحة الرسول إلى ساحته تعالى، لكيلا تكون عداوة بين محمد وقومه، فالأمر ليس من عند محمد بل من عند الله، يقول تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ الأنعام: ٣٣

وقال الفخر الرازي: أن كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك ههنا قوله: (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم) معناه أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ فكان حصول ذلك التثبيت مانعا من حصول ذلك الركون.

وقال القاسمي: إخبار عن تأييده تعالى رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيته وعصمته وتولي أمره وحفظه. فإن المشركين، لكثرة تفننهم في ضروب الأذى وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم، كادوا أن يفتنوه. ولكن عناية الله وحفظه، هو الذي ثبت قدمه في مثل مقامه في الدعوة إلى الله الذي لا يثبت فيه أحد غيره.

وقال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: (إن الله تعالى ذكره أخبر عن نبيه ﷺ، أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره، وذلك هو الافتراء على الله، ...فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره، حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه).

فتنة 'تحريف الأحكام الشرعية' بين الماضي والحاضر:

ما مصدر هذه الفتنة؟ هل هم اليهود الذين حرفوا كتبهم من قبل؟ أم أن بعض المسلمين هم من يسعون لتحريف أحكام الشريعة تلقاء أنفسهم، لهوى في نفوسهم أو مصالح دنيوية؟ أم هو الجهل بحقيقة الأحكام فجاء التحريف عن غير قصد وسابق نية؟

الواقع أن كل ذلك حاصل، وعلى درجات ونسب متفاوتة، فلليهود دورهم، وللفاسدين المفسدين دورهم، وللجهل ببعض الأحكام الشرعية لدى العديد من الناس دوره.

لقد حرف بنو إسرائيل كتبهم كما ذكر القرآن ذلك، ولم يكتفوا بتحريف كتبهم فحسب، بل كانوا ومازالوا يحاولون تحريف القرآن الكريم، ولكن جميع مساعيهم بائت بالفشل والخيبة، لأن الله تعالى هو حافظ كتابه من أن تناله أيدي الظالمين بأدنى سوء.

وكانت من أواخر محاولاتهم البائسة الفاشلة ما أسموه الفرقان الحق، والذي ألفوه على أسلوب القرآن من حيث ترتيب السور وأسماء بعضها، وترقيم الآيات، واقتباس بعض الكلمات مع زيادات وإضافات، فكان أن هيأ الله من يتصدى لهذا المحاولة الفاشلة وعدم انتشارها.

ولما علم اليهود أنهم لا ينالوا من كتاب الله أبدا بالتحريف والتزوير، واستيأسوا من ذلك، صبوا جام حسدهم ومكرهم بالعمل على افساد عقائد المسلمين وأحكامهم الشرعية بأي وسيلة استطاعوا القيام بها، وقد كانت بدايات محاولاتهم

الدنيئة منذ العهد النبوي، كما مر معنا قبل قليل في أسباب النزول، ولكن الله تعالى فضح مكرهم وخبثهم في كل مرة، ونزلت الآيات الكريمة محذرة من كيدهم ومحاولاتهم، ولن يهنأ لهم بال حتى يصلوا لأهدافهم، ولن يصلوا بإذن الله تعالى وقدرته.

لذا كانت تتراوح محاولاتهم من خلال دس ما يسمى بالإسرائيليات في كتب التفاسير، وتأليف الكتب التي تزور الحقائق والتواريخ والأحداث، وفي كل مرة يهيئ الله تعالى من الرجال في الأمة من يفضح سوء أفعالهم ويتصدى لافتراءاتهم.

أما من جهة الفاسدون المفسدين من المنتسبين للإسلام – ولن أدخل في حقيقة انتسابهم لأنها مسألة فيها تفصيلات فقهية طويلة – فهؤلاء كان لهم تأثير واضح في تحريف الأحكام الشرعية، وذلك من القرون الأولى للإسلام، وقد حذر من ذلك رسول الله ﷺ.

وقد احتال هؤلاء لتحريف الأحكام حيل مختلفة، بدأت بتغيير الأسماء الحقيقة للأشياء والتي هي أسماء شرعية، وردت في نصوص الوحيين، مستغلين سعة اللغة وغناها بالمترادفات، التي قد لا يعيها كثير من الناس، وهذه الحيلة قديمة حديثة، كلما لاح لهم تحليل حرام بادروا إلى تغيير اسمه.

فمثلا؛ قديما أطلقوا على الخمر اسم الطلاء لكي يبيحوا شربها، لأن التحريم جاء في النصوص باسم الخمر، ولو قالوا إن الخمر حلال لهاجمهم عامة المسلمين وكذبوهم، فقد روى البيهقي في سننه الكبرى أن أبا مسلم الخولاني حج فدخل على عائشة زوج النبي ﷺ، فجعلت تسأله عن الشام وعن بردها، فجعل يخبرها، فقالت: كيف يصبرون على بردها؟ فقال: يا أم المؤمنين، إنهم يشربون شرابا لهم يقال له:

الطلاء، فقالت: صدق الله، وبلغ حبي؛ سمعت حبي رسول الله ﷺ يقول: **(إن أناسا من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها)**[١].

وهذا في القرن الأول للهجرة كما هو واضح، وعائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(إن أول ما يكفأ – قال زيد بن يحيى الراوي: يعني في الإسلام– كما يكفأ الإناء، يعني الخمر، قيل: فكيف يا رسول الله وقد بين الله فيها ما بين؟ قال: يسمونها بغير اسمها فيستحلونها)**[٢].

وقد حذر النبي ﷺ هؤلاء المحتالين من عذاب يخصهم فقال: **(ليشربن أناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، وتضرب على رءوسهم المعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير)**[٣].

ومن الحيل أيضا في تحريف الأحكام، استجلاب المصطلحات الغربية وإلباسها عباءة إسلامية من خلال تفسيرها بمصطلحات شرعي، كالديمقراطية التي ألبسوها لباس الشورى، وبذلك اتبعنا الأمم الأخرى في أسلوب الحكم، مصداقا لقوله ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراعٍ، فقيل يا رسول الله: كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك؟)**[٤].

أما اتباع الديانات السماوية الأخرى في بعض أحكامهم وأسلوب تعاطيهم مع أحكامهم التي في كتبهم، فقد قال ﷺ: **(لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبرٍ، وذراعاً**

---

[١] وررواه أحمد رقم (١٧٧٠٧)، وأبو داود (٣٢٠٥)، والنسائي في الصغرى (٥٥٩٢).
[٢] رواه الدارمي برقم (٢٠٣٥).
[٣] رواه ابن ماجة (٤٠١٨).
[٤] البخاري (٦٨٠١).

بذراعٍ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، فقلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال ﷺ: فمن؟)[1].

وقال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية: (والمقصود من هذه الأخبار عما يقع من الأقوال والأفعال المنهي عنها شرعاً، مما يشابه أهل الكتاب قبلنا أن الله ورسوله ينهيان عن مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم، حتى لو كان قصد المؤمن خيراً، لكنه تشبه ففعله في الظاهر فعلهم).

[1] البخاري (٣٢٢١)، ومسلم (٤٨٢٨).

الفصل الرابع

فتن الأمم السالقة

وفيه:

١- فتن اليهود.

٢- فتنة قوم ثمود.

٣- فتنة قوم فرعون.

٤- فتنة قريش.

فتن اليهود

١- (فتنة قتل الأنبياء)، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُون (٧٠) وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون﴾ [المائدة:٧٠-٧١]

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: أقسم: لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل على الإخلاص في توحيدنا، والعمل بما أمرناهم به، والانتهاء عما نهيناهم عنه، وأرسلنا إليهم بذلك رسلا ووعدناهم على ألسن رسلنا إليهم على العمل بطاعتنا الجزيلَ من الثواب، وأوعدناهم على العمل بمعصيتنا الشديدَ من العقاب، كلما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق محبَّتهم، كذّبوا منهم فريقًا، ويقتلون منهم فريقًا، نقضًا لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجرأة علينا وعلى خلاف أمرنا.

يقول تعالى: وظن هؤلاء الإسرائيليون الذين وصف تعالى ذكره صفتهم: أنه أخذ ميثاقهم: وأنه أرسل إليهم رسلا وأنهم كانوا كلما جاءهم رسولٌ بما لا تهوى أنفسهم كذّبوا فريقًا وقتلوا فريقًا ألا يكون من الله لهم ابتلاء واختبارٌ بالشدائد من العقوبات بما كانوا يفعلون.

(فعموا وصموا): فعموا عن الحق والوفاء بالميثاق الذي أخذته عليهم، من إخلاص عبادتي، والانتهاء إلى أمري ونهيي، والعمل بطاعتي، بحسبانهم ذلك وظنهم (وصموا) عنه ثم تبت عليهم. يقول: ثم هديتهم بلطف مني لهم حتى أنابوا ورجعوا عما كانوا عليه من معاصيَّ وخلاف أمري والعمل بما أكرهه منهم، إلى العمل بما أحبه، والانتهاء إلى طاعتي وأمري ونهيي.

(ثم عموا وصموا كثير منهم): ثم عموا أيضًا عن الحق والوفاء بميثاقي الذي أخذته عليهم: من العمل بطاعتي، والانتهاء إلى أمري، واجتناب معاصيَّ (وصموا كثير منهم): عمي كثير من هؤلاء الذين كنت أخذت ميثاقهم من بني إسرائيل، باتباع رسلي والعمل بما أنـزلت إليهم من كتبي عن الحق وصموا، بعد توبتي عليهم، واستنقاذي إياهم من الهلكة.

(والله بصير بما يعملون): فيرى أعمالهم خيرَها وشرَّها، فيجازيهم يوم القيامة بجميعها، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا.

عن قتادة قوله: (وحسبوا ألا تكون فتنة): حسب القوم ألا يكون بلاءٌ (فعموا وصموا)، كلما عرض بلاء ابتلوا به، هلكوا فيه. وعن السدي: حسبوا أن لا يبتلوا، فعموا عن الحق وصمُّوا.

قال ابن عاشور: (والمعنى: وظنّوا أنّ الله لا يُصيبهم بفتنة في الدّنيا جزاء على ما عاملوا به أنبياءهم، فهنالك مجرور مقدّر دالّ عليه السّياق، أي ظنّوا ألا تنزل بهم مصائب في الدّنيا فأمنوا عقاب الله في الدّنيا بعد أن استخفّوا بعذاب الآخرة، وتوهّموا أنّهم ناجون منه، لأنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّهم لن تمسّهم النّار إلاّ أياماً معدودة.

فمن بديع إيجاز القرآن أن أومأ إلى سوء اعتقادهم في جزاء الآخرة وأنّهم نبذوا الفكرة فيه ظهرياً وأنّهم لا يراقبون الله في ارتكاب القبائح، وإلى سوء غفلتهم عن فتنة الدّنيا وأنّهم ضالّون في كلا الأمرين.

ودلّ قوله: {وحَسبوا أن لا تكون فتنة} على أنّهم لو لم يحسبوا ذلك لارتدعوا، لأنّهم كانوا أحرص عَلى سلامة الدّنيا منهم على السلامة في الآخرة لانحطاط إيمانهم وضعف يقينهم. وهذا شأن الأمم إذا تطرّق إليها الخِذلان أن يفسد اعتقادهم ويختلط

إيمانهم ويصير همّهم مقصوراً على تدبير عاجلتهم، فإذا ظنّوا استقامة العاجلة أغمضوا أعينهم عن الآخرة، فتطلّبوا السلامة من غير أسبابها، فأضاعوا الفوز الأبدي وتعلّقوا بالفوز العاجل فأساؤوا العمل فأصابهم العذابان العاجلُ بالفتنة والآجلُ.

واستعير {عَمُوا وصَمُّوا} للإعراض عن دلائل الرشاد من رسلهم وكتبهم لأنّ العمى والصمم يوقعان في الضلال عن الطريق وانعدام استفادة ما ينفع. فالجمع بين العمى والصمم جمع في الاستعارة بين أصناف حرمان الانتفاع بأفضلِ نافع، فإذا حصل الإعراض عن ذلك غلب الهوى على النّفوس، لأنّ الانسياق إليه في الجبلّة، فتجنّبه محتاج إلى الوازع، فإذا انعدم الوازع جاء سوء الفعل، ولذلك كان قوله: (فعموا وصمّوا) مراداً منه معناه الكنائي أيضاً، وهو أنّهم أساءوا الأعمال وأفسدوا، فلذلك استقام أن يعطف عليه قوله (ثُمّ تاب الله عليهم). وقد تأكّد هذا المراد بقوله في تذييل الآية (والله بصير بما يعملون).

{ثُمّ تاب الله عليهم} أي بعد ذلك الضّلال والإعْراض عن الرّشد وما أعقبه من سوء العمل والفساد في الأرض.

وقد استفيد من قوله: (أن لا تكون فتنة) وقوله: (ثُمّ تاب الله عليهم) أنّهم قد أصابتهم الفتنة بعد ذلك العمى والصمم وما نشأ عنها عقوبة لهم، وأنّ الله لمّا تاب عليهم رفع عنهم الفتنة، (ثم عَمُوا وصموا)، أي عادوا إلى ضلالهم القديم وعملهم الذّميم، لأنّهم مصرّون على حُسبان أن لا تكون فتنة فأصابتهم فتنة أخرى. وقد وقف الكلام عند هذا العمى والصمم الثّاني ولم يُذكر أنّ الله تاب عليهم بعده، فدلّ على أنّهم أعرضوا عن الحَقّ إعراضاً شديداً مرّة ثانية فأصابتهم فتنة لم يتب الله عليهم بعدها).

٢- ((فتنة عبادة العجل))، قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ [١٥٢] وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٥٣] وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ [١٥٤] وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ١٥٥﴾ الأعراف.

٣- وقال تعالى:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَامُوسَى [٨٣] قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى [٨٤] قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ [٨٥] فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي [٨٦] قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [٨٧] فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ [٨٨] أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا [٨٩] وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي [٩٠] قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ٩١﴾ طه.

ملخص القصة:

ذهب رسول الله موسى ﷺ إلى الميقات الأول الذي واعده فيه ربه سبحانه وتعالى، وكان أربعين ليلة، وفيه أنزلت الألواح عليه وفيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وكان أخلف مكانه على بني اسرائيل أخاه هارون ﷺ.

في هذه الأثناء؛ اتخذ بنو اسرائيل من ذهبهم عجلاً صنعوه ليعبدوه من دون الله تعالى، بعدما أضلهم السامري، فكانت فتنة من الله تعالى لهم بعدما نجاهم من فرعون وجنده وشق لهم البحر وأغرق فرعون وجنده.

وعندما عاد موسى ﷺ إلى قوم ورأى ما صنعوه، غضب غضبة شديدة لله عز وجل، حتى أنه ألقى الألواح ووبخهم على صنيعهم توبيخا شديد اللهجة، فقال لهم: لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى الله واقتلوا أنفسكم لكي يتوب عليكم، وقال لهم:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي(86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ)، قال ﷺ: **(يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا من بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح)**. رواه ابن أبي حاتم.

وكان هارون ﷺ قد نهاهم عن ذلك وحذرهم مما يصنعون، وقال لهم: إنما هذا فتنة لكم، وإنما ربكم هو الله الرحمن، فاتبعوني فيما آمركم به، فقالوا: لا نترك عبادته حتى يرجع موسى عليه السلام ونسمع منه كلامه.

فاختار موسى ﷺ سبعين رجلا – كما أمره ربه تعالى – ليذهبوا معه فيعتذرون من ربهم على سوء صنيعهم في عبادة العجل، وهذا هو الميقات الثاني، ولما وصلوا إلى ذلك المكان طغوا وبغوا فقالوا لموسى ﷺ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعة وهم ينظرون، فماتوا، فدعا موسى ربه جل وعلا وقال إني إذا رجعت إلى قومي فسيسألونني عن السبعين رجلا الذين جاؤوا معي ليعتذروا إليك، وقد يتهمونني بإهلاكهم، فأوحى الله إليه أن هؤلاء ممن عبدوا العجل مع قومهم بدل أن ينهونهم عن ذلك، فقال موسى: ﴿**قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِين ١٥٥**﴾ الأعراف.

فأحياهم الله ليستوفوا آجالهم بعد أن ذاقوا الموت عقوبة لهم على شنيع أعمالهم، **(ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)** البقرة ٥٦، قال تعالى: **(قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون)**.

فتن اليهود بين الماضي والحاضر:

لقد اهتم القرآن الكريم في الحديث عن فتن الأمم السابقة وأحوالها، وأولى أهمية كبرى للحديث عن فتن بني اسرائيل خاصة واليهود عامة، فتحدث عن سيرتهم مع أنبيائهم منذ زمن يعقوب ويوسف وموسى عليهم الصلاة والسلام، إلى زمن زكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فأنصف المؤمنين منهم ممن اتبع الأنبياء، وبين فساد المفسدين منهم وقتلهم الأنبياء، وكشف عن تحريفهم للتوراة والإفساد في الأرض واتباعهم الحيل والمكر والدسائس ونبذ المواثيق.

وقد تكرر في القرآن اسم بني اسرائيل في (٤١) مرة، واسم اليهود في (١٦) مرة، واسم التوراة في (١٨) مرة، كما تكرر اسم موسى عليه الصلاة والسلام (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة، حتى قال بعض السلف: كاد القرآن أن يكون كله موسى.

وما هذا العدد في ذكر أحوال بني اسرائيل إلا ليحذر الأمة الإسلامية من شرورهم وإفسادهم ومكرهم، ويشرح لنا كيف أنهم كانوا ينكثون العهود والمواثيق حتى مع الخالق سبحانه وتعالى، فلا عهد لهم ولا أمان.

وقد لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى دور بني اسرائيل في الأرض حتى نزول المسيح عليه السلام، محذرا من أفعالهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ المائدة: ٦٤

وقال تعالى: **(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا)** المائدة: ٨٢

كما يحدثنا القرآن عن انتظار بني اسرائيل للبعثة النبوية التي بشرهم بها الأنبياء من قبل، وأنهم عندما بعث صلى الله عليه وسلم، كفروا به، وتربصوا به وبأمته العداء والمكر، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) البقرة: ٨٩، كما تحدثنا السيرة النبوية عن محاولات اليهود لقتل النبي المصطفى ﷺ، أكثر من مرة، وكانت المحاولة الأولى منذ طفولته، فقد روى ابن سعد في الطبقات بسنده إلى إسحاق بن عبد الله أن أم النبي ﷺ لما دفعته إلى مرضعته حليمة السعدية، قالت لها: احفظي ابني وأخبرتها بما رأت حين ولادته. فمرت باليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا، فإني حملته كذا ووضعته كذا ورأيت كذا، كما

وصفت أمه. قال: فقال بعضهم لبعض اقتلوه. فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت: لا، هذا أبوه وأنا أمه. فقالوا: لو كان يتيما لقتلناه. قال: فذهبت به حليمة وقالت: كدت أخرب أمانتي. وهو حديث مرسل ورجاله ثقات. وأما محاولاتهم التالية فسنأتي على ذكرها بعد قليل إن شاء الله.

وبعد الهجرة النبوية وبداية الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، حيث كان اليهود يستوطنون حول المدينة وفي خيبر، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة معهم، وكان مما جاء فيها: (وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه المعاهدة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه ما كان بين أهل هذه المعاهدة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى رسول الله محمد ﷺ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم)، إلى آخر بنود هذه المعاهدة، والتي ذكرت أهم بنودها لنتعرف على كيفية غدر اليهود، وخيانتهم لهذه المعاهدة، وما نتج عن ذلك من قبائل اليهود وأهمها: بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة.

أما بنو قينقاع؛ فقد كانوا أول من نكث المعاهدة وغدروا بالمسلمين، فحيث أنهم يسكنون داخل المدينة المنورة، وكان لهم سوق فيها، وكانوا أصحاب حرف وصناعة، ومنهم الصاغة والحدادين وصناع الأواني، فقد روى ابن هشام في سيرته، أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها وهي غافلة، فلما قامت سقط الثوب عنها، فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديا، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين قينقاع.

وعندها قام رسول الله ﷺ بإعلان الحرب عليهم، وأعطى لواء الجيش لحمزة رضي الله عنه، فتحصن اليهود في حصونهم، وحاصرهم المسلمون خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتدخل رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، وقد كانوا حلفاءه، فعفا عن قتلهم النبي ﷺ فنفاهم إلى بلاد الشام.

وأما بنو النضير، فقد حاولوا قتل النبي ﷺ، فبعد أن رأوا مصير بني قينقاع، زاد حقدهم على رسول الله ﷺ، وعلى المسلمين، فكشفوا عن حقيقتهم بالغدر والخيانة، وأخذوا بمراسلة المشركين في مكة وتحريضهم عليهم.

قال ابن إسحاق: ...خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية، للعهد الذي كان ﷺ أعطاهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف، فلما أتاهم ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريحنا منه؟

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم: أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم. فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به.

فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة إلى بني النضير يأمرهم بالخروج من المدينة، وأمهلهم عشرة أيام، فأذعن اليهود لذلك وأخذوا ينتهزون للخروج، حتى تدخل ثانية رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول، فراسلهم أن اثبتوا وتحصنوا، ووعدهم بألفي مقاتل سيساعدونهم في حربهم، فقبلوا منه ذلك وأعلن رئيسهم حيي بن أخطب عن عدم الخروج، ولما بلغ ذلك النبي ﷺ كبر وكبر أصحابه، وسار إليهم، وأعطى الراية لعلي رضي الله عنه.

فتحصن بنو النضير في حصونهم ونخيلهم، وقاموا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة، على أمل أن ينجدهم ابن سلول ويهود بني قريظة، ولكنهم اعتزلوهم ولم يشتركوا معهم في حربهم، فدام الحصار ست ليال حتى استسلموا، بعد أن قذف الله في قلوبهم الرعب، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أنهم يريدون الاستسلام وتسليم سلاحهم والخروج من حصونهم، فأمرهم أن يخرجوا بنفوسهم وذراريهم وما تحمله إبلهم من متاع من غير السلاح، فوافقوا على ذلك مرغمين أذلاء، وقاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم، حتى أنهم حملوا الأبواب والشبابيك وما استطاعوا من جذوع السقف، وخرجوا في ستمائة بعير، مبتعدين عن المدينة.

ولكنهم مع خروجهم هذا، لم يستكينوا ولم يستسلموا لما أصابهم من ذل نتيجة خيانتهم ومحاولتهم اغتيال رسول الله ﷺ، بل قاموا بالتخطيط للانتقام، والتآمر على إشعال فتيل حرب جديدة مع المسلمين، فبدؤوا بمراسلة المشركين وقبائل الأعراب يحرضونهم على قتال المسلمين

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (.. إنه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني

النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

فقالت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه.

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله فيهم: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرا ﴾** النساء: ٥١ -٥٢

فلما قالوا ذلك لقريش سرهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له، ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب النبي ﷺ، وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك واجتمعوا معهم فيه.

فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة المري في بني مرة، ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان فيمن تابعه من قومه من أشجع).

وبينما المشركون يأخذون أماكنهم حول المدينة، انفتل حيي بن أخطب كبير مجرمي بني النضير، للقاء كعب بن أسد القرظي، رئيس بني قريظة، يحرضه على نكث المعاهدة مع المسلمين والاشتراك بالحرب ضدهم مع الأحزاب، فتمنع في البداية، ولم

يزل به حيي ووعده بالنصر والمصير المشترك حتى أقنعه، فنقض عهده مع رسول الله ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، وتأكد من خيانة بني قريظة، ضرب الخندق على المدينة، واستمر حصار المدينة نحو شهر.

في هذه الأثناء أسلم رجل من غطفان يقال له نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه، فجاء إلى رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، فقال له رسول الله: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة.

وكان لنعيم دورٌ بارزٌ في دب الفرقة والخلاف بين قادة الأحزاب، فقد بدأ ببني قريظة التي كان عشيرا لهم في الجاهلية، فأخبرهم أنه جاء ناصحاً لهم، وذكر لهم أنكم من أهل هذه المنطقة التي فيها أموالكم وأهلوكم، وما مشركو قريش وغطفان إلا قادمون من أرضهم التي فيها أموالهم وأهليهم بعيدا عن أرض القتال، فإن انهزمتم فسيرجعون إلى بلادهم وأهلهم وأموالهم ويدعوكم لقدركم مع المسلمين، فينتقمون منكم، فسألوه ما العمل؟ فاقترح عليهم أن يطلبوا من المشركين رهائن حتى يأمنوا غدرهم، فأعجبهم هذا الرأي.

ثم توجه نعيم إلى قريش ليكمل خطته، فقال لهم إن اليهود قد ندموا على اشتراكهم في هذه الغزوة، وأنهم راسلوا رسول الله ﷺ ووعدوه بأن يأخذوا منكم رهائن ليسلموهم له ليثبتوا صدق ندمهم وحسن استسلامهم.

وفي اليوم التالي، وكان يوم سبت، أخبر اليهود المشركين أنهم لا يقاتلون في هذا اليوم، وأنهم لن يقاتلوا معهم حتى يبعثوا لهم رهائن منهم، فرفض المشركون ذلك وطلبوا منهم البدء بالقتال، فرفض اليهود، ودب الخلاف بينهم، وخارت العزائم.

ودعا المسلمون الله أن ينصرهم على الأحزاب، فقد كانوا نحو عشرة آلاف مقاتل، أي يزيد عددهم على جميع المسلمين بمن فيهم الأطفال والنساء، وكانت بنو قريظة في داخل الخندق في المدينة، وكان القتال لو وقع بينهم لنال المسلمون أذى كبيرٌ.

وبعد أن صبر المسلمون نحو شهر وهم يتضرعون إلى الله أن ينصرهم، أرسل الله جندا من الريح خلعت خيام الأحزاب وقذف الله في قلوبهم الرعب، ودب الخلاف بينهم كما ذكرنا آنفا، فما كان منهم إلا أن انهزموا وتركوا أماكنهم راحلين، فكفى الله المسلمين شر القتال، واستجاب لتضرعهم، فصدق وعده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده سبحانه لا إله إلا هو القادر على كل شيء.

فخابت مخططات بني النضير وبني قريظة، وجنوا على أنفسهم بسوء صنعهم سوء العاقبة بما كادوا ومكروا، وبخيانتهم العهود ونكثهم للمواثيق، فاستحقوا أقسى أنواع العقاب.

فبعد أن انهزمت الأحزاب، نزل جبريل عليه السلام يخبر النبي ﷺ أن يقاتل بني النضير، فقام المسلمون بتلبية النبي، وفرضوا حصارا على بني قريظة، حتى رضخوا لحكم نبي الله ﷺ، فقام الأوس يستعطفون رسول الله أن يخفف عنهم، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ فقالوا: بلى، فقال فذاك إلى سعد بن معاذ، فقالوا: قد رضينا.

وكان بنو النضير وزعيمهم حيي بن أخطب مع بني قريظة في حصنهم، ولما جاء سعد رضي الله عنه قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: **(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)**.

فكان حكما عادلا، لما ارتكبوا من خيانة وغدر ونكث للمعاهدة، ومحاولتهم للقضاء على الإسلام وقتل المسلمين وإبادتهم من الوجود، فاستحقوا عاقبة أفعالهم.

هذا هو التاريخ الأسود لليهود في الماضي، غدر ودسائس وإفساد بين الناس، ولم يختلف تاريخهم الماضي عن تاريخهم المعاصر، في أساليبهم ذاتها، في الإفساد والغدر والمكر والخيانة، إلا أنها اتخذت صورا أوسع بكثير من ذي قبل، بما يتناسب مع أدوات العصر الحديثة، التي جعلت العالم قرية صغيرة، يحكمه نظام اقتصادي وسياسي وإعلامي، ومؤسسات وهيئات وعلاقات دولية، كان لليهود اليد الأطول في صناعتها ثم التحكم فيها، وتسييرها وفق أجنداتهم ومصالحهم، فسعوا في الأرض فسادا، يشعلون الحروب الكبرى، ويثيرون الدول على بعضها البعض، وهذا باعترافات كبرائهم وزعاماتهم، على مرأى ومسمع من العالم.

أما في العصر الحديث:

كشف صاحب كتاب "أحجار على رقعة الشطرنج" في عام ١٩٥٠ الكاتب والباحث الكندي وليم جاي كار (١٨٥٩، ١٩٥٩)، كشف عن خطط اليهود النورانيين في نشر الإفساد والفتن وإشعال الحروب في العالم، وتحدث عن عائلة روتشيلد المعروفة، والتي تملك أهم البنوك المركزية العالمية، والبنك الفيدرالي الأمريكي، والتي تملك ٨٠ ٪ من ثروات العالم. وعن دورها في تمويل الحربين العالميتين، والمسئولة عن افتعال الأزمات الاقتصادية والسياسية في العالم.

كما تحدث وليم كار عن مخطط "آدم وايزهاويت" للسيطرة على العالم، من خلال استباحة المحرمات في شراء ذمم بعض الشخصيات، عن طريق تقديم الرشاوي وتوريطهم في الفواحش، ثم دعمهم لتولي المراكز المهمة في الحكومات العالمية، حتى يكونوا أداة لهم وعونا في تنفيذ المخططات والدسائس. بالإضافة إلى

تعيين أساتذة من طرفهم في كبرى الجامعات والمعاهد العلمية، لبث الأفكار الخاصة بهم واختيار الطلاب المتفوقين وضمهم إلى جماعتهم.

وكذلك تدريب طواقم من الشباب لكي يتم استغلالهم في الوظائف الحساسة بصفة خبراء واختصاصيين، يكون دورهم تدمير القيم الأخلاقية وتشويه الدين في المجتمعات والأفراد.

كما كشف عن مخططاتهم في الاستيلاء على الإعلام العالمي، لترويج ما يساعدهم على إنجاح دسائسهم في الإفساد ونشر الرذائل.

وكان من أهم المخططات أن يقوموا بتغيير الخارطة السياسية العالمية بالقضاء على أقوى دولتين في العالم في وقتها، لإعادة تصنيع سياساتها بما يخدم مصالح اليهود، بريطانيا وفرنسا، حيث كان اليهود منبوذين في هذه الدول.

فكانت الخطة تقوم على تحريض بريطانيا على المزيد من الحروب الاستعمارية بهدف إنهاكها، وإدخال فرنسا في ثورة كبرى بهدف السيطرة على نظامها الجديد.

ولما كان أسلوب اليهود في صناعة التفرقة وتمزيق الشعوب منذ القدم، هو ذاته لا يتغير، إلا من حيث استخدام الأدوات المناسبة لكل عصر، فقد كانت الخطة السبئية التي قام بها الدجال الخبيث عبدالله بن سبأ في القرن الهجري الأول، والمبنية على تزوير الحقائق وتقسيم الديانات إلى مذاهب متعارضة ومتقاتلة، فقد بث في بعض الأعراب والجهلة أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو بمقام نبي بعد رسول الله ﷺ، مستدلا بحديث (أنت مني كهارون من موسى) دون أن يكمل: (غير أنه لا نبي بعدي)، ثم بث في جماعة أخرى أن علي هو الله - سبحانه وتعالى - مستدلاً بأنه حرق بعض الزنادقة وأن هذا النوع من العقوبات لا يحق إلا لله تعالى تحقيقا لقوله صلى الله

عليه وسلم: (لا يحرق بالنار إلا رب النار)، كما استدل بقوله تعالى: (إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) النساء:٣٤، ثم أقنع ابن سبأ جماعة ثالثة بأن علي رضي الله عنه هو أحق بالرسالة وخرج بمقولة (تاه الأمين) عن جبريل عليه السلام.

ثم قام اللعين ببث الفتن والتفرقة بين هذه الجماعات وبين المسلمين، حتى ظهرت الفرق الباطلة في وقتها، والتي لاتزال بعض هذه الأفكار تشكل عقائد لبعض الناس.

وعودة إلى اليهود في كتاب وليم كار، حيث كشف عن المبدأ ذاته لليهود، فقد كانت من مخططاتهم لنشر الفوضى العالمية والحروب الكبرى، انشاء ثلاث أنظمة سياسية مختلفة ومتناقضة في مبادئها: النظام الشيوعي القائم على مبادئ الاشتراكية، والنظام النازي القائم على الشمولية والاستبداد، والنظام الصهيوني السياسي القائم على الدسائس والإفساد.

وكان الهدف من إنشاء هذه الأنظمة هو إتاحة الفرصة للنورانيين للقضاء على حكم القياصرة في روسيا، واستبداله بنظام اشتراكي شيوعي إلحادي، قائم على محاربة الدين والأخلاق، وداعيا إلى الحرية والانحلال.

وتم التمهيد لهذه الحرب باستغلال الخلافات بين الامبراطوريتين البريطانية والألمانية، والتي ولدها بالأصل عملاء النورانيين في هاتين الدولتين، وجاء بعد انتهاء الحرب بناء الشيوعية كمذهب واستخدامها لتدمير الحكومات الأخرى واضعاف الأديان

أما الحرب العالمية الثانية، فقد مهدت لها الخلافات بين الفاشستيين والحركة الصهيونية السياسية، لتنتهي بتدمير النازية وازدياد سلطان الصهيونية السياسية، حتى تتمكن أخيرا من إقامة دولة يهودية في فلسطين.

وبهذه المخططات الخبيثة، التي قامت على العديد من المجازر والحروب، وخلفت وراءها الملايين من القتلى والمرضى والمفقودين والمهجرين، فضلا عن دمار بلاد كثيرة وانهيارات اقتصادية في العالم، فلا يهتم اليهود إلى كل هذا، بل جل اهتمامهم الوصول إلى هدفهم ومصلحتهم العليا في احتلال الأرض المقدسة، والقضاء على الإسلام، ولو على حساب دمار العالم.

قال بن غوريون: (نحن لا نخشى الاشتراكيات ولا الثوريات، ولا الديمقراطيات في المنطقة، نحن فقط نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلاً وبدأ يتململ). / معركة الوجود بين القرآن والتلمود.

وقال شامير في حفل استقبال اليهود السوفييت المهاجرين إلى إسرائيل: (إن إسرائيل الكبرى من البحر إلى النهر هي عقيدتي وحلمي شخصياً، وبدون هذا الكيان لن تكتمل الهجرة ولا الصعود إلى أرض الميعاد ولن يتحقق أمر الإسرائيليين ولا سلامتهم)./ المصدر السابق.

وقال مناحيم بيجن: (أنتم أيها الإسرائيليون لا يجب أن تشعروا بالشفقة حتى تقضوا على عدوكم ولا عطف ولا رثاء حتى تنتهوا من إبادة ما يسمى بالحضارة الإسلامية التي سنبني على أنقاضها حضارتنا)./ صراعنا مع اليهود.

ولا تتوقف أطماعهم عند حدود فلسطين، بل تتعداها إلى حيث يحلمون، فعندما سئل بن غوريون عن حدود دولة اسرائيل المحتلة أين تقف؟ قال: (إن الجيش

الاسرائيلي هو أفضل مفسر للتوراة، فحيثما توقفت أحذية الجيش الاسرائيلي فثمة حدود اسرائيل).

وفي خطاب ألقاه بن غوريون بمناسبة إعلان قيام الدولة اليهودية على القسم الذي تمت سيطرة اليهود عليه من أرض فلسطين عام ١٩٤٨ م، قال:

(أما السيف الذي أعدناه إلى غمده، فإنه لم يعد إلا مؤقتا، إننا سنستله حين تتهدد حريتنا في وطننا وحينما تتهدد رؤى أنبياء التوراة، فالشعب اليهودي بأسره سيعود إلى الاستيطان في أرض الآباء والأجداد الممتدة من النيل إلى الفرات).

وعن الطريقة التي يُفكرون بها، ففي عام ١٩٣٤م طبع كتاب بمصر بعنوان " يقظة العالم اليهودي " من تأليف اليهودي (إيلي ليفي أبو عسل) يحدد فيه تاريخ الحركة الصهيونية بما يلي: (إذا أمعنا النظر جيداً نرى أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعة أزمنة مختلفة: الأول: زمن التوراة، والثاني: الزمن السابق لهيرتزل، والثالث: الزمن المعاصر لهرتزل، والذي يبتدئ من سنة ١٩٠٤ م إلى سنة ١٩١٨م، والرابع: الزمن التالي لتصريح بلفور. ويؤكد ــ حسب زعمه ــ أن موسى عليه السلام، كان أول من شيد صرح الصهيونية ووطد دعائمها ونشر مبادئها السياسية، وحاشا لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ان يكون كما يفترون عليه. يقظة العالم اليهودي.

وفي نكسة يونيو ١٩٦٧ م أتم اليهود احتلال المدينة المقدسة (القدس) باستيلائهم على القدس الشرقية، ولم يدخلها وزير الحرب آنذاك "موشيه ديان" إلا في أعقاب دخول الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي "شلومو غورين" حيث أدوا صلاة الشكر عند حائط البراق الشريف، وكانت الهتافات المسجلة وقتها: (يا لثارات خيبر) تشق عنان السماء، وهنا قال ديان: (اليوم فتحت الطريق إلى بابل ويثرب).

وهذه اعترافاتهم وتصريحاتهم بأفواههم، يقول المليونير اليهودي راثنو: (هناك ٣٠٠ رجل كل منهم يعرف زملاءه الآخرين، يتحكمون في مصير أوروبا، انهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم، وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أي حكومة لا يرضون عنها). / من جريدة ذ وينر برس الألمانية ٢٥ – ١٢ – ١٩٠٩.

وقال الحاخام Riechon في اجتماع سري لليهود على قبر قديسهم سيمون بن يهودا في براغ سنة ١٨٦٩: (لقد وكل آباؤنا للنخبة من قادة يهودا أمر الاجتماع مرة على الأقل في كل قرن، حول قبر استاذنا الأعظم الرابي المقدس سيمون بن يهودا الذي تعطى تعاليمه للصفوة من كل جيل سيطرة على جميع العالم وسلطة على نسل يهوذا). من مجلة Cantemporain سنة ١ – ٧ – ١٨٨٠.

فتنة فرعون

قال تعالى:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [٨٣] وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ [٨٤] فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [٨٥] وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ٨٦﴾ يونس.

التفسير:

فلم يؤمن لموسى عليه السلام، مع ما أتاهم به من الحجج والأدلّة إلا القليل من قومه خائفين من فرعون وملئهم. وقال مجاهد: أولاد الذين أرسل إليهم من طول الزمان، ومات آباؤهم. ونحوه قال الأعمش.

وقال ابن عباس مرة: كانت الذرية التي آمنت لموسى من أناس غير بني إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. وقال مرة: بني إسرائيل.

قال الطبري: وأولى هذه الأقوال عندي بتأويل الآية، القولُ الذي ذكرته عن مجاهد، وهو أن "الذرية" في هذا الموضع أريد بها ذُرّية من أرسل إليه موسى من بني إسرائيل، فهلكوا قبل أن يقرُّوا بنبوته لطول الزمان، فأدركت ذريّتهم، فآمن منهم من ذكر الله بموسى. وإنما قلت: "هذا القولُ أولى بالصواب في ذلك"، لأنه لم يجر في هذه الآية ذكرٌ لغير موسى، فَلأن تكون "الهاء"، في قوله: "من قومه"، من ذكر موسى لقربها من ذكره، أولى من أن تكون من ذكر فرعون، لبعد ذكره منها، إذ لم يكن بخلاف ذلك دليلٌ، من خبرٍ ولا نظرٍ.

وبعدُ، فإن في قوله: (على خوف من فرعون وملئهم)، الدليل الواضح على أن الهاء في قوله: (إلا ذرية من قومه)، من ذكر موسى، لا من ذكر فرعون، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام: "على خوف منه"، ولم يكن (على خوف من فرعون).

(على خوف من فرعون): فإنه يعني على حال خوف ممن آمن من ذرية قوم موسى بموسى، فتأويل الكلام: فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، من بني إسرائيل، وهم خائفون من فرعون وملئهم أن يفتنوهم.

(وملئهم): فإن "الملأ ": الأشراف. وتأويل الكلام: على خوف من فرعون ومن أشرافهم.

قال الطبري: وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: "الهاء والميم" عائدتان على "الذرية". ووجَّه معنى الكلام إلى أنه: على خوف من فرعون، وملأ الذرية، لأنه كان في ذرية القرن الذين أرسل إليهم موسى من كان أبوه قبطيًا وأمه إسرائيلية. فمن كان كذلك منهم، كان مع فرعون على موسى.

(أن يفتنهم): كان إيمان من آمن من ذرية قوم موسى على خوف من فرعون، "أن يفتنهم" بالعذاب، فيصدّهم عن دينهم، ويحملهم على الرجوع عن إيمانهم والكفر بالله.

وقال: (أن يفتنهم)، فوحَّد ولم يقل: "أن يفتنوهم"، لدليل الخبر عن فرعون بذلك: أن قومه كانوا على مثل ما كان عليه، لما قد تقدم من قوله: (على خوف من فرعون وملئهم).

(وإن فرعون لعال في الأرض): وإن فرعون لجبّارٌ مستكبر على الله في أرضه، "وإنه لمن المسرفين"، وإنه لمن المتجاوزين الحقّ إلى الباطل، وذلك كفره بالله وتركه الإيمان به، وجحودُه وحدانية الله، وادّعاؤه لنفسه الألوهية، وسفكه الدماء بغير حِلِّها.

- **فتنة الفراعنة بين الماضي والحاضر**:

في هذه الآية الكريمة ثلاثة نماذج من الناس:

الأول: هو الملك المتجبر الطاغي، ويمثله فرعون.

والثاني: هو القدوة المصلح؛ ويمثله كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام.

والثالث: هو التابع للرجل المصلح من جيل الشباب الواعي.

وهكذا هم الفراعنة المستكبرون في كل زمان، يخشون على أنفسهم وعلى عروشهم من دعاة الحق، فيستعملون معهم القوة والبطش والتنكيل، ليفتنوهم عن دينهم وعن كلمة الحق، ولهذا قال ﷺ: (**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه، فقتله**). رواه الحاكم وصححه.

وهكذا هم الشباب الواعي، إنهم أمل التغيير وعدة المستقبل، عندما يؤمنون بالحق ويتخذونه عقيدتهم التي يعملون لأجلها.

وهكذا هم المصلحون، يرشدون الناس للخير ولا يتخلون عنهم، ويثبتونهم بالإيمان وحسن التوكل على الله تعالى، فخاطبهم بتودد يذكرهم أنهم من قومه ويعلمهم: (وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ)، فاستجابوا له (فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

قوم ثمود

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ [٤٥] قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [٤٦] قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧ ﴾ النمل.

كانت ثمود من العرب، وكان التطير من أوهام العرب في الجاهلية، فينسبون الخير والشر إلى الطير، وهذا بلا شك معتقد فاسد وباطل، منشؤه من الشيطان، فبعث الله رسوله صالحاً ﷺ، ليهدم العقائد الفاسدة عند ثمود، كما بعث رسوله محمداً ﷺ ليهدم جميع المعتقدات الفاسدة عند جميع الناس وهدى ورحمة للعالمين.

التفسير:

(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) وحده لا شريك له، ولا تجعلوا معه إلها غيره.

(فإذا هم فريقان يختصمون) يقول: فلما أتاهم صالح داعيا لهم إلى الله صار قومه من ثمود فيما دعاهم إليه فريقين يختصمون، ففريق مصدق صالحا مؤمن به، وفريق مكذب به كافر بما جاء به.

قال مجاهد: مؤمن وكافر، قولهم: صالح مرسل، وقولهم: صالح ليس بمرسل، ويعني بقوله (يختصمون) يختلفون.

(قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة): قال صالح لقومه: يا قوم لأي شيء تستعجلون بعذاب الله قبل الرحمة.

قال مجاهد: السيئة: العذاب، قبل الحسنة: قبل الرحمة والعافية.

(لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون): هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم، يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة.

(لعلكم ترحمون): ليرحمكم ربكم باستغفاركم إياه من كفركم.

قالت ثمود لرسولها صالح ﷺ:

(اطيرنا بك وبمن معك): تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، والتطير هو التشاؤم، أطلق عليه التطير لأن أكثره ينشأ من الاستدلال بحركات الطير من سانح وبارح.

فأجابهم صالح ﷺ فقال لهم:

(طائركم عند الله): ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه، لا يدري أي ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب؟ وقال ابن عباس قوله: (قال طائركم عند الله): مصائبكم.

(بل أنتم قوم تفتنون): بل أنتم قوم تختبرون، يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه؟ أم تعصونه بخلافه، فيحل بكم عقابه؟

وقوله (طائركم) هو من باب المشاكلة في اللغة، فاستعير باسم الطائر مشاكلة لقولهم: اطيرنا بك وبمن معك، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح اعتقادهم، بقرينة قولهم: (اطيرنا بك).

(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون): وكان في مدينة صالح، وهي حجر ثمود، تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض، كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خص الله جل ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين، لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة، وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود.

قال ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، وقالوا حين عقروها: نبيت صالحا وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئا، وما لنا به علم، فدمرهم الله أجمعين.

(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله): قال هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في أرض حجر ثمود، ولا يصلحون: (تقاسموا بالله): تحالفوا بالله أيها القوم، ليحلف بعضكم لبعض: لنبيتن صالحا وأهله، فلنقتلنه، ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله.

قال ابن إسحاق: قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحا، فإن كان صادقا - يعني فيما وعدهم من العذاب بعد الثلاث - عجلناه قبله، وإن كان كاذبا نكون قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلا ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة. (وإنا لصادقون): ونقول لوليه: وإنا لصادقون، أنا ما شهدنا مهلك أهله.

(ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون): وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح بمسيرهم إليه ليلا ليقتلوه وأهله، وصالح لا يشعر بذلك. فأخذناهم بعقوبتنا إياهم وتعجيلنا العذاب لهم وهم لا يشعرون بمكرنا.

قال ابن زيد: قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه وأهله قبل ذلك، وكان له مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم، فبادروا الغار، فطبقت الصخرة عليهم فم ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم؟ ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله تبارك وتعالى هؤلاء ههنا، وهؤلاء هنا، وأنجى الله صالحا ومن معه.

(فانظر كيف كان عاقبة مكرهم): فانظر يا محمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر ثمود بنبيهم صالح، كيف كانت؟ وما الذي أورثها اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم؟ فإن ذلك سنتنا فيمن كذب رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فحذر قومك من قريش، أن ينالهم بتكذيبهم إياك ما نال ثمود بتكذيبهم صالحا من المثلات.

(أنا دمرناهم وقومهم أجمعين): إنا دمرنا التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض من قوم صالح وقومهم من ثمود أجمعين، فلم نبق منهم أحدا.

- **الفتنة في المنهج والعقيدة**:

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ): قال صاحب الظلال رحمه الله: (تفتنون بنعمة الله، وتختبرون بما يقع لكم من خير ومن شر؛ فاليقظة وتدبر السنن، وتتبع الحوادث والشعور بما وراءها من فتنة وابتلاء هو الكفيل بتحقيق الخير في النهاية؛ لا التشاؤم والتطير ببعض خلق الله من الطير ومن الناس سواء.

وهكذا ترد العقيدة الصحيحة الناس إلى الوضوح والاستقامة في تقدير الأمور؛ وترد قلوبهم إلى اليقظة والتدبر فيما يقع لهم أو حولهم، وتشعرهم أن يد الله وراء هذا كله، وأن ليس شيء مما يقع عبثا أو مصادفة..

وبذلك ترتفع قيمة الحياة وقيمة الناس؛ وبذلك يقضي الإنسان رحلته على هذا الكوكب غير مقطوع الصلة بالكون كله من حوله، وبخالق الكون ومدبره، وبالنواميس التي تدبر هذا الكون وتحفظه بأمر الخالق المدبر الحكيم.

ولكن هذا المنطق المستقيم إنما تستجيب له القلوب التي لم تفسد، ولم تنحرف الانحراف الذي لا رجعة منه؛ وكان من قوم صالح من كبرائهم تسعة نفر لم يبق في قلوبهم موضع للصلاح والإصلاح، فراحوا يأتمرون به، ويدبرون له ولأهله في الظلام).

فتنة قوم فرعون

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيم [١٧] أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِين [١٨] وَأَنْ لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِين [١٩] وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُون [٢٠] وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُون [٢١] فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُون [٢٢] فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُون [٢٣] وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُون ٢٤ ﴾ الدخان.

التفسير:

(ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون): ولقد اختبرنا وابتلينا يا محمد قبل مشركي قومك مثال هؤلاء قوم فرعون من القبط.

(وجاءهم رسول كريم): وجاءهم رسول من عندنا أرسلناه إليهم، وهو موسى بن عمران صلوات الله عليه.

قال قتادة: موسى عليه السلام. ووصفه جل ثناؤه بالكرم؛ لأنه كان كريما عليه، رفيعا عنده مكانه. وقد يجوز أن يكون وصفه بذلك؛ لأنه كان في قومه شريفا وسيطا.

(أن أدوا إلي عباد الله): وجاء قوم فرعون رسول من الله كريم عليه بأن ادفعوا إلي، ومعنى "أدوا": ادفعوا إلي فأرسلوا معي واتبعون، وهو نحو قوله: (أن أرسل معنا بني إسرائيل).

قال قتادة: يعني به بني إسرائيل، قال لفرعون: علام تحبس هؤلاء القوم، قوما أحرارا اتخذتهم عبيدا، خل سبيلهم.

(إني لكم رسول أمين): إني لكم أيها القوم رسول من الله أرسلني إليكم لا يدرككم بأسه على كفركم به، (أمين): على وحيه ورسالته التي أوعدنيها إليكم.

(وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين): أن لا تطغوا وتبغوا على ربكم، فتكفروا به وتعصوه، فتخالفوا أمره.

(إني آتيكم بسلطان مبين): إني آتيكم بحجة على حقيقة ما أدعوكم إليه، وبرهان على صحته، مبين لمن تأملها وتدبرها أنها حجة لي على صحة ما أقول لكم.

(وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون): وإني اعتصمت بربي وربكم، واستجرت به منكم أن ترجمون، كالرجم باللسان والشتائم والافتراء، أو الرجم باليد، أو بالقتل، أو أي مكروه.

(وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون): وإن أنتم أيها القوم لم تصدقوني على ما جئتكم به من عند ربي، فاعتزلون وخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد.

(فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون): فدعا موسى ربه إذ كذبوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤد إليه عباد الله، وهموا بقتله بأن هؤلاء، يعني فرعون وقومه:

(قوم مجرمون): أنهم مشركون بالله كافرون.

(فأسر بعبادي): وفي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه منه، وهو: فأجابه ربه بأن قال له: فأسر إذ كان الأمر كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل، وإنما معنى الكلام: فأسر بعبادي الذين صدقوك وآمنوا بك، واتبعوك دون الذين كذبوك منهم، وأبوا قبول ما جئتهم به من النصيحة منك، وكان الذين كانوا بهذه الصفة يومئذ بني إسرائيل. وقال:

(فأسر بعبادي ليلا): لأن معنى ذلك: سر بهم بليل قبل الصباح.

(إنكم متبعون):: إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم.

(واترك البحر رهوا): وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه ساكنا على حاله التي كان عليها حين دخلته. وقيل: إن الله تعالى ذكره قال لموسى هذا القول بعد ما قطع البحر ببني إسرائيل فإذ كان ذلك كذلك، ففي الكلام محذوف، وهو: فسرى موسى بعبادي ليلا وقطع بهم البحر، فقلنا له بعد ما قطعه، وأراد رد البحر إلى هيئته التي كان عليها قبل انفلاقه: اتركه رهوا.

الرهو: قيل معناه: اتركه على هيئته وحاله التي كان عليها. وقال ابن عباس: سمتا، وقال: سهلا، وقال: الرهو: أن يترك كما كان، فإنهم لن يخلصوا من ورائه.

وسأل ابن عباس كعبا فقال: طريقا. وقيل: واتركه يبسا جددا. وعن عكرمة: يابسا كهيئته بعد أن ضربه، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يدخل آخرهم. وجميع هذه الأقوال قريبة من بعضها.

(إنهم جند مغرقون): إن فرعون وقومه جند، الله مغرقهم في البحر.

قال ابن عاشور: (جعل الله قصة قوم فرعون مع موسى عليه السلام وبني اسرائيل مثلا لحال المشركين مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به، وجعل ما حل بهم إنذارا بما سيحل بالمشركين من القحط والبطشة مع تقريب حصول ذلك وإمكانه ويسره وإن كانوا في حالة قوة فإن الله قادر عليهم، كما قال تعالى: (فأهلكنا أشد منهم بطشا) فذكرها هنا تأييد للنبي ووعد له بالنصر وحسن العاقبة، وتهديد للمشركين.

وهذا المثل وإن كان تشبيها لمجموع الحالة بالحالة فهو قابل للتوزيع بأن يشبه أبو جهل بفرعون، ويشبه أتباعه بملأ فرعون وقومه أو يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بموسى عليه السلام، ويشبه المسلمون ببني إسرائيل. وقبول المثل لتوزيع التشبيه من محاسنه.

وموقع جملة (ولقد فتنا) يجوز أن يكون موقع الحال فتكون الواو للحال وهي حال من ضمير إنا منتقمون.

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة إنا منتقمون، أي منتقمون منهم في المستقبل وانتقمنا من قوم فرعون فيما مضى.

وأشعر قوله قبلهم أن أهل مكة سيفتنون كما فتن قوم فرعون، فكان هذا الظرف مؤذنا بجملة محذوفة على طريقة الإيجاز، والتقدير: إنا منتقمون ففاتنوهم فقد فتنا قبلهم قوم فرعون، ومؤذنا بأن المذكور كالدليل على توقع ذلك وإمكانه وهو إيجاز آخر. والمقصود تشبيه الحالة بالحالة ولكن عدل عن صوغ الكلام بصيغة التشبيه والتمثيل إلى صوغه بصيغة الإخبار اهتماما بالقصة وإظهارا بأنها في ذاتها مما يهم العلم به، وأنها تذكير مستقل وأنها غير تابعة غيرها.

ولأن جملة وجاءهم رسول كريم عطفت على جملة فتنا أي ولقد جاءهم رسول كريم، عطف مفصل على مجمل، وإنما جاء معطوفا إذ المذكور فيه أكثر من معنى الفتنة، فلا تكون جملة وجاءهم رسول كريم بيانا لجملة "فتنا" بل هي تفصيل لقصة بعثة موسى عليه السلام).

- **فتنة الأمم بين الحاضر والماضي**:

قال الشيخ المراغي: (بعد أن ذكر أن مشركي مكة أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسولهم، أردف هذا بيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم، فكثير قبلهم كذبوا رسلهم، فها هم أولاء قوم فرعون، قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك بعد أن أتاهم بالبينات التي كانت تدعو إلى تصديقه، فكذبوه فنصره الله عليهم وأغرق فرعون وقومه وجعلهم مثلا للآخرين).

ومازالت الدنيا؛ أمم تصعد فتفتتن فتسقط في الفتن فتزول، ثم تصعد أمم أخرى غيرها، وهكذا تدور رحى الأمم مع الفتن والاختبارات، وهكذا هي سنن الله تعالى.

فعندما نرى اليوم دولة عظمى متجبرة ظالمة، تثير الفساد والظلم في الأرض، فإننا نعلم أنه كلما زاد طغيانها وتجبرها كلما اقتربت من السقوط إلى قاع الهاوية.

وقد رأينا في زماننا امبراطوريات تكونت وتمددت، حتى قيل عنها إن الشمس لا تغيب عن أرضها، ثم زالت بقدر الله تعالى وقدرته، وظهر غيرها، ولن يكون مصيرها إلا كأخواتها، عندما يأمر جبار السماوات والأرض سبحانه.

فتنة قريش

قال تعالى:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُون (٣) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُون (٥) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُون (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِين﴾ [القلم:١-٧]

التفسير:

(والقلم): قال مجاهد: الذي كتب به الذكر.

(وما يسطرون): والذي يخطون ويكتبون. وقال الطبري: وإذا وجه التأويل إلى هذا الوجه كان القسم بالخلق وأفعالهم. وقد يحتمل الكلام معنى آخر، وهو أن يكون معناه: وسطرهم ما يسطرون، فتكون "ما" بمعنى المصدر. وإذا وجه التأويل إلى هذا الوجه، كان القسم بالكتاب، كأنه قيل: ن والقلم والكتاب.

وقال قتادة: (وما يسطرون): وما يخطون. أو وما يكتبون.

(ما أنت بنعمة ربك بمجنون): ما أنت بنعمة ربك بمجنون، مكذبا بذلك مشركي قريش الذين قالوا له: إنك مجنون.

(وإن لك لأجرا غير ممنون): وإن لك يا محمد لثوابا من الله عظيما على صبرك على أذى المشركين إياك غير منقوص ولا مقطوع، من قولهم: حبل منين، إذا كان ضعيفا، وقد ضعفت منته: إذا ضعفت قوته. وقال مجاهد: محسوب.

(وإنك لعلى خلق عظيم): وإنك يا محمد لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه. وقال ابن عباس: دين عظيم وهو الإسلام.

وقال قتادة: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن، تقول: كما هو في القرآن.

وقال: ذكر لنا أن سعيد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن.

قال ابن عاشور: (فكما جعل الله رسوله ﷺ على خلق عظيم جعل شريعته لحمل الناس على التخلق بالخلق العظيم بمنتهى الاستطاعة.

وبهذا يزداد وضوحا معنى التمكن الذي أفاده حرف الاستعلاء في قوله وإنك لعلى خلق عظيم فهو متمكن منه الخلق العظيم في نفسه، ومتمكن منه في دعوته الدينية.

واعلم أن جماع الخلق العظيم الذي هو أعلى الخلق الحسن هو التدين، ومعرفة الحقائق وحلم النفس، والعدل والصبر على المتاعب، والاعتراف للمحسن، والتواضع والزهد والعفة والعفو، والجمود والحياء والشجاعة وحسن الصمت، والتؤدة والوقار، والرحمة وحسن المعاملة والمعاشرة.

والأخلاق كامنة في النفس ومظاهرها تصرفات صاحبها في كلامه، وطلاقة وجهه، وثباته، وحكمه، وحركته وسكونه، وطعامه وشرابه، وتأديب أهله، ومن لنظره، وما يترتب على ذلك من حرمته عند الناس، وحسن الثناء عليه والسمعة.

وأما مظاهرها في رسول الله ﷺ ففي ذلك كله وفي سياسته أمته، وفيما خص به من فصاحة كلامه وجوامع كلمه). اهـ.

(فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون): فسترى يا محمد، ويرى مشركو قومك الذين يدعونك مجنونا (بأيكم المفتون).

(بأيكم المفتون): اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: تأويله: بأيكم المجنون، كأنه وجه معنى الباء في قوله: (بأيكم) إلى معنى في. وإذا وجهت الباء إلى معنى "في" كان تأويل الكلام: ويبصرون في أي الفريقين المجنون، في فريقك يا محمد أو فريقهم، ويكون المجنون اسما مرفوعا بالباء.

قال مجاهد: بأيكم المجنون. وعنه أيضا قال: أي الشيطان. وقال ابن عباس والضحاك: (بأيكم المفتون) يعني الجنون. وقال قتادة: بأيكم أولى بالشيطان.

وقال الزمخشري في الكشاف: (المفتون): المجنون، لأنه فتن: أي محن بالجنون. أو لأن العرب يزعمون أنه من تخبيل الجن، وهم الفتان للفتاك منهم، والباء مزيدة. أو المفتون مصدر كالمعقول والمجلود، أي: بأيكم الجنون، أو بأي الفريقين منكم الجنون، أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيهما يوجد من يستحق هذا الاسم: وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما، وهذا كقوله تعالى: (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) القمر: ٢٦.

وقال القاسمي في تفسيره: (بأييكم المفتون) أي: المجنون. أي: من كوشف بأسرار العلوم وأوتي جوامع الكلم، أم من حجب عما في نفسه من آيات الله والعبر وفتن بعبادة الصنم؟!

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله): إن ربك يا محمد هو أعلم بمن ضل عن سبيله، كضلال كفار قريش عن دين الله، وطريق الهدى.

(وهو أعلم بالمهتدين): وهو أعلم بمن اهتدى، فاتبع الحق، وأقر به، كما اهتديت أنت فاتبعت الحق، وهذا من معاريض الكلام. وإنما معنى الكلام: إن ربك هو أعلم يا محمد بك، وأنت المهتدي، وبقومك من كفار قريش وأنهم الضالون عن سبيل الحق.

الفصل الخامس

فتن الأنبياء

وفيه:

١ - فتنة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام.

٢ - فتنة نبي الله داود عليه الصلاة والسلام.

٣ - فتنة نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام.

فتنة نبي الله موسى ﷺ.

قال تعالى:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَامُوسَى﴾ [طه:٤٠]

وهي في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِين [١٤] وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِين [١٥] قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم [١٦] قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِين [١٧] فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِين [١٨] فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِين [١٩] وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِين [٢٠] فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين ٢١﴾ القصص.

التفسير:

قال ابن كثير في تفسيره: (وفتناك فتونا) قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، رحمه الله، في كتاب التفسير من سننه، قول:

(حديث الفتون: وبسنده عن سعيد بن جبير قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: (وفتناك فتونا) فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثا طويلا. فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكا، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار، يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون – يا بن جبير – ما دخل عليه في بطن أمه، مما يراد به، فأوحى الله جل ذكره إليها أن {**لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**} القصص: ٧.

فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت بابني؟ لو ذبح عندي فواريته وكفنته، كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جواري امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن إن في هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى رفعنه إليها.

فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقي عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا بن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل حتى آتي فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألمكم.

فأتت فرعون فقالت: (قرة عين لي ولك) القصص: ٩، فقال فرعون: يكون لك، فأما لي فلا حاجة لي فيه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته، لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك". فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والها، فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرا، أحي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون - والجنب: أن يسمو بصر

الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه وهو لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا بن جبير. فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها فمصه، حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئا حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي، فيكون معي لا آلوه خيرا؛ فعلت، وإلا فإني غير تاركة بيتي وولدي. وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتا حسنا وحفظه لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني ابني؟ فوعدتها يوما تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك وأنا باعثة أمينا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل والكرامة تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته، وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك،

فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يا بن جبير بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به.

فجاءت امرأة فرعون فقالت ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمرا يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين فاعرف أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغا فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة، إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضبا شديدا، لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: **(هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين)** القصص: ١٥، ثم قال **(رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم)** القصص: ١٦، فأصبح في المدينة خائفا يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صغوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا يجدون ثبتا، إذا بموسى من الغد قد

رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلا من آل فرعون آخر. فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم: **{إنك لغوي مبين}** فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني فخاف أن يكون بعد ما قال له: **{إنك لغوي مبين}** القصص: ١٨، أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعوني. فخاف الإسرائيلي وقال: **{يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس}** القصص: ١٩، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول: **{أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس}** فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيئتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره وذلك من الفتون يا بن جبير.

فخرج موسى متوجها نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: **{عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان}** القصص: ٢٢، ٢٣. يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟

قالتا ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيرا، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: **{رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير}** القصص: ٢٤. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا فقال: إن لكما

اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: **(لا تخف نجوت من القوم الظالمين)** القصص: ٢٥، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: **(يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين)** القصص: ٢٦، فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا؛ لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لي: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها، وظن به الذي قالت.

فقال له: هل لك **(أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين)** القصص: ٢٧، ففعل فكانت على نبي الله موسى ثماني سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشرا.

قال سعيد - وهو ابن جبير -: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدري. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله واجبة، لم يكن لنبي الله أن ينقص منها شيئا، ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التي وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يتخوف من آل فرعون في القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه

عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون، عليهما السلام. فانطلقا جميعا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا **(إنا رسولا ربك)** طه: ٤٧. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذي قص الله عليك في القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن بالله، وترسل معي بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: **(فأت بآية إن كنت من الصادقين)** الشعراء: ١٥٤، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء – يعني من غير برص – ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران **(يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)** طه: ٦٣، يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل. فما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصتي، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا في صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، **(لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين)** الشعراء: ٤٠، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى - لقدرتهم بسحرهم - **(إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين)** الأعراف : ١١٥، **(قال بل ألقوا)** طه : ٦٦، **(فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون)** الشعراء: ٤٤، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزرا إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبالا إلا ابتلعته، فلما عرفت السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله عز وجل، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون **(فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين)** الأعراف: ١١٩، وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلا فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر: إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم

التق على من بقي بعد من فرعون وأشياعه. فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصيا لله.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال: وعدني أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: **(قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون)** الأعراف: ١٣٨، ١٣٩.

قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم. ومضى، فأنزلهم موسى منزلا وقال أطيعوا هارون، فإني قد استخلفته عليكم، فإني ذاهب إلى ربي. وأجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه في ثلاثين يوما وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان، قال: يا رب، إني كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرا ثم ائتني. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك.

وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عوارٍ وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا أرى أنكم تحتسبون ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيرا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا، فقضي له أن رأى أثرا فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامري، ألا تلقي ما في يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلا أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا والله، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقا، فقالت فرقة: يا سامري ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: **﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن﴾** طه: ٩٠. قالوا فما بال موسى

وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا، هذه أربعون يوما قد مضت؟ وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، **(فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا)** طه: ٨٦، فقال لهم ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه **بعذره**، واستغفر له وانصرف إلى السامري فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها وعميت عليكم فقذفتها **(وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا)** طه: ٩٦، ٩٧، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا.

فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألو الخير خيار بني إسرائيل، ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: **(رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا)** الأعراف : ١٥٥، وفيهم من كان اطلع الله منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: **(ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل)** الأعراف: ١٥٦، ١٥٧. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومي، فقلت: إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل

رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن. وتاب أولئك الذين كان خفي على موسى وهارون واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذي أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خلقهم خلق منكر - وذكروا من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها - فقالوا: يا موسى إن فيها قوما جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون - ويقول أناس: إنهم من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: **(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)** المائدة: ٢٤، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا، وأمر موسى فضربه بعصاه.

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، في كل ناحية ثلاث أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ، وصدق ذلك عندي أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتيل الذي قتل، فقال: كيف يفشي عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك؟ فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعوني، بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره.

قال الإمام ابن كثير:

هكذا رواه الإمام النسائي في السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما كلهم من حديث يزيد بن هارون به وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضي الله عنه مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول ذلك أيضا.

فتنة نبي الله داود ﷺ

قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَاب [٢١] إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاط [٢٢] إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَاب [٢٣] قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَاب [٢٤] فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب [٢٥] يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب ٢٦﴾ ص.

التفسير:

قال ابن كثير: (قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده، لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد – وإن كان من الصالحين – لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة. فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا).

(إذ دخلوا على داود ففزع منهم): إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أي: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

(وعزني في الخطاب): غلبني يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

(وظن داود أنما فتناه) عن ابن عباس: أي اختبرناه.

(وخر راكعا): ساجدا، (وأناب): ويحتمل أنه ركع أولا ثم سجد بعد ذلك وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا.

(فغفرنا له ذلك): ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ويقول الشيخ بسام جرار: (تفسير هذه الآيات الكريمة يصلح مثالاً صارخاً على مجافاة بعض أهل التفسير لظاهر النص القرآني جرياً وراء الإسرائيليات التي ألقت بظلالها السلبيّة على أفهام الكثير من القدماء والمعاصرين. ونحن هنا نفترض أنّ القارئ على دراية بمسلك المفسرين عندما يفسرون هذه الآيات الكريمة. وما نهدف إليه في هذه العُجالة هو إلقاء الأضواء على جوانب هي في رأينا مفاتيح تساعد في فهم بعض دلالات كلام الله الحكيم.

"وهل أتاكَ نبأ الخَصْمِ إذ تسوّروا المحراب": واضح في النص الكريم أنّ المتخاصمين هم جماعة وليس فقط الأخوان، بدليل قوله تعالى: " إذ تسوّروا... إذ دخلوا"، وبدليل قولهم: "...خصمان بغى بعضُنا على بعض...". فهُم جماعة منقسمة إلى قسمين متخاصمين، وهذا يعني أنّ الإشكال لم يكن مقتصراً على الأخوين.

"إذ تسوّروا المحراب": هذه من العبارات المفتاحيّة، والتي تساعد على فهم حقيقة ما جرى؛ فهناك جماعة مضطرة أن تأتي البيوت من ظهورها، وهذا يدل على عدم إمكانية أن يدخلوا من الباب. أما ذكر المحراب فيشير إلى أنّ داود، عليه السّلام، كان قد اختلى بنفسه ليعبد الله تعالى، وقد جاء في الحديث الشريف أنّ داود، عليه السّلام، كان أعبدَ الناس.

"إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجة ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلنيها وعَزّني في الخطاب": من المستبعد أن يطمع الأخ الغنيُّ بنعجة أخيه، ولا يحصل مثل ذلك إلا في حالات شاذّة ومَرَضِيّة. والأقرب إلى ظاهر النص الكريم أنْ نقول إنّ الأخ الغني قد طلب من أخيه أن يَضُم نعجته إلى باقي النعاج لترعى معها، لأنّ ذلك أصلح لها، وأرفق به أن يجعلها مع باقي الغنم. ومثل هذا الأمر متوقع أن يكون بين الأخ وأخيه، بل هذا ما تفرضه أدنى درجات الأخوّة وصلة الرحم.

"فقال أكفلنيها": هو إذن يريد أن يجعلها في كفالته، ولا يوجد في النص الكريم ما يشير إلى أنه كان يريد أن يتعدّى على حقّ أخيه فيغصبها. ومتى كانت الكفالة في اللغة تعني الأخذ والاغتصاب؟! أمّا في القرآن الكريم فلم ترد الكفالة إلا بمعنى الحفظ والرعاية والضمانة، من مثل قوله تعالى، في حق مريم، عليها السّلام: "وكفّلها زكريا...". ويبدو أنّ الأخ الغني كان حَريصاً على مصلحة أخيه فألَحَّ عليه في طلب ضمّ النعجة إلى باقي النعاج لتكون في كفالته: "وعَزّني في الخطاب".

من هنا كانت البداية، وهي صورة تتكرر في المجتمعات الإسلاميّة؛ فأنت تجد دواعي الأخوّة تمنّع الكثيرين من اقتسام الميراث، بعد وفاة المُورِّث، مما يؤدي إلى تداخل الحقوق وتشابكها، بحيث يصعب فيما بعد الفصل في هذه الحقوق من غير إلحاق ظلم بطرف من الأطراف. وبمرور الوقت تدخل أطراف أخرى مثل الزوجات والأحفاد والأصهار وغيرهم، وتكون الشحناء والبغضاء وقطع الرحم، في حين أنّ الدوافع الأصلية كانت الرغبة في صلة الرحم.

"قال لقد ظلمَكَ بسؤالِ نعجتِكَ إلى نعاجه": نعم، هذا هو الأصل الذي ولّدَ الظُلم؛ فعندما طَلَبَ منك أن تضُمّ نعجتك إلى نعاجه، باسم الأخوّة، كان ظالماً لك،

لأنّ ذلك أدّى إلى اختلاط الأمور وتداخل الحقوق، ودخلت في الخُصومة أطراف أخرى.

يمكن تصور ما حصل على الصورة الآتية: الأخ الغني يطلب من أخيه، رحمة به، أن يَضُم نعجته إلى نعاجه الكثيرة. ومضت الأيام، وبما أنها نعجة أنثى فمن المتوقع أن تكون قد توالدت وتكاثرت، ولا يبعد أن يكون هناك رعاة يرعون الغنم على قِسم، كما هو عادة الكثير من القدماء. وبما أنه لم يتم ابتداءً الاتفاق على تفاصيل الأمر، أهو مشاركة أم هو مجرد كفالة تطوعيّة، فقد نشأ نزاع بين عدة أطراف. وهذا التصور يساعدنا في فهم كونهم جماعة متنازعة:".. بغى بعضُنا على بعض"، "... وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض...".

"يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق...": من كان في مثل هذا الموقع يكون مسئولاً عن الفصل بين الناس، ومن قَبل ذلك يكون مسئولاً عن هدايتهم إلى سواء الصراط، وهذا يقتضي أن يُنفق معظم وقته في إرشاد الناس وتعليمهم ووعظهم، والفصل بينهم فيما أشكل عندهم. ومعلوم أنّ إنفاق الوقت في تعليم النّاس وقضاء حوائجهم والقيام على مصالحهم مُقدّم على التفرّغ لعبادة الصلاة. أمّا أن يُكثر داود، عليه السلام، من التعبد في محرابه، حتى يضطرهم إلى أن يتسوّروا المحراب ليصلوا إليه، فأمر يحتاج إلى تذكير وتنبيه. وقد كانت هذه الحادثة هي المُنبّه لداود، عليه السلام، فسارع إلى الإنابة والاستغفار.

"وظنّ داودُ أنّما فتنّاه": نعم، هذه الحادثة جعلت داود، عليه السّلام، يتنبّه إلى بعض وجوه التقصير التي يمكن أن يكون قد دفعه إليها حبّه للتفرّغ للعبادة، فأدرك، عليه السّلام، أنه قد امتحن من أجل تنبيهه إلى الأولويّات التي يجب أن يتنبّه إليها.

"وظنّ داودُ أنّما فتنّاهُ فاستغفرَ رَبّه وخَرَّ راكعاً وأناب، فغفرنا له ذلك..." إنّ مقام النبوّة يقتضي حساسيّة شديدة تجاه أي تقصير، أو حتى أدنى غفلة عن الأولويّات، وإن حصلت مثل هذه الغفلة فلا تلبث أن تزول، ولا يلبث النبي أن يُنيب إلى الله تعالى. ولا يجوز هنا أن يذهب بنا الخيالُ مذاهب فنتصوّر أنّ النبي يستغفرُ من كبيرة، بل إنّ الاستغفار هو ديدن الأنبياء، فهذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرّة. وصدق من قال: "حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرّبين"، فشتّان بين دواعي استغفارنا ودواعي استغفارهم، عليهم السّلام).

فتنة نبي الله سليمان ﷺ

قال تعالى:

﴿ ووَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب [٣٠] إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَاد [٣١] فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَاب [٣٢] رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاق [٣٣] وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَاب [٣٤] قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّاب [٣٥] فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَاب [٣٦] وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاص [٣٧] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَاد [٣٨] هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب [٣٩] وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب ٤٠ ﴾ ص.

التفسير:

ذكر المفسرون أقوالا كثيرة في هذه الفتنة، وأكثر هذه الأقوال من الاسرائيليات التي لم يثبت فيها سندٌ صحيح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا، ولأنها لا تليق بمقام النبوة لسيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام، فسأصرف عنها ذكرا.

ولعل ما يكون أقرب إلى التفسير الذي يعتمد على اللغة والسياق – والله أعلم – هو التالي:

(ولقد فتنا سليمان): قد يكون مرضا أو ما شابه، ألقاه الله عليه، فالأنبياء عليهم السلام يجوز عليهم المرض، كما في قصة أيوب عليه السلام مثلا.

(وألقينا على كرسيه): هو سليمان ﷺ نفسه.

(جسدا) وذلك لشدة المرض. قال الفخر: والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح.

(ثم أناب): أي رجع بعد فترة إلى صحته وعافيته، والإنابة ليست بالضرورة أن تحمل فقط معنى الإنابة إلى الله تعالى بعد الذنب مثلا.

(قال رب اغفر لي): فالأنبياء لا يفترون يذكرون الله ويستغفرونه، لأن المؤمن كلما ارتقى في إيمانه وعلمه؛ علم أنه لم يعبد الله حق عبادته، فيكثر من الذكر والاستغفار لتقصيره في ذلك، ومن أكثر من الأنبياء والرسل إيماناً وعلماً بالله تعالى!؟ لا أحد.

ولأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولأنهم أبدا في مقام هضم النفس، وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ: (**إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة)، وفي رواية: (مائة مرة)**.

وبما أنه ليس بالضرورة أن يكون قولنا مثلا: أننا فتنا فلان على أنه سقط في الفتنة، بل قد نقول فتنا فلان ولم يفتتن، كما نقول: نهيته فانتهى أو نهيته فلم ينته.

فقد يكون سليمان ﷺ لم يقع في الفتنة وهو النبي المعصوم، وربما يدل على ذلك؛ أنه عندما رأى أنه لم يقع في الفتنة وأنه على قدر المسؤولية كنبي وكملك، سأل ربه فقال:

(وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي)، والله أعلم.

الفصل السادس

(النجاة من الفتن)

وفيه:

١- التعوذ من أن يكون المسلم فتنة لغيره.

٢- النجاة والاعتصام من الفتن.

التعوذ من أن يكون المسلم فتنة لغيره

١- قال تعالى:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [٤] رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الممتحنة.

التفسير:

(قد كان لكم أيها المؤمنون أسوة حسنة): قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله.

(إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله): حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد.

(كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده): يقول جل ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقا، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا على كفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة، حتى تؤمنوا بالله وحده، يقول: حتى تصدقوا بالله وحده، فتوحدوه وتفردوه بالعبادة.

(إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء): قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم لأبيه (لأستغفرن لك): فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدو الله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، فتبرؤوا من أعداء الله من المشركين به ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرؤوا من عبادة ما سواه وأظهروا لهم العداوة والبغضاء.

(وما أملك لك من الله من شيء): وما أدفع عنك من الله من عقوبة، إن الله عاقبك على كفرك به، ولا أغني عنك منه شيئا.

(ربنا عليك توكلنا): وإليك رجعنا بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى.

(وإليك المصير): وإليك مصيرنا ومرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا في القيامة إلى موقف العرض.

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم): يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل إبراهيم خليله والذين معه: يا ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بك فجحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرك، بأن تسلطهم علينا، فيروا أنهم على حق ، وأنا على باطل ، فتجعلنا بذلك فتنة لهم.

قال ابن عباس: لا تسلطهم علينا فيفتنونا.

قال مجاهد: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

وقال قتادة: لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك. يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه.

(واغفر لنا ربنا): واستر علينا ذنوبنا بعفوك لنا عنها يا ربنا.

(إنك أنت العزيز الحكيم): الشديد الانتقام ممن انتقم منه، (الحكيم): الحكيم في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم.

٢- قال تعالى:

(وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)) . يونس.

التفسير:

قال موسى ﷺ لقومه: يا قوم إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، فبه فثقوا، ولأمره فسلموا، فإنه لن يخذل وليّه، ولن يسلم من توكل عليه، إن كنتم مذعنين لله بالطاعة، فعليه توكلوا.

فدعا قوم موسى فقالوا: يا ربنا لا تختبر هؤلاء القوم الكافرين، ولا تمتحنهم بنا، يعنون قوم فرعون.

وقد اختلف أهل التأويل في المعنى الذي سألوه ربَّهم من إعاذته ابتلاء قوم فرعون بهم.

فقال بعضهم: سألوه ألا يظهرهم عليهم، فيظنُّوا أنهم خيرٌ منهم، وأنهم إنما سُلِّطوا عليهم لكرامتهم عليه وهوان الآخرين. قال أبو مجلز: قالوا: لا تظهرهم علينا فيروا أنهم خيرٌ منّا. وقال أبو الضحى: قالوا: لا تسلّطهم علينا، فيزدادوا فتنة.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وهو قول مجاهد: أي لا تسلطهم علينا فيفتنونا. وقال: أي لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: "لو كانوا على حقّ ما سُلِّطنا عليهم ولا عُذِّبوا"، فيفتتنوا بنا.

وقال ابن زيد: أي لا تبتلنا ربنا فتجهدنا، وتجعله فتنة لهم، هذه الفتنة. وقرأ: (فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ) سورة الصافات: ٦٣.

ثم قال الطبري: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن القوم رغبوا إلى الله في أن يُجيرهم من أن يكونوا محنة لقوم فرعون وبلاءً، وكلُّ ما كان من أمر كان لهم مصدَّة عن اتباع موسى والإقرار به، وبما جاءهم به، فإنه لا شك أنه كان لهم "فتنة"، وكان من أعظم الأمور لهم إبعادًا من الإيمان بالله ورسوله. وكذلك من المصدَّة كان لهم عن الإيمان: أن لو كان قوم موسى عاجلتهم من الله محنةٌ في أنفسهم، من بلية تنزل بهم، فاستعاذ القوم بالله من كل معنى يكون صادًّا لقوم فرعون عن الإيمان بالله بأسبابهم.

الخاتمة

حلول وتوصيات:

لعله من الضروري بمكان أن أقدم في نهاية مطاف الكتاب، بعض الحلول العملية والتوصيات الهامة، حتى تعم الفائدة ويتحقق الهدف الحقيقي من الكتاب، في تقديم الأفكار التي من الممكن أن تترجم إلى أعمال.

فما فائدة التعرف على مواطن الفتن وأسبابها ونتائجها، إن لم نتعلم كيف نتحاشاها ونأخذ بعواصم الأمور المنجية منها؟

فمن نِعَم الله تعالى على الناس أنه أخبرهم أنهم مُبتلون ومَفتنون في حياتهم، حتى يحذروا ويأخذوا بأسباب النجاة والاعتصام.

وقد تناول القرآن الكريم مواضيع الفتن، التي تتجاوز عشرين موضوعاً متنوعاً، تحيط بالفرد والأمة، فحاولت تقديمها بشيء من التوضيح غير الممل والاختصار غير المخل، لعل الله تعالى ييسّر من يقوم بتناول كل فتنة على حدا في مؤلَّفٍ مستقل، يتوسع فيه في كل فتنة بين الماضي والحاضر.

علماً بأنني قمت بإلغاء بعض الأفكار والعناوين من الكتاب خشية الإطالة، فالذي يمكن أن يقال فوق ما قلته بين طيات الكتاب هو أكثر مما سطّرته بكثير، ولو توسعت لاحتجت إلى مجلدات لإعطاء كل موضوع حقه، ولكن حسبي أني قدمت الفكرة عموماً، ولعلها تكون بذرة لشجرة تخدم باباً من الأبواب التي أولاها كتاب الله اهتماماً بالغاً.

ويمكننا أن نلخص أهم ما جاء به هذا الكتاب من نقاط رئيسية على الشكل التالي:

- ما من إنسان إلا وهو مُعرّض للفتن، مع العلم أن للفتن أشكالاً وأحجاماً مختلفة.

- الفتن سنّة ربانية ماضية في الأمم والأفراد والجماعات، ومنها فتن عامة وفتن خاصة.

- الفتن قد تكون بالخير وقد يكون بالشر.

- أخبر الله تعالى أن الناس بعضهم لبعض فتنة، وكلّفهم بالصبر.

- الفتن إذا لم يتم إنكارها من أهل الإصلاح والصلاح عمّ اتشارها في المجتمع، وقد تسبب بعقاب الله تعالى.

- إذا ترك المسلمون موالاة بعضهم البعض، واتجهوا إلى موالاة أهل الكفر، فإن ذلك مدعاة لانتشار الفتن والفساد في الأرض.

- من الفتن ما هي أكبر وأشد من القتل، فمنها ما هو مخرج من الملة، ومنها ما هو دون ذلك.

- اتخذ أعداء الإسلام صوراً وأشكالاً متعددة لإفتان المسلمين.

قواعد في النجاة والعصمة:

لقد حذرنا الخالق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم من الفتن، كما مر معنا في هذا الكتاب، وقد بيّن لنا النبي ﷺ أمتن وأكمل القواعد الكفيلة لمن يتّبعها بالنجاة الفتن، بل والكفيلة للأمة جمعاء ألا تقع في مهالك الفتن ومطباتها إن التزمت بهذه القواعد، ولكن من قدَر هذه الأمة أنها ستمر على شريط من الفتن يمرّ بأولها وينتهي بآخرها، فطوبى لمن جنبه الله تعالى الوقوع فيها.

ومن هذه النصوص، والتي استنبطت منها هذه القواعد:

١- المعاجلة قبل المعالجة: قال ﷺ: **(بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا)**[1].

تحذير من زمن تكثر فيه الفتن، لدرجة أن الرجل يصبح مؤمناً ثم في المساء يبيع دينه فيمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ثم في صباح اليوم التالي يبيع دينه لأجل دنياه فيصبح كافراً، فكيف يكفر بين ليلة وضحاها؟ كيف يبيع دينه؟!

الجواب أن يُفتتن، كيف يُفتتن؟ يرى أمراً ما، كان يراه بالأمس حراماً فأصبح يراه حلالاً، كأن يكون يعلم بحُرمة الخمر مثلاً أو الزنا أو قتل النفس بلا ذنب، ثم يستحل ذلك، إما لشبهة اعترضته فأغرته، أو لربح أو مصلحة دنيوية زائلة، فتنته فبات يجعل الحلال حراماً أو العكس.

ولأجل النجاة من الوقوع في الفتن، يجدر به المعاجلة والمبادرة على النحو التالي:

---

[1] رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما.

قال ﷺ: (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعاً هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْراً مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ)[1].

والمبادرة هي المعاجلة والمسارعة قبل وقوع الفتن، بالقيام بالعبادات والأعمال الصالحة، قبل أن ينشغل المرء بحلول ظروف جديدة عليه، تشغله أو تمنعه عن القيام بواجباته من الطاعات والعبادات.

فقراً منسياً أو غنىً مطغياً: الفقر سيحتاج إلى مزيداً من العمل، والغنى سيُنتج مزيداً من المشاغل، وكلاهما من الشواغل عن العبادات والصالحات من الأعمال.

مرضاً مفسداً: فالمرض مما يفسد على المرء صحته فيصيبه العجز أو الكسل، فيقعده عن الواجبات الدينية.

هرماً مفنداً: وهو الخرف الذي يصيب المرء في شيخوخته، فلا يعد يدري ما يقول، فأنى له القيام بالعبادات؟!

موتاً مجهزاً: موت الفجأة، وهو أيضاً من علا مات الساعة، فلا يقدر المرء على استحداث توبة، أو تجديد أوبة، أو كتابة وصية.

الدجال: فشر غائب يُنتظر لحجم فتنته.

أو الساعة فالساعة أدهى وأمر: أي أشد داهية وأكثر مرارة من جميع ما ما سبق حيث ينقطع العمل ويبدأ الحساب.

[1] رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

فالحديث يحثّ على المبادرة بالعمل الصالح والمعاجلة قبل نزول شيئاً مما سبق، فيُوقع المرء في الفتن، قال الحسن البصري رضي الله عنه: "والله لقد رأيناهم صورا بلا عقول، أجساما بلا أحلام، فراش نار وذبان طمع، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين يبيع أحدهم دينه بثمن العنز"[1].

فإن كان ها كلام الحسن رضي الله عنه وهو من أهل القرن الأول المفضل، فكيف يقول من يعيش في زمن الفتن وقلة الصالحين؟! أليسوا من باب أولى أن يلتمسوا الحيطة والحذر؟

٢- فقه الأولويات: قال ﷺ: **(إنكم قد أصبحتم في زمان، كثير فُقهاؤُهُ قليلٌ خطباؤُهُ، كثيرٌ مُعْطُوهُ، قليلٌ سُؤَّالُهُ، العَمَلُ فيه خيرٌ من العِلْمِ، وسيأْتي زمانٌ قليلٌ فُقهاؤُهُ كثيرٌ خُطباؤُهُ، وكثيرٌ سُؤَّالُهُ، قليلٌ مُعْطُوهُ، العِلْمُ فيه خيرٌ من العَمَلِ)**[2].

فبالعلم يتقي المسلم السقوط في الفتن والبدع والمضلات والشبهات، خاصة مع انتشار وسائل الاتصال والإعلام والتواصل الاجتماعي، التي ساعدت على بث المعلومات وإيصالها إلى كل مسلم، صغير أو كبي، ذكر أو أنثى، بكل سهولة، وقد تكون هذه المعلومة مزورة وخاطئة ولكها مغلفة بسحر البلاغة وزخارف القول، التي من شأنها أن تخدع عوام الناس من غير الراسخين في العلم. أخرج الدارمي في سننه عن أبي الزاهرية يرفع الحديث:

(إن الله تعالى قال: أبث العلم في آخر الزمان، حتى يعلمه الرجل والمرأة والعبد والحر والصغير والكبير، فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقي عليهم).

[1] رواه الإمام أحمد والحاكم في المستدرك وعيم في الفتن وغيرهم.

[2] رواه الطبراني في الكبير، وقال الهيتمي في مجمع الزوائد: وفيه عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي وهو ثقة إلا أنه قيل فيه يروي عن الضعفاء وهذا من روايته عن صدقة بن خالد وهو من رجال الصحيح.

٣- الإصلاح والإنكار قبل نزول الهلاك:

قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود:١١٧]

وقد ذكرت فيما سبق أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا ينزل غضب الله تعالى، وذكرت الأحاديث الواردة في ذلك، ومنها عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها. قال: إن فيها عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين؟ قال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط**)[١].

الخلاصة:

فبالعلم والمعاجلة والسعي للإصلاح، إذا عمّت هذه الثلاثية في مجتمع ما، فلن يكون مستواه كما لو انعدمت هذه الثلاثية، والله أحكم وأعلم.

ختاماً، أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب القبول والتوفيق، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

[١] رواه الطبراني في الأوسط، وقال في مجمع الفوائد: من رواية عبيد بن إسحاق العطار ع عمار بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمار بن سيف اب المبارك وجماعة، ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

المصادر المراجع

أولاً- كتب التفسير:

١ - الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (ت:١٢٧٠ هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية ١٤١٥ هـ.

٢- البقاعي، برها الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، (ت: ٨٨٥ هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي ١٤٠٤ هـ.

٣- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (ت: ٥١٦ هـ)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ.

٤- البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (ت: ٦٨٥هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي ١٤١٨هـ.

٥- الرازي، أبو عبد الله فخر الدين، (ت:٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ.

٦- أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، (ت: ١٣٩٤هـ)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.

٧- الشعراوي، محمد متولي، (ت:١٤١٨هـ)، تفسير وخواطر الشعراوي، مطابع اخبار اليوم١٩٩٧.

٨- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤١٥هـ.

٩- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (ت:٣١٠هـ)، دار هجر١٤٢٢هـ.

١٠- القاسمي، محمد جمال الدين، (ت:١٣٣٢هـ)، محاسن التأويل، دار الكتب العلمية ١٤١٨هـ.

١١- القرطبي، محمد بن أحمد، (ت:٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية ١٣٨٤هـ.

١٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (ت:٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة ١٤٢٠هـ.

١٣- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، (ت:٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ.

١٤- المراغي، أحمد بن مصطفى، (ت:١٣٧١هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي١٣٦٥هـ.

١٥- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت:٥٣٨)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ.

١٦- طنطاوي، محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر ١٩٩٨م.

١٧- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، (ت:١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير القرآن المجيد، الدار التونسية للنشر١٩٨٤م.

١٨- نوفل، د. أحمد نوفل، تفسير سورة يونس، وتفسير سورة الإسراء، جمعية المحافظة على القرآن الكريم ٢٠١٨م.

١٩- جرار، بسام جرار، دروس الشيخ بسام جرار على موقع قناة نون على اليوتيوب.

ثانيا- المعاجم:

١- ابن منظور، محمد بن علي أبو الفضل، (ت:٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر – بيروت ١٤١٤هـ.

٢- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، (ت:٨١٦هـ)، التعريفات، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ.

٣- الأصفهاني، الراغب، (ت:٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن،

ثالثاً – علوم القرآن:

الاتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي – أسباب النزول للواحدي، أحكام القرآن لابن العربي.

رابعاً – كتب الأحاديث والشروحات:

١- الصحاح والسنن والمسانيد:

موطأ الإمام مالك، صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن الترمذي، وابن ماجة، وأبو داود، والنسائي، مسند الإمام أحمد، المستدرك للحاكم النيسابوري، سنن البيهقي، سنن الدارمي، معجم الطبراني، مسند البزار "البحر الزخّار"، مسد أبو يعلى، مصنف عبد الرزاق، مجمع الفوائد للهيتمي، صحيح ابن حبان، مصنف ابن أبي شيبة.

٢- كتب الشروحات:

فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، دار المعرفة ١٣٧٩هـ- منهاج الإمام النووي في شرح صحيح الإمام مسلم، فيض القدير شرح الجامع الصغير لزين الدين المناوي، عون المعبود شرح أبي داود للعظيم آبادي، تحفة الأحوذي شرح الترمذي للمباركفوري.

خامساً – متفرقات:

كتاب "ماذا عن المرأة" للدكتور نور الدين عتر – "تحرير المرأة بين الغرب والإسلام" للدكتور محمد عمارة – "حصوننا مهددة من الداخل" للدكتور محمد محمد حسين، "أجنحة المكر الثلاثة" للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة – "سياحة الفكر، مقالات في التفسير" الشيخ بسام جرار.

فهرس الكتاب